

رحلة فريزر

إلى بغداد سنة ١٨٣٤ م


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رحلة فريزر

إلى بغداد سنة ١٨٣٤ م



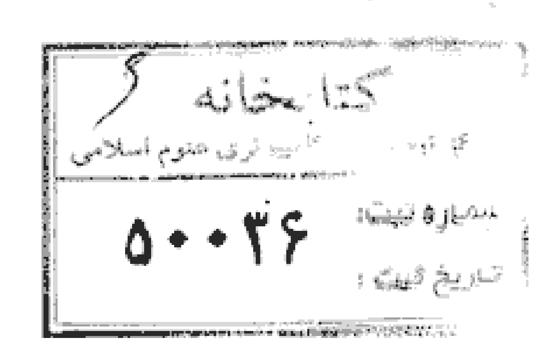
تأليف

جيمس بيلي فريزر

ترجمة

جعفر الخياط

الدار العربية للموسوعات



الطبعة الأولى
٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ



الدار العربية للموسوعات
الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ - فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢
هاتف نقال: ٠٠٩٦١٣/٣٨٨٣٦٣ - ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com
البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام خالد العاني

مقدمة المترجم

«.. ولم يهتم بالبلاد الواقعة في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط سوى حكومات أوربة الجنوبية البحرية، لأن هذه البلاد كانت مصدراً مباشراً أو طريقاً لمصادر الحرير والتوابل والأبازير التي كانوا يحصلون عليها بمبادلة البضائع من سورية ومصر. ومن جراء هذه الحاجات كانت السفرات البحرية لدياز ودوغاما قد عجلت الاهتمام بالبلاد الهندية وما جاورها. فمخرت أساطيل البرتغال عباب البحار الهندية قبل انتهاء القرن الخامس عشر، وشيدت في الخليج العربي قلعة هرمز العظيمة في (٩١٣هـ) ١٥٩٧م. وكان تجار البندقية وجنوة يسلكون باستمرار الطريق البري الذي هو بمقام جسر أرضي يربط البحر الأبيض المتوسط بالسواحل الإيرانية. وكانوا في طريقهم هذه ينزلون فيَ خانات بغداد أو «بابل» ويشاهدون النجف أو يتلبثون أيام مرورهم في الزبير.

وهكذا بقي ذكر العراق خاملاً في العالم من قبل أن يعود به، فيجعله قبلة الأنظار من جديد، ظهور الصفويين الذين كانت شهرتهم آخذة بالنمو، ومن قبل فتوحات سلطان الترك الشرقية، وتوسع تجارة الأمم الغربية ومغامراتها».

هذا ما كتبه المستر لونگريك في (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ليأتي به على وصف علاقة العراق بالعالم الخارجي في تلك الأيام التي وقع فيها فريسة في أيدي الفاتحين من المغول والتركمان. وقد تطورت تلك العلاقة بعد ذلك فازداد اتصال البرتغاليين بالبصرة وخليجها بعد أن ثبتوا أقدامهم في هرمز. وكانت النهضة الحديثة في أوربة يومذاك قد دب فيها دبيب الحياة، وراحت أساطيل الأمم الكبيرة تتجه في إبحارها نحو الهند والبلاد



بغداد كما ترى من منطقة المجيدية - ١٨٢٧م

المجاورة لها. فظهر الهولانديون والإنكليز في موانىء الخليج العربي، وأسس الإنكليز شركة الهند الشرقية، وحمي وطيس المنافسة بين هذه الدول الثلاث حتى وصل إلى الاشتباك والتصادم. فاحتل الإنكليز حصن قشم البرتغالي المنيع في كانون الثاني ١٦٢٢م، وساعدوا الإيرانيين بأسطولهم في الاستيلاء على هرمز بعد عدة أشهر.

ومع أن هذا الحدث كان يعتبر ضربة قاصمة للنفوذ البرتغالي في تلك الجهات فقد ظلت المنافسة قائمة على قدم وساق حتى استطاع البريطانيون القضاء على قوة البرتغاليين البحرية في ١٦٨٩م. وعند ذاك ظلت المنافسة منحصرة بين الإنكليز والهولانديين، فأظهر الهولانديون مهارة في التجارة بأساليب غير محمودة، ولكنها غير عنيفة. إذ أخذوا يهاجمون الأسواق بكل سلاح الرشوة والدعاية الزائفة أو المضاربة المغرية. ومع هذا فقد صمد الإنكليز لكل ذلك فكان التوفيق حليفهم في النهاية. وخلا لهم الجو فأصبحت لهم سيطرة مطلقة على المنطقة الممتدة من الهند إلى الخليج، ثم إلى داخل

العراق. وقد تعاظم نفوذهم في أيام الباشوات المتأخرين من المماليك في العراق ومن أتى بعدهم بحيث راحوا يتدخلون في كثير من شؤون العراق الداخلية، ويسخرون نفوذهم السياسي في إبقاء هذا الباشا أو ذاك متربعاً على دست الحكم فيه.

ويقول لونگريك في هذا الشأن، «أما في داخل العراق فإن انتقال البلاد من حالة القرون الوسطى إلى حالة دولية حديثة قد زاد في اتصاله وتعاونه مع الممثلين الأجانب. فقد كانت المشاريع البريطانية من جهة تقوم بخدمات جليلة للعراق من دون أن تطلب شيئاً في مقابل ذلك سوى تأمين توسع التجارة البريطانية. وكان حكام العراق المتعصبون من جهة أخرى مستائين من وجود هؤلاء الأجانب وامتيازاتهم، وصداقاتهم للقبائل، لكنهم لم يقووا على منع كل ذلك. فإن كبيرهم «المقيم» كان بوسعه أن يحطم كل شخص بكلمة واحدة تصدر منه إلى استانبول.. وبينما كان القنصل - التاجر في القرن الثامن عشر غير قادر على شيء سوى دوام «الامتيازات» وتركه حراً دون تعرّض له أصبح مقيم القرن التاسع عشر وهو المتكلم نيابة عن شركات البواخر، وهيئات إنشاء التلغراف، والأثريين، ومؤسسات الهبات الخيرية. ولم تفتأ بعض استنجادات القبائل بالحماية البريطانية تزعج الباشا أشد الإزعاج..».

على أن نشأة التغلغل البريطاني هنا في بداية القرن التاسع عشر كان يتأثر إلى حد كبير بالمنافسة التي كانت موجودة بين بريطانية وفرنسة النابوليونية في الشرق الأوسط جميعه. وقد ظلت بريطانية على وضعها هذا حتى استطاعت القضاء على نابوليون أيضاً، وتخلصت من شر الخطط التي وضعها لتهديد مركزها في الهند وما جاورها. وفي حوالي ١٨٣٠م تبدأ المنافسة البريطانية الروسية في هذه الجهات من العالم، وتمتد إلى نهاية القرن تقريباً، لتحل محلها بعد ذلك المنافسة الإنكليزية الألمانية.

وفي خلال هذه المراحل والأدوار كلها كثر اتصال العراق بالعالم الخارجي وتعدّدت أوجهه، وصار الكثيرون من الأوربيين يقصدون هذه البلاد أو يمرّون بها. ويتجوّلون في أرجائها. أو يقيمون فيها مدة تقل أو تزيد تبعاً

لنوع العمل الذي يأتون من أجله أو المهمة التي يندبون لها. وقد عمد الكثيرون من هؤلاء إلى كتابة مذكرات أو يوميات عن رحلاتهم وسفاراتهم هذه، فكان بعضها مهماً وبغض الآخر تافهاً لا قيمة له. فتوفرت من ذلك كله ثروة تاريخية غير يسيرة، لها قيمتها في توضيح الحوادث التي كانت تقع في شتى الأدوار التي مرت بها هذه البلاد ولا سيما في «عصورها المظلمة»، على ما فيها من تحيّز وتحامل في بعض الأحيان.

ولو أردنا أن نحصر الغايات والأغراض التي كان أولئك السياح المسافرون يقصدون هذه البلاد من أجلها في تلك الأيام نجد أنها لا تخرج عن النقاط التالية: «التبشير، التنقيبات الأثرية، السياحة والمغامرة، الأغراض التجارية، التمثيل السياحي، والانتداب لأغراض فنية أو عسكرية أو طبية، هذا فضلاً عن المرور من هذه البلاد الواقعة بين القارات وخاصة في الطريق إلى الهند وإيران. ولذلك فقد أورد لونگريك وحده في قائمة مراجعه عن العراق للفترة ما بين ١٥٥٣م و١٩١٤م أسماء لثماني وتسعين رحلة وتقرير ومقالة مسهبة، وكلها تصف العراق وأوجه الحياة فيه بطريقة أو بأخرى. أما أصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالي وفرنسي، وهولاندي وألماني، وإيطالي وإنكليزي، وأرمني وهندي، بالإضافة إلى أربعة من الأتراك. غير أن قسماً كبيراً من أولئك هم من الإنكليز بلا شك.

ومن جملة السياح الإنكليز هؤلاء، أو الرحالين، صاحب هذه الرحلة المستر جيمس بيلي فريزر، الذي كتبها بجزأين وسماها «رحلات في كردستان وبين النهرين»[١]. وهو رجل مهنته الكتابة، وقد قام برحلته في عام ١٨٣٤م، فسافر من استانبول إلى إيران بمهمة ديبلوماسية وقطع المسافة على ظهور الخيل ثم تجول فيها حتى حط الرحال في تبريز. وأخذ يكتب منها إلى زوجته على ما يظهر رسائل متتالية فيها شيء غير يسير من التفصيل عن كل ما يرى في

---

(١) J. Baillie Fraser, Travels in Koordistan & Mesopotamia, (Richard Bentley, New Burlington st, London 1840).

طريقه أو يفكر فيه. وتبدأ الرحلة المطبوعة هذه بالرسالة الأولى من تبريز، التي أرّخها في ٤ تشرين الأول ١٨٣٤م. فيتطرّق في رسائله الخمس الأولى إلى وصف الحالة في تبريز وكردستان الإيرانية كلها وخاصة منطقة أردلان. وبالنظر لأن هذه المناطق تقع في إيران فقد ضربت صفحاً عنها ولم أقم بترجمتها لأنها لا تمت بصلة قوية إلى تاريخ هذه البلاد. لكنني وجدت من المناسب، بل من الضروري، أن أقوم بترجمة قسم كبير من رسالته الثالثة (المؤرّخة في ١٧ تشرين الأول ١٨٣٤م) لأنه يتطرّق فيها عرضاً إلى شؤون راوندوز من تاريخ الأصقاع الشمالية من العراق نفسه. وقد أهملت كذلك قسماً غير يسير من الرسالة الخامسة عشرة (الأخيرة) المطبوعة في الجزء الأول لأنها تتطرّق في بحثها إلى عشائر عربية تدخل في داخل الحدود التركية أولاً، ولأن البحث المتروك يعدّ شيئاً تافهاً لا قيمة تاريخية له.

أما الرسائل الأخرى التي يحويها الجزء الأول من الرحلة، أي الرسالة السادسة إلى الخامسة عشرة، فهي التي تؤلف مجموع هذا الكتاب الذي أطلقت عليه تجاوزاً اسم (رحلة فريزر إلى بغداد في ١٨٣٤م). ولهذه الرسائل، عدا ما فيها من طرافة، أهمية تاريخية غير يسيرة. لأنها تجلو لنا كثيراً من مراحل التاريخ العراقي في أواخر أيام داود باشا أو أوائل العهد الجديد الذي دخل فيه العراق، بعد أن تعاونت الأقدار وجيوش السلطان في القضاء على باشوات المماليك وعهدهم ووضعت حداً لاستقلالهم في الحكم عن الباب العالي في استانبول.

فهي تصف مير راوندوز كور محمد باشا وصفاً طريفاً وتتطرّق إلى فتوحاته وطريقة حكمه، وتصف ما آلت إليه الحالة في السليمانية من فقر وخراب بسبب الخلافات العائلية والطاعون، كما تصف مؤامرات داود باشا، والطاعون الكبير الذي أتى على ثلثي سكان بغداد في أيامه، والغرق، والخراب الذي حل بالبلاد في أثر ذلك. ثم تتطرّق إلى استيلاء علي رضا باشا على بغداد وقضائه على بقايا المماليك، وطريقته في الحكم مع سياسته العشائرية. وفي الرسائل معلومات مفيدة عن عشائر الجربا وعنزة وعقيل وزبيد واستفحال أمرها مع تهديدها لبغداد نفسها، ووصف طريف لبغداد بعد خرابها،

ولمجتمع بغداد ومحلاتها وطبقات السكان فيها، مع العادات والأزياء والملابس. هذا وقد علّقت على كل ذلك ما أمكن التعليق توضيحاً للحقائق وربطاً لها بالحوادث التاريخية العامة على قدر الإمكان.

أما الجزء الثاني من الرحلة ففيه تسع عشرة رسالة أيضاً، وهي تتناول سفرات أجريت إلى سلوقية وطاق كسرى، ثم إلى آثار بابل والحلة وما جاورهما، وإلى مخيم زبيد وبعض العشائر الأخرى، وإلى المنتفك وسوق الشيوخ وما حوله. ويلاحظ من هذه الرسائل أن صاحب الرحلة يعود إلى بغداد ثم يغادرها متوجهاً إلى إيران ثانية عن طريق ديالى التي يكتب عنها شيئاً أيضاً. ولم يسمح لي المجال مع الأسف أن أقوم بترجمتها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن صاحب الرحلة يجنح في رسائله هذه إلى التحامل على العرب والأكراد معاً بعض التحامل، ويصمهم بوصمات ونعوت قد لا تكون مناسبة، وخاصة العشائر منهم. وذلك في معرض التكلّم عن أخطار الطريق وتعرّض السياح والمسافرين إلى السلب والنهب وفرض الإتاوة عليهم. وإني أعتقد أن هذا شيء لا يمكن أن يكون غير منتظر بالنسبة لأوضاع البلاد وأحوال سكانها في تلك الأيام من جهة، ولعقلية الأوربيين واستغرابهم مما يصادفونه في البلاد الغريبة عنهم من جهة أخرى. على أنني مع كل ذلك أؤاخذه فيما يصدره فيها من أحكام عامة في بعض الأحيان من دون أن تستند إلا إلى حوادث فردية أو وقائع شاذة لا يمكن أن تتخذ مقياساً تقاس به الأمور بصورة عامة. ولا شك أن القارىء الكريم سيلتفت إلى ذلك.

وقبل أن أختم هذه الكلمة أود أن أشير إلى أن صاحب الرحلة المستر فريزر ملم باللغة الفارسية على ما يبدو من كتاباته، وله كتب عن إيران منها «القزلباش» و«رحلة شتوية إلى إيران»[١] عدا كتابه الآخر عن آثار العراق الموسوم «ما بين النهرين وآشور»[٢]. كما أود أن أسجل إعجابي بأسلوبه

---

(١) A Winter Journey to Persia.

(٢) Mesopotamia, and Assyria (N.Y. 1842)

الكتابي وسعة اطلاعه وثقافته بوجه عام.

وكان جيمس بيلي فريزر هذا قد ولد في أنفرنيس باسكوتلاندا في ١٧٨٣م وتوفي في ريليك في كانون الثاني سنة ١٨٥٦م. مما عرف عنه في أيامه أنه كان سائحاً ومؤلفاً، وقد ذهب إلى الهند في أول أدوار حياته، وفي ١٨١٥م ارتاد جبال الهيمالايا ودرس الكثير من أحوالها. وحينما عاد إلى لندن بعد ذلك عُيّن[1] لمرافقة الأميرين الإيرانيين اللذين كانا منفيين في إنكلترا، رضا قلي مرزا ونجف قلي مرزا، وعاد معهما حتى أوصلهما إلى استانبول. وفي ١٨٢٣م تزوج ابنة اللورد ووهاوسلي، وهي زوجته التي ظل يبعث إليها برسائله التي يؤلف قسم منها قوام هذه الرحلة. وكانت بعض الملاحظات الفلكية والجغرافية التي دوّنها في رحلاته وأسفاره ذات فائدة جلى في رسم خرائط البلاد الآسيوية.

جعفر الخياط



(١) دائرة المعارف البريطانية.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١)

.. الوصول إلى أرومية - العشائر الكردية وعبثها - البلباس - مير راوندوز - رحلة الدكتور روص إلى المير - مقارنة بين القرى التركية والكردية - دمدم مقر المير الكبير (الأب) - أخلاق الناس - لباسهم وأزياؤهم - عاداتهم - عمى المير الكبير - إخوان المير - الخرافات - عدم إقراء الضيف - الوحشية والشجاعة - قوانين المير وعدالته - العقوبات الصارمة - الجيش في الميدان - الاستيلاء على عقرة - إخضاع العمادية - ذهاب الدكتور روص إلى معسكر المير - مواجهته للمير والتحدث معه - معسكر المير - عودة الدكتور روص - شخصية المير وأخلاقه - محاولاتي للاتصال به - عدم توفقي في ذلك - توجهي إلى بغداد عن طريق السليمانية.

أرومية ١٧ تشرين الأول ١٨٣٤م

إن سفرة ثلاثة أيام يا عزيزتي - من القرية التي حرّرت فيها رسالتي السابقة إليك قد أوصلتني إلى هذه المكان الجميل، العريق في القدم، الذي يعتبر مسقط رأس زرادشت المشهور. إذ يقع طريقنا من طسوج إلى هنا في منطقة سلماس وسهلها، وهي من أجمل المناطق في أذربيجان.

... وتسيطر على هذه البلاد في الحقيقة عشائر متوحشة خارجة عن الطوق، لا يضع حدًّا لتصرفاتها سوى ضعفها النسبي. فالبلباس، وهم عشيرة كانت قوية الشكيمة كثيرة العدد في يوم من الأيام، يسكنون الجبال والسهول المحيطة بباليك ولا هيجان التي لا تبعد كثيراً عن أرومية نفسها. وهم بين حين وآخر يسلّون أنفسهم بالانقضاض[١] على جهات سولدوز وسرادشت

---

(١) جاء في كتاب دوحة الوزراء لمؤلفه رسول حاوي الكركوكي، عن وقائع عام ١٢١٧ =

المجاورة، وحتى على سوج بولاق في بعض الأحيان. وهناك كذلك الروان والهركية والنوجية، وعشائر كثيرة أخرى ميالة هي ايضاً إلى أن تسلّي نفسها على هذه الشاكلة. ومن حسن الحظ أن تنشأ إلى الغرب من هذه المنطقة قوة مرهوبة الجانب تستطيع، على ما فيها من خشونة، أن تمارس تأثيراً مطوعاً على هؤلاء النهابين الشرسين وتجبرهم على الخضوع التام الضروري، برغم ما فيه من تعسف، فتجعل بذلك قسماً من البلاد آمنة سالمة يمكن التجوّل فيها في حالات معيّنة.

فلم يكن محمد باشا، الذي يعرف بمير راوندوز[١]، قبل سنوات قليلة سوى رئيس مثل سائر الرؤساء الأكراد وقائد يقود محاربي عشيرته التي لم تعرف بغير اسم راوندوز. وقد بدأ سيرته بتنحية والده عن رئاسة القبيلة بحجة عدم اقتداره في تدبير شؤونها خلال الأيام العصيبة. على أن البعض يقول إن الوالد المتقدم في السن كان ميّالاً بطبيعته إلى الهدوء والتعبّد فطلق العالم ومغرياته، ووضع ابنه في منصبه. وبالطريقة نفسها تخلّص من بعض إخوته، فثبّت أقدامه بحزم وقوة وأصبحت له السلطة المطلقة في موطنه راوندوز. وأخذ بعد ذلك يعمل على تعزيز سطوته وجمع الأتباع استعداداً لمعاركه المقبلة. لكن نهضته الحقيقية تبدأ بالحرب التي نشبت بين إيران وروسية حين اضطر الأمير المالك إلى سحب قواته وتحشيدها تجاه عدو أشد خطراً على

= للهجرة ما يلي: «ان عشيرة البلباس القاطنة بين الحدودين في لاهيجان وأشنو وكوهية كانت تقوم بالاعتداء باستمرار على سوج بولاق ومراغة وأرومية الإيرانية، الأمر الذي كان يضر بمصالح الدولتين. وبناء على الشكوى الواردة عن هذه التعديات فقد أرسل والي بغداد المرحوم علي باشا متصرف السليمانية إبراهيم باشا لتأديب هذه العشيرة. وقد قام بمهاجمة قسم من العشائر الموجودة في أربيل وردهم».

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب (عشائر العراق الكردية) أن محمد باشا الراوندوزي هو ابن مصطفى بك بن أحمد بك بن أوغوز بك ين أحمد الثاني بن مصطفى بك بن علي بك بن سليمان بك بن الشاه قولي بك مؤسس شقلاوة.

البلاد بعد أن كان يهم بسحق المير وتأديبه. فاستغلّ المير هذه الفرصة، ولم يسترجع جميع المناطق التي كان الأمير الإيراني قد حرمه منها فحسب بل مدّ يده أيضاً إلى الغرب والشمال وتوفق في ذلك بحيث أصبح الآن مسيطراً على قسم كبير من شمالي ما بين النهرين، إلى جانب الأصقاع الممتدة من أربيل إلى كركوك في الجانب الشرقي من دجلة.

والمقول بصورة أكيدة أن ما يقرب من خمسين ألف رجل يقفون الآن تحت تصرّفه، وتدفع للنصف الأحسن من هؤلاء أجورهم بانتظام وهم يعملون بصورة مستديمة لأنه لا يزال يستخدمهم في إخضاع المناطق العاصية عليه، وهكذا تتسع ممتلكاته بسرعة. لكن الجزء المهم من القصة كلها هو التغيّر الأخلاقي الكبير الذي حصل في البلاد التي أخضعها لحكمه. فإن البلاد بعد أن كانت تحتلها أمة من اللصوص الذين ما إن يجدوا مسافراً يمر إلّا ويحاولون إيقافه وسلبه، أو الذين يقدمون على ذبح المرء إذا وجدوا بيضة في يده كما يقولون هم أنفسهم، قد أصبحت خالية من أية سرقة أو سارق. فقد قضى على صنعة اللصوصية من أصلها بعملية بتارة: إذ صار الذي تكتشف بحوزته أشياء تعود للغير يعاقب في نفس المكان الذي يكتشف أمره فيه، أو يقتل من دون رحمة. وتتوقف العقوبة في هذا الشأن على ظروف الجريمة، فيعاقب المذنب لأول مرة بسمل واحدة من عينيه أو قطع إحدى يديه أو بجدع الأنف أحياناً. ثم يعاقب للمرة الثانية بتشويه أشد من هذا القبيل، أما في المرة الثالثة فإنه يعاقب بالموت على الدوام.

ولا شك أن صرامة هذا القانون تستدعيها الظروف السائدة في البلاد التي يراد ضبطها، والحالة فيها. فهو قانون رئيس من رؤساء اللصوص ينفذه من دون خوف أو وجل، ومن دون أن يعفى منه أحد، لأجل أن يسيطر به على رجال عصابته. وحينما يعلم الجميع بأن أحكام هذا القانون لا استئناف لها ولا تمييز، وليس هناك رحمة في عدالته، فإنهم لا بد أن يرتجفوا ويطيعوا. ولا شك أن أي شيء يقل عن ذلك في صرامته وقسوته لا يمكن أن يكون مؤثراً في هذه الظروف. فكان لذلك وقع شديد بين الناس بحيث صار كل من في البلاد

الخاضعة لحكم المير وسيطرته لا يمس حتى كيس الذهب إذا وجده في الطريق، وإنما يخبر مختار القرية القريبة من الموقع، وهذا بدوره يكون من واجبه أن يبعث من يجضره له فيحفظه عنده حتى يتم تسليمه إلى صاحبه الشرعي، على أن يخبر المير نفسه بذلك في الوقت نفسه.

ويروى عن المير أنه تناهى إليه ذات يوم أن أحد إخوته المقرّبين إليه مرّ راكباً ببستان يعود لرجل فقير واقتطف رمانة منه، دون أن يترخّص من صاحبه. فبعث عليه وواجهه بالتهمة التي لم ينكرها، ثم سأله عن اليد التي اقتطف بها الرمانة والأصبع الذي قطعها به، فأمر بقطعه. وتروى عنه قصة أخرى فتذكرنا بقصة مماثلة تؤثر عن نادرشاه الذي لا يقل عنه المير صرامة وقسوة. فقد وجدت جثة رجل على قارعة الطريق بالقرب من إحدى القرى، وقد شوّهتها الذئاب وبنات آوى ومزّقتها شرّ ممزّق. فوصل خبرها إلى المير نفسه، وأمر بإجراء التحريات المعتادة جميعها لكن القتلة لم يتوصل أحد إلى معرفتهم. وحينما سئل القرويون عن جلية الأمر ألقوا اللوم على ذئاب الغابة المجاورة التي سبق أن التهمت القسم الأكبر من الجثة. فأمر المير بإحضار الذئاب، وعند ذاك خرجت القرية كلها للقبض على الذئاب لأن سكانها كانوا على علم بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرهم فيما لو عجزوا عن ذلك. وحينما جيء ببعض الذئاب إلى الرجل العظيم أمر بتعذيبها وقتلها قتلاً فظيعاً أخذت ترتجف لهوله أوصال القرويين الذين شاهدوها، حتى أجهدوا أنفسهم في اكتشاف القتلة وتسليمهم إلى العدالة لإنقاذ أنفسهم من المصير المرعب الذي كان يدل عليه ما حدث للذئاب المسكينة. وهذه القصة وإن تكن بعيدة الوقوع، فإنها تدل على الضوء الذي يجب أن ينظر فيه إلى أعمال هذا الرجل.

ولأجل أن يتسنّى لي وصف أمير كتب له على ما يظهر أن يؤثر تأثيراً مهمًّا في جزء كبير من هذه البلاد الطريفة جداً أراني مضطراً للانتفاع ببعض النبذ المستمدة من يوميات الدكتور روص طبيب المقيمية البريطانية ببغداد الذي أسعفه الحظ فتسنى له أن يقوم برحلة في هذه البلاد المخطرة بدعوة من المير نفسه. فإن المير مصطفى والد مير راوندوز كان رجلاً أعمى على ما يبدو،

ويأمل أن يرد بصره إليه اتصل المير بالكولونيل تايلور (المقيم) ورجاه بأن يوفد له طبيباً إنكليزياً يجرّب فيه ما عنده من مهارة. فاغتنم الكولونيل تايلور هذه الفرصة لتنمية العلاقات مع هذا الرجل العجيب في الحال، وكلّف الدكتور روص بهذه المهمة الطريفة. فتوجّه إلى بلاد المير في قافلة يرأسها عمّه بايزيد بك الذي كان قد أرسل إلى بغداد للاتصال بالمقيم البريطاني حول القضية.

على أنه من الضروري أن أخبركم أولاً بأن المير، علاوة على جميع فتوحاته فيما بين النهرين والقسم الأسفل من بلاد آشور، كان في ذلك الوقت قد امتدت يده إلى بلاد العمادية، الخصبة الواسعة على كونها جبلية وعرة، التي تقع في شمال غرب راوندوز وشمالي الموصل أيضاً. وقد كانت هذه الدويلة، أو الباشوية لأنها كانت في حكم أحد الباشوات، موضع ثناء الجميع ومدحهم لخصبها وجمالها ولكثافة السكان فيها. فقد أجمع عدة رجال محترمين في تصريحهم لي على أنها تحتوي على اثني عشر ألف قرية، غير صغيرة، تتألف كل منها من عدد من الأسر (أو البيوت) يتراوح بين المئتين والثلاثمائة. وهذا قول لا بد أن يكون بعيداً كل البعد عن الواقع، لأننا إذا اعتبرنا أن القرية الواحدة تحتوي على مئة وخمسين بيتاً فقط، وإذا افترضنا أن كل بيت يضم خمسة أنفس لا غير نجد أن المجموع يبلغ تسعة ملايين نسمة، وهو عدد يتجاوز عدد الموجود من السكان في إيران كلها. ولذلك لا بد أن يؤخذ الرقم هذا ليدل على أن العمادية كثيرة السكان لا غير.

وقد كان يحكمها باشا ينتمي إلى أسرة كردية معروفة، بتنصيب من الباب العالي. لكن سوء حكمه، والحسد الذي قوبل به من الآخرين، والنزعات المحلية، قد أدّت كلها إلى إسقاطه عنه. فأصبحت البلاد منقسمة إلى عدة رئاسات محلية صغيرة لا تلتفت بشيء إلى الباشا الحاكم الذي كان رجلاً ضعيفاً أحمق، أضاع سلطته وسطوته على الناس وحبس نفسه في قصره المنيع الموجود في العمادية، بينما كان المير يكتسح البلاد ويقضي على هذه الرئاسات الشخصية واحدة بعد أخرى. وباستغلال الضغائن العائلية والخيانة دفع المير الرشوات المناسبة ودخل تلك القلعة المهمة، ومن هناك أخذ يوجه

جهوده بمزيد من الحيوية للقضاء على ما تبقى من القلاع في تلك البلاد. على أن العمادية لم تكن قد سقطت بعد حينما زار البلاد الدكتور روص، وكان المير منهمكاً في محاصرة عقرة، إحدى القلاع الحصينة جداً الواقعة على الزاب، والتي تبعد مسيرة أربع عشرة ساعة من شمال أربيل.

وكان الدكتور روص قد غادر بغداد في منتصف مايس ١٨٣٣م، وبين الملاحظات الأولى التي دوّنها عن الرحلة التباين الكبير الموجود ما بين المناطق التركية والكردية من حيث السكان والشؤون الزراعية. فقد كانت جميع القرى في المناطق التركية مهجورة، لأن السكان قد فرّوا منها لتحاشي ما كانت تفرضه الحكومة عليهم. وكل من بقي فيها كان يلهج بالتذمر من باشا بغداد، علي باشا، وحالما كان يظهر في الأفق رجل من رجال الحكومة كان الناس يفرّون من وجهه ليخفوا أنفسهم عنه. غير أن قافلة الدكتور ما إن وصلت لآلتون كوبري حتى تقاطر الناس عليها لاستقبال بايزيد بك، وهم يضعون الزهور فوق رؤوسهم كما يفعلون في أيام العطل والمناسبات، وتزاحموا على تقبيل يده، ثم هتفوا له حينما مرّ أمامهم.

وقد كان السهل الممتد ما بين آلتون كوبري وأربيل مكسوًّا بالأزهار المختلطة بأوفر أنواع الخضرة وأبهجها، كما كانت البلاد تعج بالسكان. ويصف الدكتور روص استقبال بايزيد بك في آخر مكان بكونه على غاية ما يكون من الجمال والروعة، من ناحية الملابس والأزياء والروح الودية التي كانت تبعث الحياة في تلك المناظر الخلابة.

وفي التاسع عشر من مايس ترك الدكتور روص أربيل متوجهاً إلى راوندوز التي كان يقيم بالقرب منها مصطفى بك العجوز، هدف الناحية المهنية من سفرته. وبعد أن اجتازوا بلاداً جبلية مخصبة، مغطاة بالكثير من أشجار البلوط القصيرة، وارتقوا عدداً من الممرات المنحدرة، وصلوا إلى دمدم محل إقامة الرجل العجوز الذي كانوا يشرفون منه على وادي راوندوز وقلعتها، حيث كانت الأخيرة على بعد مسافة لا تزيد على ساعة ركوب واحدة. ودمدم قلعة صغيرة مشيدة فوق قمة صخرية شاهقة يبلغ ارتفاعها مئة قدم، وتشرف

على بلدة صغيرة تتألف من مئة دار حقيرة تنتشر بين غابة كثيفة من البساتين الحاوية لكل نوع من أنواع الأشجار المثمرة. وكانت بلدة راوندوز تتألف، على ما يبدو من هذا الموقع، من حوالي ألفي دار متواضعة مع شيء يشبه القلعة يقع ما بين الجبال على الضفة الجنوبية من الزاب الكبير، الذي كان يمتد من فوقه جسر من جذوع الأشجار المستندة على دعامتين حجريتين والمغطاة بشيء من الأغصان والتراب. وقد كان النهر ضيّقاً سريع الجريان، جائشاً عميقاً، لكن الأكلاك على بعد ثماني ساعات من أسفل هذا الموقع كان من الممكن لها أن تعبره. ولم يسمح للدكتور بزيارة راوندوز، ولا بالتجوال الكثير في المنطقة، لكنه يذكر بين ما سمع من الأشياء التي تلفت النظر شيئاً واحداً على الأخص. فقد ذكر شيئاً عن عمود من الرخام يقوم فوق قاعدة مضلعة ويبلغ طوله كله حوالي ثلاثة رماح (ثلاثون إلى خمسة وثلاثين قدماً)، وهو مغطى بالكتابات المنحوتة فيه، وقد أبدى عدد من الأوربيين من قبل رغبة في مشاهدته في مختلف الأوقات، لكنهم لم يسمح لهم كلهم بذلك. ومما قيل في هذا الشأن أن العمود يبعد عن دمدم مسيرة يومين، والمعتقد أن الملكة سميراميس هي التي أقامته هناك.

ولم يكتب الدكتور روص عن دمدم وسكانها بلهجة مشجعة. فقد كتب يقول عن السكان «إنهم على ما يبدو لا يعرفون شيئاً عما هو حسن في العالم. وهم يلبسون ألبسة خلقة، وبيوتهم أشبه بأقنان الخنازير لا غير. يضاف إلى ذلك أنهم وحوش متجهمو الخلقة، لا يعطون حتى ولا جرعة واحدة من الحليب من دون تذمر وصخب، وكل شيء آخر لا بدّ أن ينتزع منهم بالقوة. وحينما أعطيتهم بعض الأدوية أخذوا يدمدمون لأني لم أزودهم بالقناني اللازمة لحفظها بها». على أن لباس الموسرين منهم كان يشبه لباس البغداديين. أما الفقراء فقد كانوا يرتدون سترة قصيرة، وسراويل صوفية فضفاضة، وصديرياً من اللباد لا أردان له، مع أحذية قطنية، وجوارب صوفية. كما كانوا يضعون فوق رؤوسهم العمامة الكردية الخاصة. ويلبس النساء ثوباً أزرق، مع سراويل فضفاضة مشدودة من أسفل حول رسغ الرجلين، وعباءة

مربعة تشد من زاويتين بحيث تصبح مدلاة من فوق الظهر. أما في الرأس فيلبس قطعة مدورة من الفضة تتدلّى منها دلايات كبيرة تعلّق في كل منها قطع من العملة حول الرأس والرقبة، مصنوعة كلها من الفضة. وتعدّ طريقة التحية عندهم شيئاً مستغرباً، إذ يمسك أحد المتسالمين الآخر من المعصم الأيمن ويقبّل ذراعه. وفي كل مساء كان ستة أو ثمانية من القرويين يتناولون العشاء في بيت المير، مع عدد من المحاربين القدماء من أصدقاء شبابه. ومما لاحظه الدكتور هنا انتشار الرمد بين الناس.

وقد تبيّن أن المير العجوز (مصطفى) أعمى لا يرجى له شفاء. وسبب ذلك، على ما يرويه هو نفسه، أنه أصيب بالرمد ذات يوم لأنه وضع الثلج فوق رأسه حينما اشتد عليه الحر أثناء تسلقه الجبل الذي وجد فوقه طبقة سميكة منه. على أن بعض الروايات تزعم أن عينيه قد سُملتا بأمر من ابنه، وتم ذلك بواسطة «ميل» ساخن إلى حد الاحمرار لكن الدكتور روص يؤكد بأن هذا خطأ محض. أما سبب تنازله عن الحكم لابنه فهو على جانب أكبر من الشك وعدم التأكد. إذ يزعم البعض أن تنحيته كانت بالقوة، بينما كان يقول آخرون إنه اقتنع بأن ابنه سيكون أعظم منه فتنازل له عن الحكم طوعاً لا كرهاً.

وللمير محمد، أو الباشا، أربعة إخوة على قيد الحياة. غير أن اثنين منهم، وهما تيمور خان وسليمان بك، قد سجنا[1] في قلعة تقع على بعد خمس ساعات من راوندوز. وكان الأخ الثالث أحمد بك يتولى حاكمية أربيل، بينما كان الرابع وهو رسول بك يتولى شؤون الجيش. يضاف إلى ذلك أن المير له ثلاث زوجات من دون ذرية، وليس من المؤمل وهو في الخامسة

---

(١) جاء في (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) في هذا الشأن: «.. وكان دويلة راوندوز الصغيرة قد انتقلت في حدود عام ١٨١٠م من يد أغوز بك إلى مصطفى بك وهذا، بعد أن حارب البابانيين حرباً غير منقطعة، تزوج منهم زواج حلف وانصرف إلى توحيد مملكته فوحدها. وحكمها بحكمة، وأخذ الحكومة محمد بك – أي المير محمد – من يدي والده الواهنتين قبل وفاته. ومات مصطفى في ١٨٢٦م، وتبعه محمد فقتل عميه في الحال».

والأربعين من عمره الآن أن تكون له ذرية في المستقبل، ولذلك يعتبر رسول[1] بك خليفته من بعده.

ويبدو أن الدكتور قد عومل بحقارة في دمدم التي عاد منها إلى أربيل لينتظر فيها أوامر المير الجديدة بشأنه. وقد وجد في طريقه إلى هناك أن سكان إحدى القرى كانوا يأتون بأطفالهم إلى امرأة عجوز مرت بالقرية صدفة، فأخذت تنفخ صلواتها عليهم وتنعم عليهم بقطع من الخرق البالية والنقود التي كانت تباركها أيضاً، فتعلق برؤوس الأطفال على شاكلة الرقى والتعاويذ ضد النحس ودفعاً للشر. وقد وجد الدكتور أن الأكراد مثل سائر الجبليين كلهم لهم عقيدة قوية بالخرافات. «فكل تل وكل قمة كان له عفريته الخاص، وهناك بالقرب من راوندوز مغارة ملأى بالعفاريت» فقد سمع من هناك في ١٨٣١م هدير مدافع وهي تطلق في اتجاه البلدة، فأعقب ذلك انتشار الطاعون في الحال. وظلت الأخبار تنتشر عن هذا الحادث لمدة شهر أو شهرين حتى انقطعت فجأة هي والطاعون مرة واحدة. وقد أيّد هذا عدد من الناس المحترمين وعدوه شيئاً حقيقياً.

وتدل الملاحظات التي توصل اليها الدكتور روص في طريقه إلى أربيل، وبعد وصوله إلى هناك بمدة من الزمن، على أن الضيافة الكردية لم ترق له كثيراً. إذ يظهر منذ اللحظة التي أوصله فيها مهمنداره بايزيد بك إلى دمدم وتخلى عنه فيها أن تبدلاً في غير صالحه قد طرأ على المعاملة التي كان يعامل بها نظراً لعدم وجود من يجبر الفلاحين الغلاظ على السلوك الحسن معه. فهو يقول: «انهم أناس لطيفون بمقدار كاف حتى يجبرون على رفع الكلفة، وعند ذلك تبدو طبيعتهم المتجهمة - فلا يوجد عندهم سخاء حقيقي ولا إكرام للضيف - وهم يختلفون بذلك تمام الاختلاف عن القبائل العربية التي تعطي ما عندها عن طيبة خاطر، وتتسابق فيما بينها لتقديم الهدايا». ومع ذلك فإنهم لو لم يؤخذوا من مخيم لآخر بصفتهم أصدقاء الشيخ فإن نفس الأشخاص الذين

---

(١) عيّنه بعد ذلك لحاكمية العمادية التي ألحقها به.

كانوا يعاملونهم معاملة حسنة ربما كانوا سيعمدون إلى سلبهم وتجريدهم من ملابسهم.

وقد اطلع الدكتور روص في أربيل على الكثير من أحوال الأكراد، وهو يتكلم بشدة عن ميولهم الفظة وجنوحهم إلى التهيج. فهو يقول: «إن طبيعة الكردي مجبولة على الحرب. لأنه يُدرب عليها من المهد، ولا يرتاح مطلقاً من دون الاشتباك مع الغير أو خوض المعارك. فقد وجدت صبياناً لا تزيد أعمارهم على اثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة وهم يعانون أوجاعاً من جروح بليغة كانوا قد أصيبوا بها في معارك متأخرة. وقد علمت بأن معاركهم معارك دامية للغاية، وهم يبدأونها بإطلاق النار من البنادق لكنهم سرعان ما يعمدون فيها إلى الخناجر. وليس ذلك من قبيل الضجيج أو التهويش المعروف عند العرب، وإنما هو قتال عنيف يؤدي في الغالب إلى قتل الكثيرين وجرحهم. وهم يزدرون بحكومة بغداد وجيشها ازدراءً متناهياً، ويقولون إن المدينة لو كان فيها أي نفع لهم لما استطاع الأتراك أن يقفوا في وجههم يوماً واحداً دون احتلالها. وقد وجدوا الفرصة سانحة للاستيلاء على أربيل وآلتون كوبري في بعض المناسبات، ولم يستغرق استيلاؤهم على أربيل سوى ساعة واحدة. وهم لا يعتمدون في الحصول على احتياجاتهم على أية بلاد أخرى إلا بلادهم. فإن كل ما يحتاجونه يتم إنتاجه في بلدهم، ومع ان جبالهم تكون مواقع دفاع حصينة منيعة تجاه المحتلين الأجانب فإن وديانها وجهاتها الوعرة تنتج بقليل من الجهد كل ما يرغبون في زراعته بوفرة، وتزودهم بذخيرة لا تنضب من الخشب والماء والمرعى».

وتُعطى البلاد المحيطة بأربيل من الباشا بالالتزام للشيوخ منطقة منطقة بالطريقة التي يسير بموجبها النظام الإقطاعي المعروف. فإن عشائر طي العربية تخضع للباشا[1] وتبعث بقطعات غير يسيرة من رجالها لجيشه، الذي كان حينذاك في عقرة. وقد كان الباشا على ما يبدو محبوباً عندهم، أو مرهوب

---

(١) أي مير راوندوز.

الجانب، وقد يكون ذلك ناشئاً عن الصرامة التي تتصف بها حكومته. فمن النادر أن يسمع شيء عن السرقة واللصوصية، ولا تغلق باب من الأبواب في الليل مطلقاً. ومع ذلك يندر أن تطبق عقوبة الموت بين ظهرانيهم. وإنما تقطع اليد عن السرقة وتقطع القدم عقاباً للفرار من الجندية، وتسمل عين واحدة أو عينان عن الجرائم الأخرى. على أن عقوبات أشد صرامة من هذه قد تفرض في بعض الأحيان على سبيل العبرة للآخرين. فقد لجأ ذات يوم إلى بلاد المير شيخ من شيوخ القبيلة العربية طي[١] مع عشيرته، بعد أن أجبرتها على الرحيل من ديرتها عبر دجلة قبيلة الجربا القوية، وهناك عاش عيشة رضية هادئة في ظل القوانين والأنظمة التي وضعها المير. لكنه مل الهدوء وسئم الخمول الذي تفرضه حياة الدعة والعطالة، وبينما كانت إحدى القوافل تمر بمخيمه آمنة مطمئنة أغراه ما فيها من سلب ونهب إغراءً لم يستطع كبحه في نفسه فانقض عليها وغنم جميع ما كانت تحمله من سلع وبضائع. غير أن اليوم الثاني ما إن انتهى وحل المساء حتى حضر إلى مخيمه نصف دزينة من الأكراد، ودخلوا إلى خيمته من دون كلام أو مراسيم ثم احتزوا رأسه على بابها وعادوا من حيث أتوا بهدوء.

وحينما كان الدكتور في أربيل قوبل بترحاب غير يسير من قبل أحمد بك حاكم أربيل وشقيق المير، وزاره سلطان بك أحد رؤساء المعسكر. وهناك علم أن الجيش كان يتألف من خمسة عشر إلى عشرين ألف رجل، وكانوا كلهم عاطلين في معسكرهم لأن عقرة كانت قد تم الاستيلاء عليها قبل مدة من الزمن. ويقع هذا الحصن على قمة صخرة تكاد تكون عمودية على ما يبدو، ولا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ضيق بحيث لا يستطيع أن يركب فيه شخصان جنباً إلى جنب[٢].

---

(١) لا تزال قبيلة طي المشار إليها تقيم في منطقة الهويرة التابعة لناحية الكوير المرتبطة بلواء أربيل. ويرأسها الآن الشيخ حنش الحمود الهوار.

(٢) إن هذا الوصف ينطبق على العمادية، ولعل صاحب الرحلة يقصدها هي بدليل أنه يورد اسم العمادية في نهاية هذا المقطع ويقول إن أكرادها دهشوا لهذه المفاجأة.

وقد كان سكانها يعتقدون بأن قلعتهم لا يمكن أن تستولي عليها قوة في العالم، ولم يكن ينتظر حتى الباشا نفسه أن تقع في يده بهذه السرعة. غير أنه حدث ذات يوم انه قد هوجم هو نفسه من كمين كانت ثلة استطلاعية تابعة للعدو قد نصبته في مكان خطر، وكاد يؤخذ أسيراً بهذه الطريقة. فاغتاظ أتباعه لذلك بحيث إنه سار في صباح اليوم التالي على رأسهم لمهاجمة ذلك المكان الذي تم احتلاله بالفعل خلال ثلاث ساعات بعد أن خسر مئة وخمسين من رجاله فقط. فاندهش أكراد العمادية لهذه المفاجأة الفذة بحيث إنهم تخلوا عن المكان من دون مزيد من القتال.

وفي يوم ٣٠ أيار وصل كتاب من الباشا ينطوي على أمره بإبقاء الدكتور روص في أربيل حتى يطلبه هو على أن يُخدم ويُعامل بغاية الاحترام، فكان لذلك تأثير في تحسين أحوال معيشته وتأمين راحته. وفي ٦ حزيران وصل الخبر بأن الأحوال في العمادية قد سويت، فتخلى الباشا السابق، سيد باشا، عن منصبه ونصب موسى[١] باشا في مكانه. كما نصب سليم باشا في عقرة، ولما كانت جميع البلاد قد خضعت لحكومة راوندوز فقد أصبح كل شيء هادئاً تمام الهدوء. ومع ذلك لم يصل أي أمر من سموه بإرسال الدكتور إلى معسكره إلا في يوم ٣ تموز، بعد كثير من الاعتراضات والاحتجاجات وعدد من التأكيدات المضللة عن وصول الباشا السريع إلى أربيل. فالظاهر أن الحاشية تبقي حركات الباشا وسكناته في سرية تامة، إذ ليس في مقدور أحد أن يحزر متى تتم هذه المسيرة أو تلك، حتى ولا أن يعرف الجهة التي ستسير فيها الجيوش إلى أن يتم الركوب.

وقد عبر الدكتور روص نهر الزاب بالكلك الذي يصفه بكونه أشبه بـ«عربة نبتون» وقد سحب الكلك عبر النهر بحصانين اثنين سيقا في أول الأمر إلى الماء ثم ظلا يحثان على العبور من قبل ركاب الكلك نفسه الذين كانوا يقبضون على ذيليهما بقوة. فوصلت الجماعة إلى عقرة بعد مسيرة أربع عشرة

---

(١) يقول لونكريك في (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) إنه نصّب أخاه رسولاً فيها.

ساعة وقطع ستة وخمسين ميلاً إلى شمالي الشمال الشرقي. ويعتبر الدكتور روص كلًّا من أربيل وعقرة في شمال بغداد تقريباً.

وقد استقبله الباشا استقبالاً حسناً، لكنه بعث إليه بمن يعتذر منه شخصياً لعدم قيامه له في مجلسه أثناء دخوله عليه، كما يجب أن يجري بالنسبة لخادم من خدام ملك إنكلترا، نظراً لأنه كان محاطاً بأناس لم يتم إخضاعهم إلا مؤخراً ولأن الوقوف بوجودهم ينطوي على التساوي بينه وبين الباشا في نظرهم، وهذا مما قد لا يكون من مصلحته أن يفعله أو يعترف به أمام ملأ من الناس. فألفى الباشا رجلاً وسيم المظهر محباً للخير، يبلغ الخامسة والأربعين من عمره تقريباً. كما وجده أبيض البشرة تبدو فيه آثار الجدري. وقد اعورّت إحدى عينيه وأصبحت منخفضة معتمة. وكانت لحيته تبلغ حوالي اثنتي عشرة بوصة في الطول، ذات لون بني خفيف، ولم يمشط نصفها الأسفل ولذلك كانت ملبدة بعضها ببعض. أما من النواحي الأخرى فقد كان مرتب اللباس والهندام. وكانت إحدى رجليه مصابة بالعرج لرفسة أصابته من أحد الخيول، كما كان يتكلم بصوت خافت. وقد دخل في حديث طويل مع الدكتور روص أكثر من مرة، في مواضيع عامة غالباً. فاستفسر منه عن طريقة التعليم في انكلترا، وديانة أهل الهند والصين - متصوراً أن الصين كانت تابعة لنا على شاكلة الهند. وقد كان يرغب كذلك في معرفة علاقتنا بإيران وروسية. ثم استفسر في مناسبة أخرى عن أشياء كثيرة مثل استعمالات الأدوية وتأثيراتها، وحالة النبض في أثناء المرض، وعن الطاعون والهيضة وغير ذلك. وانتقل بعد ذلك إلى مواضيع الحرب، فتحدث عن الطبنجات والمسدسات، وأخرج طبنجة إنكليزية قديمة ذات سبطانتين وبندقية، فكانت هذه مع سيف ومرقب (تلسكوب) وشمسية وسرير خشبي وعدد من المحافير تكوّن القسم الأكبر من اثاث خيمته وفيما يقرب من خيمته الخاصة كانت هناك خيمة واسعة ذات عمودين يعقد فيها الاجتماعات قبل الظهر وفي الليل. وهو لا يذهب إلى النوم مطلقاً قبل بزوغ الفجر، وعند ذاك ينام إلى التاسعة أو العاشرة من صباح اليوم التالي. وقبيل الصلاة الأخيرة بربع ساعة يعزف جوق صاخب شيئاً من الموسيقى، وفي وقت الصلاة تطلق طلقة من المدفع.

أما القوة الموجودة في المعسكر فقد علم الدكتور روص أنها تقدر بحوالي عشرة آلاف رجل فقط، وهي لا تكاد تساوي نصف الجيش الأصلي، فقد سرح باقي الرجال إلى بيوتهم للقيام بمهمة الحصاد. ولا يمت المعسكر بصلة إلى النظام والنسق العسكريين بشيء، على أن الشيء النظامي الوحيد هناك كان التفاف حلقة من الخيم الصغيرة حول خيمة الباشا، وهي تحتوي على حرسه الخاص الذين يبلغون ثلاثة آلاف شخص في عددهم. وهؤلاء يكونون خدامه في نفس الوقت. ويتسلح المشاة بالبنادق والخناجر، كما يتسلح الفرسان بالرماح والخناجر. وكل رئيس قبيلة تخيم قبيلته من حوله في معزل عن سائر القبائل، فيؤدي ذلك إلى تشويه منظر المعسكر نفسه لأنه يمتد والحالة هذه إلى مدى يفهم منه بالنسبة لقواعد الحرب الأوربية أنه يحتوي على خمسين ألف مقاتل. ومع هذا، فبرغم هذا الاحتياج إلى النظام والترتيب لم يكن يسمع فيه ولا صوت واحد، ومن الممكن أن يصل كل فرد فيه إلى المكان المعين في ظرف خمس دقائق فقط. وقد كان الرجال يتمرنون من تلقاء أنفسهم على الرماية وإصابة الهدف بصورة مستمرة. وفي كل مساء يتناول ما بين المئة والمئتي جندي عشاءهم في خيمة الباشا متبعين في ذلك دورة خاصة تتناول العشائر جميعها. وقد شوهد عدد من الأسرى في المعسكر وهم مقيدون بالحديد في أعناقهم وأرجلهم. ويقول الدكتور روص إن الباشا معتاد على شراء غنائم وأسلاب الحرب جميعها بأسعار تساوي ضعف ما يدفعه لهم الآخرون.

وفي اليوم الثامن من تموز ترك الدكتور روص معسكر الباشا وسلك طريق الموصل. وفي الجانب الآخر من الزاب وجد مئة فارس عربي من قبيلة ألبو سلمان مستعدين لتوصيله خلال ما تبقى من ممتلكات مير راوندوز. فأعترض على هذا العدد الكبير من الرجال لكن رئيس هذه الثلة الكبيرة من الخيالة أفهمه بأن الأوامر التي تلقاها تفرض عليه ذلك، وأنه لا يستطيع التخلي عن أي رجل منهم. ويغتنم الدكتور هذه الفرصة هنا ليشير إلى التباين الموجود في عادات موظفي هذا الباشا وموظفي المناطق التركية. ففي اللحظة التي دخل فيها هذه الجهات بوهت بطلبات البخشيش، وبعد تجريده من كل ما كان يمكن

أن يكون قد حمله معه فإن الأوغاد المناكيد تبعوه إلى منزله طالبين المزيد. أما في ممتلكات راوندوز فإن البخشيش لم يذكر قط. هذا وقد أجرى الدكتور مقارنات في كل ناحية من النواحي بين حكومة علي باشا في بغداد وحكومة المير، وهو يعطي الأفضلية للأخير ويشير إلى أحاديث الخيانة التي كان يصرح بها علانية بالنسبة لعلي باشا، بينما كان الإطراء والثناء على المير يلهج بهما الجميع بصراحة.

وإلى هذا الحد نكتفي بما ورد في يوميات الدكتور روص. أما المعلومات التي زودني بها معظم الأشخاص الذين قابلتهم، ممن له اطلاع كاف في الموضوع، فتتفق مع معظم التفصيلات الواردة في هذه اليوميات. فإن شخصية المير وأخلاقه تظهر في أعماله[1]. فهو طموح إلى حد الإفراط، ومستهتر تماماً بالنسبة للوسائل التي يصل بها إلى غاياته ومطامحه. ومع أنه فطن بعيد النظر فإنه حسود ومرتاب للغاية. وهو على تشبعه بفكرة العدالة الحقة التي لا تعرف المحاباة يسخر مبادئه للحصول على المزيد مما يشبع به أطماعه وليس لمجرد العدالة نفسها. أضف إلى ذلك أنه لا يتورع عن سفك الدماء لكنه غير ميال إلى أن يقتل الناس بطيش أو تهور، ومن دون سبب. ومع

---

(١) يلخص المستر لونكريك أعماله وفتوحاته فيما يلي: «.. وقد ظهرت مزايا - البك الأعور - في سلسلة غير منقطعة من الفتوحات. فقد أخضع الشيروان الأقوياء وقبائل البرادوست في الشمال، وقلل من نفوذ الشورجي، ثم طرد الحاكم البابانى من حرير، وأخذ أربيل وآلتون كوبري، ونصّب أقاربه في هذه الأماكن. واقتطعت رانيه وكوي من البابانيين، وأصبح الزاب الأسفل هو الحد. وقد اضطر علي رضا إلى الاعتراف بهذه السلطة الجديدة فرفعه إلى مرتبة الباشا. وفي أوائل ١٨٣٣م سار محمد إلى عقرة، وأخذها بعد أن حاصرها، ثم طرد حاكمها إسماعيل باشا. وبعد أن خلع من العمادية سيد باشا بسهولة نصب في مكانه أخاه رسول بك. وأصبحت دهوك وزاخو من توابع إمبراطوريته فأقام فيهما الضبط غير الخاطئ بقسوته العادلة... وبعد ذلك غزا في جبل سنجار، وضرب قرى قريبة من الموصل، واحتل جزيرة ابن عمر، وأفزع البدرخانيين في حسنكيف، وكذلك هددت نصيبين وماردين نفسها غير أن هذا كان حده الذي وقف عنده...»

ذلك فهو لا يرحم حينما يتيسر السبب مهما كانت أهميته. فقد رُوي لي أن قبيلة من القبائل الكردية كانت تعارضه بشدة في أثناء محاصرته للعمادية، وظلت متمادية في ذلك حتى بعد أن سقطت في يده، فساق عليها قواته وبعد أن أخضعها وعانى ما عانى من أجل ذلك قتل جميع من وصلت إليه يده من أفرادها حتى بلغت ضحاياه عدة آلاف من الرجال. وقد فعل ذلك على سبيل العبرة للآخرين.

ولا يمتد حسد المير إلا إلى الغرباء الذين يسيحون في البلاد من دون شغل يتضح له. فإن التجار والبغالة وسكان البلاد المجاورة لا يحتاجون إلى جواز سفر في ممتلكاته، وهم أحرار في رواحهم وغدوهم. لكن الأشخاص القادمين من مسافة بعيدة، وخاصة من بلاد أظهرت له شيئاً من العداء في يوم من الأيام، لا بد أن يتعرضوا للتوقيف أو الحبس كجواسيس. وقد استفسرت عما سيحل بي فيما لو دخلت بلاده من دون الحصول على رخصة مسبقة منه، فكان جواب الجميع على ذلك أن الإقدام على محاولة مثل هذه تعد غاية في الطيش وعدم التبصر. لأنه رجل سيء التفكير (بدفكر) وقد يتصورني جاسوساً فيسيء معاملتي، وخاصة لأنني كنت سأدخل إلى ممتلكاته من تبريز. وحينما أبديت إصراراً في معرفة المعاملة السيئة التي يمكن أن أعامل بها قالوا لي بأنني يمكن أن أحجز في مكان منيع حتى يمكن أن يعرف ما يريده المير مني، وبعد ذلك قد أُطرد إلى خارج البلاد بطريقة لا يتسنى لي أن أرى شيئاً منها. على أنني قد لا أُقابل بالعنف في داخل ممتلكاته حرصاً على سمعته الطيبة، لكنني من المحتمل جداً أن أقع فريسة للصوص حالما أعبر الحدود في طريقي إلى الخارج. ومن السهل أن يحصل هذا في بلاد مضطربة مثل هذه[1].

---

(١) لم يكن مصير هذا الرجل العجيب كما كان من المؤمل أن يكون. فقد كون تقدمه المطرد وتأثيره على الممتلكات التركية حركة قوية ضده في الباب العالي. إذ زحف عليه رشيد باشا (الكوزلكلي)، الذي كان يقود الجيش في ديار بكر من جهة كردستان، وهاجمه علي باشا والي بغداد ومحمود باشا (البيرقدار) والي الموصل من جهتي الجنوب والغرب. فدافع المير عن نفسه ببسالة وإقدام، ولو كانت جيوشه =

وقد كان ذلك كله موضع الاعتبار الجدي عندي. فإن شخصية هذا الأمير العجيب، والتقدم السريع الذي أحرزه في السلطة والسطوة خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة، مع التبدل الأخلاقي الذي كان من الممكن أن يحدثه في هذا الجزء من آسية، قد جعلت من المحتم علي أن أراه وأتعرف عليه، لأتبيّن مقدار الصحة المنطوية في الروايات التي تروى عنه. وبهذا التفكير تسلمت من المعتمد كتاباً إليه، مع بعض الهدايا، وكان غرضي من ذلك أن أقدمها إليه شخصياً بنفسي باعتبارها بداية لعلاقة صداقة يمكن أن تكون مفيدة وملائمة فيما بعد. وكانت خطتي في ذلك أنني بوصولي إلى أوشنو، وهو مكان على مسيرة يومين من هنا، وعلى بعد ستين ميلاً من راوندوز فقط، أن أبعث إليه بكتاب خاص أشرح له فيه هويتي وطبيعة الأوراق الموجودة عندي وأقترح عليه إذا ما أراد تسلمها من يدي أنا بالذات أن يبعث لي دليلاً يوصلني سالماً إليه، وإذا كانت له فكرة أخرى في الموضوع ان يبعث لي شخصاً يتسلم الهدايا من عندي. ويمكنك أن تتصوري مقدار ما أصابني من الخيبة حينما علمت أن المير بدلاً من أن يكون في راوندوز كما كنت أتوقع كان على مسيرة عشرة أيام منها، حيث كان منهمكاً بتنفيذ الخطة التي وضعها

= مخلصة له لاستطاع أن يزدري بالقوى التي زحفت عليه كلها لكن المير لم يكن محبوباً. وكان البعض من ضباطه ميالين إلى الخيانة، كما كان من المؤكد أن يكون أولئك الذين وقفوا إلى جانبه إلى الأخير في المناسبات الاعتيادية قد أفزعتهم رؤية أعلام السلطان وهي ترفرف أمامهم. أضف إل ذلك أن بقايا التبجيل لخليفة الرسول وزعيم الإسلام الديني منعت الأكراد عن مقاومة جنود السلطان بالسلاح. وقد شعر المير بهذا كله، وبعد أن أضاع قلاعه الحصينة واحدة بعد أخرى استسلم في نهاية آب ١٨٣٦م لعلي باشا والي بغداد. فأرسل مخفوراً إلى إستانبول حيث أبقي بحجز شبه مبجل لمدة قصيرة، وعفي عنه بعد أشهر قليلة ثم عين حاكماً في بلاده بالذات بعد أن أعطي عهداً بالسلوك الحسن. لكنه لم يصل إليها قط، ولم يعرف السبب في ذلك. ولا شك أنه قتل في الطريق بأمر من سيده الأعلى. (حاشية صاحب الرحلة نفسه، والظاهر أنها كتبت أثناء طبع الكتاب بعد عودته إلى بلده).

لفتوحاته. وهكذا فإن مراسلتي له في هذا الشأن كانت ستستغرق عشرين يوماً على الأقل علاوة على عشرين يوماً أخرى كنا سأقضيها أنا في الذهاب لمقابلته والعودة بعد ذلك. وهذا تأخير ليس من الممكن لي أن أتحمله بالنسبة لما يتيسر لي من الوقت. ومهما كان مقدار ما عندي من الرغبة في القيام بمثل هذه المهمة الطريفة، كانت هناك أسباب كافية تعيقني عن وضع حريتي وحياتي في موضع التهلكة بالدخول إلى بلاد المير من دون الحصول على الرخصة اللازمة منه. وعلى هذا فقد ضحيت مرة أخرى، بكل إحجام، بالواجب الذي كنت عازماً على القيام به. وبعد أن اكتفيت بالحصول على أحسن المعلومات التي تمكنت من التقاطها عن هذا الأمير العجيب توجهت إلى بغداد عن طريق السليمانية.



(٢)

الوصول إلى السليمانية - زيارة الضباط الإيرانيين له - زيارته للباشا في السليمانية - وصف الحالة فيها - وصفه الباشا وحديثه معه - جدله في مجلس الباشا عن بعض الخرافات - وصف السليمانية - حادث في مقبرة السليمانية - استئذانه بالسفر وتقديم بعض الهدايا - منعه من زيارة آثار شهرزور - مقابلته للسرتيب قائد القوات الإيرانية في السليمانية - مغادرة السليمانية مع دليل إلى كفري - وصف الطريق - النذر كاهات - ذكر الجاف والهماوند - النزول في زالة - المهمندار والقروبون - التوجه إلى ابراهيم خانجي - سليم أغا دلو - حالة الأمن في الطريق- قرية ابراهيم خانجي- رستم أغا - وصف الأكراد - الوصول إلى كفري

السليمانية - أول تشرين الثاني ١٨٣٤م

عزيزتي

قبل يومين حررت رسالة إليك، لكنني وجدت أنني لا بد أن آخذها معي إلى بغداد لأنه لا يوجد بريد إلى لندن هنا. جاء إلى زيارتي يوم أمس بعد الفطور بعض الضباط الإيرانيين[١] الذين يقودون الجند الإيراني المرابط هنا.

---

(١) كانت السليمانية في هذا العهد تابعة لإيران، وكان يحكمها محلياً سليمان باشا بن عبد الرحمن باشا بابان تحت إشراف حامية إيرانية ترابط فيها. أما السبب فهو النزاع العائلي الذي كان يحتدم يومذاك بين الأخوين سليمان ومحمود، والمنافسة على تولي الحكم. وقد أدى هذا الخلاف بهما إلى الارتماء في أحضان إيران تارة وتركية تارة أخرى، والتجاء الأخوين كليهما إلى هذا التذبذب في الولاء عدة مرات. والحقيقة أن أباهما عبد الرحمن وأعمامهما قد فعلا ذلك من قبل أيضاً، فكانت حالهم هذه من الأسباب المهمة للتصادم الذي تكرر حدوثه بين إيران والدولة العثمانية في تلك الأزمان. كما كان من أسباب أفول نجم البابانيين وانحطاط =

فرووا روايات مؤسفة عن الحالة العامة هنا، لكنها لم تكن اسوأ مما تدل عليه المظاهر وتؤيده. وبعد ذلك ذهبت لزيارة الباشا الذي ألفيته في خيمته محاطاً بعدد من الأكراد الوسيمين، ولكن من دون مظهر فخم أو أبهة ذات شأن - مسكين الرجل! إنه لا قبل له بذلك. فإن باشوية السليمانية الصغيرة، غير الغنية مطلقاً ولا القوية، كانت فريسة لمجموعة من النكبات التي أنزلتها إلى حضيض التعاسة. فقد داهمتها أولاً النزاعات العائلية، أي الحرب الأهلية الناشبة بين أخوين ينشدان التفوق والسلطة. فأدى ذلك إلى تدخل أجنبي بطبيعة الحال، ووقعت الباشوية التي كانت تابعة إلى باشوية بغداد من قبل في أيدي أمير كرمنشاه الإيراني محمد علي مرزا. على ان النزاعات الداخلية والهياجات ظلت مستمرة، حتى أضعفت الفريقين بحيث إن جارهما مير راوندوز[1] وجد من المناسب بعد موت محمد علي مرزا ان يكتسح البلاد ويلحق جزءاً غير يسير منها بإمارته. فسبب له ذلك حرباً مع الحكومة الأذربيجانية التي فرضت سلطتها على هذه الجهات، وحتمت على السليمانية المنكودة الطالع ان تقوم بأود الجيش الإيراني علاوة على دفعها الأتاوي للإيرانيين. ثم داهم البلاد الطاعون[2] الذي افنى ما يزيد على نصف السكان في البلدة وما يحيط بها من الريف. اما النصف الثاني فقد هاجر من استطاع منهم ان يترك البلاد إلى أماكن

= شأنهم. وندرج فيما يلي ما ورد في (أربعة قرون...) في هذا الشأن: «... ولم تدم تسوية الأمور التي أجريت في المملكة البابانية في ١٨٢٣م (أي معاهدة أرضروم الأولى الموقعة في تموز ١٨٢٣م). فقد تلاها أول وجه من أوجه النضال الطويل بين الأخوين محمود باشا وسليمان باشا. وظلت حامية إيرانية في السليمانية حتى توفي فتح علي شاه في ١٨٣٤م. وكانت المملكة البابانية في الحقيقة آخذة بالانحطاط منذ مدة. فكانت على هذا العهد تهيمن عليها إيران هيمنة لم تفقها فيها تركية بأي زمن كان. وقد سببت حالة النزاع بين الأخوين الاضطراب والفوضىٰ والفقر. فأكمل الطاعون من بعد ذلك خراب المملكة...».

(١) إنه محمد باشا الأعور (كور محمد باشا) المار ذكره في الرسالة السابقة.

(٢) وهو نفس الطاعون الكبير الذي تفشى في بغداد وما حولها ففتك فتكاً ذريعاً فيها في أواخرا أيام داود باشا، كما سيأتي تفصيله في رسائل قادمة من هذه الرحلة.

تخف فيها وطأة الأعباء والأوزار - أي إلى راوندوز وكركوك وأربيل وسائر المناطق الكائنة في البلاد المنخفضة، بعد أن وجد ان لا معين له على البلوى ولا من يعمل على إعفاء الناس من الضرائب الحكومية. وعلى هذه الشاكلة تقوم إيران بتقوية أعدائها وإضعاف نفسها. لكن الباشا المسكين كان أضعف الناس على الإفلات من العاصفة، وها هو يجلس الآن بين حطام العظمة الغابرة مرتبكاً متحيراً إلى أقصى الحدود تجاه الاستجابة لجميع الطلبات التي تقدم إليه، مع أنه غير قادر على مقاومتها. وعلى هذا فلا أخالك تعجبين إذا ما علمت بأنني وجدت القليل من الأبهة والفخامة، أو حتى أبسط وسائل العيش المريح من حوله. فقد استفسر رجاله من رجالي عما إذا كان عندي شيء من السجاد أو «النمد»[1] ليفرش على الأرض غير المبلطة في الدار التي خصصت لإقامتي، لأن مثل هذه الأشياء كان يكاد يندر وجودها هنا. فلم أزود بأية واحدة منها بطبيعة الحال وكان أحد الأسباب لذلك عدم وجودها!!.

ولقد وجدت الباشا شخصاً لطيفاً، مطلعاً بالنسبة للأكراد وتبدو عليه في الحقيقة مظاهر «العثمانلي» اكثر من المظاهر الكردية. فأمطرني بوابل من مختلف الاسئلة عن الحالة في اوربة، وعلاقات كل دولة بالدول الأخرى، وخاصة عن العلاقات الموجودة بين الباب العالي وروسية ومحمد علي باشا. وكان على اطلاع غير قليل بشؤون امريكا، فعمل على تصحيح ما كان يفكر به بعض الإيرانيين الموجودين في مجلسه، وبعض رجاله أيضاً، من الأفكار القديمة بالنسبة لها. وقد جرى البحث في أحوال الهند، وذكر الكثير عن الاختراعات الحديثة، وخاصة الاختراعات ذات الطابع الحربي. وجرنا موضوع تحسين عدة البندقية إلى البحث في طرق اطلاق النار المختلفة وفي أحسن طريقة لمقاومتها والسيطرة عليها في مقابل ذلك. ثم ادى ذلك إلى ذكر موضوع كنت قد سمعت تلميحات إليه من قبل أكثر من مرة، وهو يقدم لنا نموذجاً طريفاً للخرافة وتفشيها بين هؤلاء الناس - أي نموذجاً لسرعة التصديق وحسن النية من جهة، وللدجل السليط من جهة اخرى.

---

(١) النمد بالفارسية هو الفرش الذي يصنع من اللباد (الجبن) ويفرش في مقام السجاد.

فالسادة كما تعلمين هم نسل النبي محمد، لكنهم ينقسمون عدة طبقات، ويتمتع بعضها بقدر من التوقير والتبجيل أكثر مما تتمتع به الطبقات الأخرى لأنها كما يعتد محبوة بمواهب خاصة مستمدة من أصلها المقدس.

ومن هذه المواهب موهبة لا تدعي بها الا أسر قليلة وهي القدرة على تحمل النار وتأثيرها من دون أذى. فقد قيل لي في سوج بولاق أن إحدى الأسر المحبوة بهذه الموهبة كانت تقيم في قرية غير بعيدة عنا، ولكن المؤسف انه لم يكن بوسع أحد أن يأتي بشخص يقوم بهذا العمل بين يدي حينما أبديت رغبتي في مشاهدة هذه المعجزة. إذ يزعم أن الأشخاص الموهوبين هؤلاء يستطيعون الدخول إلى تنور تشتعل به النار حتى يصبح احمر من شدة الحرارة، وأنهم يكومون النار فوق أيديهم، ومع ذلك يصيح الفرد منهم «إنه بردان» فيخرج من دون أن يكون قد مسه شيء من الأذى. وهم يستطيعون كذلك إخراج قطعة حديد ساخنة إلى درجة الاحمرار من النار دون أن تصاب أيديهم بأذى. والخلاصة أننا إذا صدقنا ما يقال عنهم فإنهم يعتبرون مواد غير قابلة للاحتراق.

وقد كان الضحك على هذه الخرافة السخيفة شيئًا على نفس المقدار من الإساءة وعدم الفائدة، لأن جميع هذه القصص مهما كان منشؤها لما كانت قد أيدتها عقيدة الأجيال التقليدية فإن دحضها كان لا يمكن ان يتم إلا بإخضاعها للاختبار التجريبي - الذي كانت الجهات المتمسكة بالخرافات تتحاشاه على الدوام حيث يكون من المحتمل اكتشاف الزيف المنطوي فيها. ولذلك كنت حينما تفرض عليّ التأكيدات على صدق هذه القدرة الخارقة من جميع الجهات أجيب فقط بأن هذه الأمور قد تكون صحيحة، ولكن الاعتقاد بها من دون شك أو ريبة يعتبر خارج قدرتي أنا حتى أكون قد شاهدت بأم رأسي بعض الأدلة التي لا تدحض - كأن يقوم أحد الموهوبين هؤلاء بإخراج قطعة من الحديد الساخن إلى درجة الاحمرار من التنور بيده العارية ومسكها لمدة ما بأصابعه هو - وعند ذاك أقتنع بما وهب له من القدرة الخارقة، غير أن جميع من في المجلس أجابني بصوت واحد يقول «لكن الحقيقة لا ريب فيها لأننا كلنا على

علم بصدقها» فقلت مصرًّا «إنني حينما أجد قطعة من الحديد الحارة لدرجة الاحمرار في يد السيد سأصدق ذلك أنا أيضاً، وأعترف بأن مثل هذه القدرة لا بد أن تكون من عند الله مهما كانت الغاية منها» «ستفعل، أليس كذلك؟» هذا ما أجابني به مرزا إيراني كان يحاول دوماً استدراجي إلى الدخول في جدل ديني. ثم أردف قائلاً «وهل ستوافق بعد ذلك على كل ما سيقوله؟ فأجبته بقولي «ولنفرض أنه سيصارحني بأن الله غير موجود، فهل تريدني ان أؤيده في مثل هذا الاعتقاد؟» غير أنه رد عليّ يقول «كلا»، لكن ذلك غير ممكن» – وعند ذلك أجبته «أبداً فإنه كان يحدث عندكم في السابق أن يقوم أناس من بينكم فيدعون بالربوبية ويزعمون أن لهم قوى خارقة، بينما كان غيرهم ينكرون وجود هذا الشيء بالمرة. ولذلك يجب ان تلاحظوا بأنه ليس هناك من يستطيع أن يعد وعداً لا شائبة فيه بتصديق جميع ما قد يقوله شخص آخر قبل ان يسمع ما سيفضي به ويعرف ما إذا كان من المناسب ان يذعن له» فتدخل الپاشا وقال «ان ذلك حق، فمن غير المعقول ان يفعل ذلك». فسكت المرزا ولم يتفوه بشيء بعد ذلك.

ثم قلت «والآن أرجو أن يسمح لي الپاشا بأن أسأله عما إذا كان قد شهد في يوم من الأيام أحد هؤلاء السادة وهو يقوم بالمعجزات الخارقة» فكان جوابه سلبيًّا. وبعد ذلك التفت إلى رجل مسن كان متحمساً جدًّا في أثناء المناقشة وسألته «وهل شاهدت أنت ذلك؟» فأجابني يقول «كلا، لكنني كنت شاهدت أحدهم وهو يضع النار في فمه». فقلت «إن ذلك ما يمكن أن يفعله أي «حقه باز» أو مشعوذ بيننا، ويدل على أن ذلك كله يمكن أن يكون ضرباً من الحيلة». فعلق الپاشا بقوله «إنه يقول الصحيح، فقد شاهدت أنا بنفسي مثل هذا الحيل يقوم بها أولئك الناس. ثم التفت إلى جميع من اشترك في الحديث من حضار المجلس، ولكن لم يستطع ولا واحد منهم أن يقول إنه شاهد هو بنفسه أي شيء من هذا القبيل. ولذلك ابتدرت المرزا قائلاً بعدم اكتراث إنه بالنظر لأنه لم يقدم لإثبات المعجزات المزعومة سوى التقولات والإشاعات فإنه لا يمكنه ان ينتظر مني ان أستسلم بحكمي أو رأيي الذي لا بد لي أن أحتفظ به حتى يكون هو مستعدًّا لتقديم دليل أقوى مما جاء به من قبل.

وفي اليوم التالي (أول تشرين الثاني) تمشيت لأشاهد البلدة وأحصل على فكرة عن الحالة فيها أحسن من الفكرة التي استطعت تكوينها بنظرتي السطحية الأولى. فتأكد لي أن الانطباعات التي تكونت عندي بتلك النظرة العابرة لم يكن بوسع الملاحظات الأخرى أن تحسنها في نظري أو تغير شيئاً منها بأي مقدار كان. فقد كانت البلدة كلها ضنك وإملاق، وقذارة ودمار. ولم يكن يلاحظ فيها ولا مسكن محترم واحد. كما لم يكن عند أي أحد من الناس، كبيرهم ووضيعهم، الرغبة الصادقة ولا الوسيلة اللازمة لترميم البيوت وتحسين شكلها أو حالتها، ولذلك أصبحت الأكواخ المقامة فوق أنقاض القديمة منها أحقر في وصفها من الحد الاعتيادي. كما أن أرض السليمانية، التي تبنى من طينها الدور، هي من النوع الهش الذي يكون قليل المقاومة للعوامل الجوية، فهي تفتتت حالما تترك لشأنها. فبفعل عدة أسباب وتأثيرها كادت البلدة ان تزول من الوجود تقريباً. على ان الاسواق كان منظرها أحسن مما كنت أتوقعه، بالنسبة للحالة في بقية البلدة. لأن الدكاكين معظمها وإن كانت مشغلة من قبل الباعة المتنقلين وباعة المفرد الذين يبيعون السلع التافهة، فإنها مع ذلك تتصف بشيء من حسن المظهر، وكان من الممكن أن يلاحظ تجمع عدد غير يسير من الناس في الفسح المكشوفة التي تباع فيها منتجات القرى والأرياف. فقد قيل لي إن السليمانية لا يزال يقيم فيها حوالي ألف إلى ألف وخمسمئة أسرة لكنني إذا أردت أن أحكم عليها من المظاهر أقول بأن الرقم الأول الذي ينطوي على مجموع يقدر بخمسة آلاف نسمة[1] على الأقل هو الأقرب إلى الحقيقة إذا لم يكن أقل منها.

ولما كانت البلدة نفسها واقعة في منخفض من الأرض فإنها لا يمكن ان ترى إلا من بعض المرتفعات المحيطة بها، وأحسن منظر لها يبين للناظر من رابيتين متخذتين مدافن للموتى - فهما تصلحان للسكن أحسن بكثير مما تصلح له البلدة نفسها. وبنزولي من إحدى هاتين الرابيتين التي كنت قد صعدت إليها

---

(١) أي بمعدل خمسة أفراد للأسرة الواحدة على ما يبدو.

لأحصل منها على منظر عام للريف المحيط بها طرق سمعي صوت نسائي يندب بنحيب عال، فوجدت عن بعد بين القبور امرأة تجلس بالقرب من قبر حديث البناء كانت تبكي عليه وتعول بإشارات وحركات تنم عن أعمق الألم وأمضه. فذهبنا لنتبين أمرها، لكنها كانت على درجة من الانغماس في حزنها وأساها بحيث إنها لم تعبأ بنا، إذا كانت قد أحست بوجودنا حقًّا، الأمر الذي كان من المحتمل أن لا يقع لأننا تقدمنا إلى حيث كانت تجلس. وقد كانت مشغولة بتزيين القبر بطريقة غريبة، شائعة بين الفقراء، وذلك بوضع أحجار صغيرة بيضاء اللون بأشكال غريبة فوقه. ولكنها بين حين وآخر كانت تكف عن ذلك فتحرك يديها بما يدل على اليأس والقنوط، وتتفوه بنبرات مهووسة من الغم والألم الممض الذي كان يدل على شيء غير متناه من المحبة والتعلق. وقد أثر حزنها وتدفق عاطفتها حتى على الخدم الذين كانوا يسيرون من ورائي، وهم القساة القلوب في الأحوال الاعتيادية. لأن ذلك كله لم يكن شيئًا يراد به التصنع، أو الظهور بمظهر الحزن أمام الناس. فقد كانت المسكينة تجلس هناك وحيدة في تعاستها، بعيدة عن سمع أي كان من الناس وبصرهم، عدا المارة العابرين مثلنا، وهي تصب حزنها في أذنه هو وحده، الذي وجد من المناسب أن ينزل بها البلوى.

فقال أحد الخدم «إن هذه المسكينة لا بد أن تكون قد فقدت زوجاً أو ولداً كان معيلها الوحيد، لأنك ترى يا سيدي ان مثل هذا الندب لا يمكن أن يصدر إلا ممن فقدت وحيدها. أما الذين لهم عوائل فيمكثون في بيوتهم، وهناك يبكون ويندبون».

وفي هذا اليوم طلبت إلى الباشا أن يأذن لي بالسفر لعدم وجود ما يدعو إلى استمرار مكوثي في عاصمته، ولكونه هو المسكين كان منشغلاً جدًّا بشؤونه الخاصة بحيث لا يستطيع أن يعير التفاتاً كبيراً لضيوفه. على أنه كان قد اغتنم الفرصة وأشار إلى خادمي من طرف خفي قبل هذا عما إذا كانت لدي أية بندقية أو مسدس أريد مبادلتهما بخيل أصيلة، فإنه كان يسره أن يفعل ذلك. ولما لم يكن لدي أي مانع من زيادة عدد خيولي، بإضافة حصان كردي أصيل

إليها، بعثت ببندقية زائدة كانت عندي ومسدس ذي سبطانتين لأجل أن يتفحصها ويرى رأيه فيها. غير أنه قد تبين بأنه كان قد تنازل عن تلميحه الأول، وربما كان السبب في ذلك أنه كان يأمل من قبل أن يجد البعض من هذه الأشياء طريقه إليه على شكل هدية، حيث إنه لم يوافق على مبادلتها بشيء فأعيدت إليّ. وعلى هذا الأساس بعثت ببعض الحاجات الصغيرة التي كنت أعتقد أنها يمكن أن تحظى بالقبول عنده كهدية. فقُبلت بتعارف وكلام لطيف. لكن التناقص القليل الذي طرأ على الترحاب الذي قوبلت به هذا اليوم بي إلى الشك في ان آمال سموه لم تتحقق على الوجه المطلوب، فأعاقني ذلك عن تكرار الزيارة له.

وقد اضطررت اليوم أيضاً إلى التعرض لإخفاق آخر من الإخفاقات المكدرة المذلة التي يتعرض لها الرحالون في البلاد القلقة مثل هذه. فهناك على بعد عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً من السليمانية سهل متسع ينتهي به الوادي[1] الطويل الذي يستمد اسمه من اسم البلدة المشهورة فيه، وهو يحتوي كما يقال على بعض الآثار القديمة التي لم يرتادها إلا القليل من الأوروبيين حتى الآن. ومن الأشياء الأخرى التي تعطي الأهمية لهذا السهل انه يحتوي على موقع مدينة كان يسميها الأقدمون سيازورس Siazurus، وتعرف أطلالها حتى اليوم عند الأهلين باسم شهرزور. ولا بد أن يتبين لك في الحال من تقارب هذين الاسمين مقدار اللذة التي يشعر بها المختصون عند البحث فيه. ولو لم يدعُ الواجب صديقي ماكنيل للعودة إلى انكلترة، فقد كنت آمل ان آتي به إلى مثل هذا المكان البعيد وأنقب معه عن آثار شهرزور القديمة. ولكنني حينما أحبط ذلك المشروع وعدته هو ووعدت نفسي أن أذهب إلى هناك بنفسي وأقف على ما يمكن أن أجده أو أعثر عليه. وعند وصولي إلى هنا قدمت طلباً إلى الباشا ليأذن لي بالسفر إلى هذا الموقع ويزودني بدليل يساعدني على زيارة هذا الجزء من بلاده. فلم يصدر منه أي اعتراض بادىء ذي بدء سوى بعض الملاحظات التي أبداها بعدم وجود شيء هناك غير بعض القمم والتلال

(١) لا شك أنه يقصد وادي شهرزور.

الملأى بكسر الفخار والآجر، وبعدم وجود أبنية أو صخور منحوتة. لكنه أعترف أن التلال كبيرة جدًّا، وان هناك عدة مجموعات منها تقع كل منها على بعد غير يسير عن الأخرى. ولم تكن هذه الملاحظات لتثنيني عن رغبتي في مشاهدة المكان. ولذلك يمكنك أن تحكمي على مقدار ما أصابني من الكدر حين قال الباشا، عندما بعث الخادم ليأتيني بالدليل الذي كان سيأخذني لمشاهدة المكان، بأنه لا يمنعني من الذهاب إلى شهرزور ومشاهدتها إذا كنت مصرًّا على ذلك لكنني إذا كنت سأقوم بتلك المحاولة فإنها ستكون مخالفة لرغبته وما يشير به عليّ. فإنه يعتقد بأن المكان المذكور هو ملتقى اللصوص والشقاة، وإذا ما حدث لا سمح الله شيء لخيولي فإن شرفه هو سيمس بحادث ليس في مقدوره أن يمنعه أو يتلافاه. ثم قال انهم أكراد - بهائم - ومن هو الذي يستطيع الاجابة على ما يمكن ان يفعلوه بدافع الاغراء بما ستراه أعينهم من الثروة الكبيرة التي يمكن أن تقع في قبضة أيديهم. والخلاصة أنني كان يمكنني أن أذهب على مسؤوليتي أنا لا مسؤوليته.

وهذا توسع في الاعتراض تعرف أهميته في الشرق معرفة جيدة، وكثيراً ما ينتفع به في الظروف التي تكون فيها الغاية المنع عن القيام بشيء من الظهور بمظهر المعارض فيه. وهو يضع المسؤولية على عاتق المغامر الذي يصر على ما يريد برغم التحذير المناسب ويبرىء ساحة أولئك الذين يحذرونه من عواقب تسرعه - وهي العواقب التي يعلم المطلعون على الشخصية الشرقية تمام العلم انها يمكن بكثير من الاحتمال أن يعقدها عليه نفس الناس الذين يقدمون له الرأي فيها.

ولديّ أسباب تجعلني أشك في أن سبب إحجام الباشا عن الموافقة على زيارتي لشهرزور هو الخوف الذي كان يساوره من أن هذه الزيارة قد يكون من شأنها أن تدحض جهوده في الظهور بمظهر الفقير في نظر الرأي العام، وخاصة في نظر الحكومة الأذربيجانية. لأن تلك المنطقة على ما يقال من أغنى المناطق في باشويته، وربما كان هو يفكر بأن غريباً مثلي يستطيع أن يخبر الجهات المعنية بالأمر عن مقدار الغنى الموجود فيها. وعلى كل فإنني بعد أن

جربت كل وسيلة للتأثير على رأي الپاشا في هذا الشأن، وحتى بعد أن طلبت ذلك بواسطة قائد الجند الإيراني المرابط هناك - وهو بحكم الضرورة ذو تأثير كبير، وكان يضحك على جميع الاعتراضات التي أثيرت ضد الرحلة - قد اضطررت إلى ترك المشروع والتخلي عنه، وقد كان الپاشا يصر على ان المجازفة عظيمة، وأنه لا يسعه ان يسمح بالمحاولة، ولذلك أكرهت على التخلي عن المجازفة بالذهاب إلى شهرزور ليقوم بها بطل أكثر حظًّا مني. وقد سمعت بعد ذلك ان الپاشا كان محقًّا إلى مدى غير يسير، لأن المكان في مثل هذا الموسم يكون غاصًّا باللصوص الذين يتقاطرون إليه من الأصقاع الجبلية في كرمنشاه وهمذان وأردلان، ولذلك كانت حادثة النهب أو اللصوصية حينما تقع يصعب اكتشاف الفاعلين وإنزال العقاب بهم.

وفي خلال الحديث لم أسمع سوى قليل من التفصيلات الأخرى عن شهرزور، وها إني ألخصها على الوجه الآتي: تحد السهل من الشرق والجنوب جبال شاهقة كثيرة الوعورة، وهو يحتوي على مواقع وأطلال خمس أو ست من المدن أو البلدان القديمة. وتسمى إحداها القلعة، وهي عبارة عن تل كبير عال. وهناك بعد هذا ياسين تپة وكولعنبر، وعربت، وخرابة، وغير ذلك. وقد أخبرني شخص أو شخصان أن أحجاراً ذات حجم كبير تحمل كتابات يعتقد انها مكتوبة بالحروف الأوروبية (اليونانية) تستخرج أحياناً عند الحفر في هذه السهول. وهم يقولون ان أحد الباليوزات[١] من تبريز وجد حينما كان في طريقه إلى بغداد حجراً من هذه الاحجار في عربت. وسمعت كذلك ان حجراً آخر من هذا النوع عثر عليه أثناء الحفر في بردكر، وهي قرية تقع في أسفل الجبال الجنوبية الشرقية التي تحيط بالوادي. وقد حدثني أحد الشيوخ عن «بودخانة»، أو معبد للصور، وجد في إحدى جهات السهل وكان فيه حجر مغطى بالأحرف التي لم يستطع أحد حل رموزها في هذه البلاد.

---

(١) الباليوز كلمة إيطالية الأصل، استعملت في أيام الحكم العثماني لتدل على معنى القنصل الأوروبي في البلاد التركية. وقد كانت تطلق على المقيم البريطاني في بغداد على الأخص.

وعلى هذا يبدو ان هذه المنطقة قد تصبح ذات يوم منجماً للعاديات غير المستكشفة. والمقول ان السهل بإجماعه مغطى ببقايا الأبنية القديمة، ولكن من النادر ان يوجد فيها شيء غير الآجر والفخار وما اشبه.

وفي هذا اليوم أيضاً جرت لي مقابلة مع محمد خان «سرتيپ»[1] أو قائد القوات الإيرانية في السليمانية، وهذه القوة تتألف من أربعمئة رجل وثمانين مدفعيًّا مع خمسة مدافع عادية ومدفعي هاون. ولا شك انها قيادة صغيرة لكنها كافية تمام الكفاية لواجب ابتلاع البلاد والنهب حينما لا يستطيعون الحصول على ما يكفيهم بالطرق الأخرى. والحقيقة ان أي جزء من ايران أو البلاد المجاورة لها ليس في مقدوره بحالته الحاضرة ان يقوم بأعباء جيش فعال ويقيته. ويحاول الأمير في كرمنشاه الإبقاء على هذه الولاية تابعة لإيران في وجه پاشا بغداد الذي تتبع لحكومته في العادة، وحينما يحاول تحقيق ذلك بأقل ما يمكن من الكلفة والمصاريف لحكومته هو يقوم بتخريب ممتلكاته. على أن محمد خان بصرف النظر عن الجهة التي تؤخذ منها مصاريفه، كان بطلاً أهلاً للحفاظ على سطوة سيده ضد العالم أجمع! فإنك إذا ما أعطيته الوسائل والإذن اللازم يستطيع أن يبيد المير في راوندوز، ويحبس پاشا بغداد في داخل حدوده

---

(١) سرتيب كلمة فارسية تعني في الوقت الحاضر رتبة في الجيش بدرجة رئيس أول. وقد ورد اسم سرتيب محمد خان هذا في تقرير الفريق درويش باشا المعين لتعيين الحدود بين إيران والدولة العثمانية من قبل السلطان في حوالي سنة (١٢٦٠) للهجرة (طبعت التقرير وزارة الخارجية العراقية سنة ١٩٥٣م). فهو يقول في البند رقم ٥٨ حول طوائف عشيرة البلباس: «.. وقد أرسل محمد باشا (المير محمد) قوة عسكرية إلى كويسنجق واستولى عليها... ولم يستحسن المرحوم علي باشا (المقصود علي رضا باشا) والي بغداد هذه الحركة فأرسل قوة مسلحة تحت قيادة سليمان باشا متصرف السليمانية لمحاربة محمد باشا... ولم يتمكن سليمان من القيام بأي عمل حازم وطلب نجدات من إيران وأرسل الإيرانيون سرتيب محمد خان من تبريز مع قوة كافية وجرت معركة شديدة في قلعة دربند... فطلب محمد باشا الصلح فوافق الباشا المومأ إليه على ترك ثمانية قرى من كويسنجق إلى السليمانية..».

ما بين النهرين. حيث إن بثلاثمئة «سرباز»[1] فقط ونصف هذا العدد من الخيالة استطاع ان يكتسح كرميان، أو البلاد الواطئة، على حد قوله، من الموصل إلى خانقين ومن كرمنشاه إلى ما يقرب من أبواب بغداد. ولم يتوقف عن القيام بشيء هائل جدًّا في الحقيقة لو لم يعمد الپاشا إلى اتحافه بهدايا ثمينة وتقديم الكثير من العتاب والاعتذارات السلمية. والحق ان سرتيپ خان ينتمي إلى طبقة من الإيرانيين كثيرة العدد جدًّا، أجاد في وصف أمثالهم موريير، وهم أشد المتبجحين ضلالاً في الطبيعة ومع ذلك لا تعوزهم الشجاعة مثل المتبجحين في معظم البلاد الأخرى. وبينما كنت أستمع إلى قصص الخان عن مآثره - ومقدار الثناء الذي كان قد حصل عليه من ملك الملوك والمقابلة (خلوت) التي حظي بها بالمثول بين يدي جلالته - وعن الخطابات الطويلة التي كان يلقيها الأمير المالك، والوعد الذي وعده به سموه بسيف مطعم بالذهب - وعن تذمراته المرة من عدم التقدير الذي تقابل به مزاياه، فلا يدفع له الأجر الكافي ولا المخصصات اللازمة، ولا يتمتع بالإجازات الضرورية لزيارة أسرته (التي فارقها منذ خمس سنوات) بل يؤمر بالعكس بالتوجه إلى هنا وهناك في حملات أخرى لأنه لا يمكن لأحد غير محمد خان ان يقوم بالعمل على أحسن وجه، وبكلمة أفضئ عن تذمره من الحقيقة الجلية بأن الحكومة كانت تعلم أي خادم صالح هو السرتيب خان ولكنها لم تكن تعرف كيف تستفيد منه - أقول بينما كنت أستمع إلى كل هذا تعلمت الكثير مما هو مهم وطريف، الكثير مما كنت أرغب في الوقوف عليه بشأن البلاد وعدوها پاشا راوندوز[2] ، وحصلت على الكثير من التسلية كذلك. هذا علاوة على انني قد أرضيت على ما أعتقد الخان النزيه الذي هو في الحقيقة رجل صادق مخلص، يتناول كأسه كأي فرد منا.

---

(١) سرباز كلمة فارسية تعني الجندي الراجل أو المنتمي إلى المشاة.

(٢) هو كور محمد باشا - المير محمد - المار ذكره في الرسالة الأولى.

أول تشرين الثاني

زالة[١] قرية كردية متواضعة تتألف من ستة أو ثمانية دور. أكتب إليك يا عزيزتي من هذه الحفرة الشقية التعيسة لأنني قد توفرت لي ساعة من الزمن، وليس لأن عندي شيء مهم أكتبه. فقد غادرت السليمانية يوم أمس في حوالي الحادية عشرة قبل الظهر، بعد أن بقيت أنتظر والحيوانات محملة والخيول مسرجة من السابعة صباحاً. لأن الپاشا لم يف بالوعد الذي كان قد قطعه لي بتخصيص دليل يأخذني في الطريق إلى بغداد. فالرجال العظام يأخذهم النسيان فيذهبون إلى النوم، ولا يتجاسر أحد على إيقاظ سموه. ولذلك جلست في عدتي أضرب بمهمازي واستشيط غيظاً حتى حلت الساعة المعتادة التي يخرج فيها سموه من مخدعه، فقال لخادمي ان أشغالي قد غابت عن ذاكرته! وعلى هذه الشاكلة يؤدي طيش العظيم إلى إتعاب الصغير وخسارته في بعض الأحيان. وقد كان للمسكين شيء من العذر، لأن شؤونه الخاصة كانت تربكه. فقد اكتشفت بعد ذلك انه كان في اليوم الذي استأذنته بالسفر قد ترأس جلسة سرية مشوشة مع أغواته، عقدت للمناقشة في كيفية تزويد ثلة من الجند الإيراني ببعض الضروريات التي كانت تبلغ تكاليفها حوالي مئتي تومان - فلم يستطيعوا على ما قيل جمع هذا المبلغ من السليمانية وربما كان هذا ينطوي على جزء من البرودة التي كنت أعتقد انها كانت بادية في تصرف الپاشا تجاهي في تلك الحادثة.

وحينما حضر الدليل كان دليلاً جيداً مناسباً، كما كانت التعليمات التي زود بها دقيقة جدًّا بالنسبة لما يختص براحتي وسلامتي. فقد كان عليه أن يوصلني إلى كفري ويكون مسؤولاً عن سلامتي بقطع رأسه، تبعاً للطريقة الشرقية في هذا الشأن. فبهذا الشكل تكتب الرسائل التي يزود بها السياح على سبيل التقديم من الأمراء إلى حكام الأماكن الواقعة في طريقهم، أو التعليمات

---

(١) تقع اليوم في ناحية شيروانة التابعة لقضاء كفري، ويسكنها قسم من قبائل الجاف ولا سيما الروغزادي والشاطري.

التي تعطى للأدلاء الذين يأخذونهم إلى حيث يريدون. وهكذا فإن عبدالله[1] خان حينما كتب عني إلى أخيه صمدخان في سرادشت وسائر رؤساء القرى كان يرغب في أن أبعث في الطرق الواقعة داخل حدود المناطق التي يشملها حكمهم بسلامة وشرف، وأن يُفهم بأن أية قطرة من الدم قد تسيل من أحد خيولي يكون جزاؤها خمسة آلاف تومان.

٣ تشرين الثاني

وبدلالة عول خضر أغا غادرنا السليمانية في حوالي الساعة الحادية عشرة، وبعد أن اجتزنا السهل تسلقنا الجبال الغربية التي تحيط بالوادي الطويل المسمى باسمها، الذي ربما يبلغ إذا ما أضيف إليه سهل شهرزور سبعين إلى ثمانين ميلاً في الطول. ومن قمة الممر كان يمكن للعين أن تشرف على بلاد تنفرد في غناها، وتنحصر بين السلسلة التي كنا نقف فوقها، وعلى قمة بارزة الشموخ تقع على مسافة غير يسيرة منا وتكون في الحقيقة الحدود الفاصلة بين البلاد المرتفعة والمنخفضة. وقد كان عليّ في الحقيقة أن أسمي الأراضي التي تقع بيننا وبينها وادياً لأنها كانت أخفض من الجبال المحيطة بها، لكنها كانت حقًّا كتلة من أشد الجبال والوهاد وعورة تزينها هنا وهناك شجيرات البلوط والجوز المثمر في الأماكن التي كانت تقوم فيها القرى في يوم من الأيام، والكروم وشجيرات الرمان والسماق التي لا تزال تنمو نموًّا سريعاً كثًّا.

ولقد شققنا طريقنا عبر هذه البلاد الوعرة الصعبة إلى قرية كَرَداة التي كان من نصيبنا أن نقضي فيها ليلتنا في ذلك اليوم. فقوبلنا بكل أمارات الضيافة فيها بتأثير من أوامر الباشا لكننا بلغنا بأن نكون على حذر تام من اللصوص الذين قيل عنهم على الأخص أنهم كثيرون نشطون فيها. ومن صفات هذه القرية أن المئة والخمسين إلى المئتي بيت التي تتكون منها يعود ما لا يقل عن ثلثها إلى سكانها اليهود. وقد ألفيت الأكراد واليهود هنا يمتزجون امتزاجاً حسناً فيما بينهم.

---

(١) لا بد أن يكون عبد الله خان هذا من رجال الباشا في السليمانية.

وفي هذا اليوم وجدنا على مسافة غير بعيدة من البلدة بركة جميلة غزيرة المياه تنبع من الأرض وتتصف، كما أكد لنا الناس، بخاصية الإبراء من الأمراض. وقد كان منبعها الأصلي محاطاً بسد من الحجر، كما كان في الماء المنحصر على هذه الشاكلة عدد من الأسماك التي كانت تسبح وتتحرك غير عابئة بأحد لأن الناس لم يكونوا يتعرضون لها. على أن الجنود الروس الذين بعثوا إلى هنا من أذربيجان كانوا قد عملوا على اصطيادها وتقليل عددها برغم الإنذار بالموت الذي كان يصدر من الناس تجاه هذه الإساءة المدنسة للقدسية. فزعم أن بعض الذين أكلوا من هذا السمك قد ماتوا بنتيجة ذلك.

وقد تحدثت في هذا اليوم مع دليلنا في موضوع النذركاهات (أماكن النذور)، فكان تفسيره لها بسيطاً. إذ قال لي «إن الشخص المريض حينما يرى في الحلم أحداً من الأئمة أو الرجال الصالحين يظهر في بقعة خاصة فإنه يعمر تلك البقعة، وحينما ينال مراده الذي كان ينتظره يبادر إلى تخليد المكان بمثل هذه الأكوام من الحجارة التي كثيراً ما نراها في طريقنا اعترافاً منه بالجميل وإرشاداً للآخرين عن هذه البقعة المقدسة. فيؤدي هذا إلى مجيء المرضى الآخرين إليها وإضافة أحجار أخرى فوقها، وبمرور الوقت تصبح الأكوام عديدة وكبيرة. وكثيراً ما يشد الذين انتفعوا بهذه الوسيلة قطعاً من ملابسهم كذلك في الشجيرات المحيطة بتلك البقع كما ترى». وهو يقول أيضاً إن قبور العظماء من الرجال، أو الذين يقتلهم اللصوص أو يقتلون خيانة، لا توضع فوقها هذه العلامات، ولا تلقى مثل هذا النوع من الاحترام والتوقير. لكن عموداً يحمل علماً في أعلاه قد يرفع أحياناً، أو قد توضع بقربه علامة غير هذه لتدل المسلمين الصالحين على المكان الذي يجب أن يترحموا فيه على الموتى.

وقد تحركنا في السابعة من صباح اليوم الثاني. فمررنا في طريقنا بمواقع عدد من القرى المهجورة التي كانت يوماً ما تسبغ الحياة والجمال على مرابعها ووديانها الصغيرة. لأن السكان قد هربوا عن هذه البلاد المنكودة الطالع وأخذوا معها ما كان فيها من سلم وازدهار، فخلفوها فريسة للطغاة

واللصوص. وفي طريقنا هذا اليوم شاهدنا الكثير من آثار العنف والضغينة، لأننا في مسافة لا تزيد على اثني عشر ميلاً أبدلنا حراسنا وأدلاءنا مرتين. إذ لا يجرأ سكان القرية الواحدة على الدخول في حدود القرية الأخرى. وقد قص علينا دليلنا عول خضر أغا قصة طريفة في هذا الشأن، وهي أن قبيلة الهماوند التي تشغل بعض الأراضي القريبة من هذه المنطقة، والتي أكد لي أنها لا تزيد في عددها على الخمسمئة أو الستمئة أسرة، قد جعلت من نفسها عشيرة قوية تجاه عشيرة أخرى هي عشيرة الجاف[1] التي تعد بين عشرة آلاف واثني عشر

---

(١) والجاف عشيرة كبيرة من العشائر الكردية التي تتألف من أناس مقيمين في مختلف القرى والأرياف التي تمتد من لواءي كركوك والسليمانية في العراق إلى منطقة جوانرورد في داخل الحدود الإيرانية، ومن قبائل رحل يتجولون في ضمن المنطقة هذه أيضاً. وتتألف العشيرة من قبائل عدة تنتشر في جهتي الحدود العراقية - الإيرانية. وليست هناك رئاسة خاصة للعشيرة كلها وإنما يترأس كل قبيلة من القبائل المنضوية تحت لوائها رئيس من أسرة الإمارة المعروفة عندها وهي أسرة ظاهر بك.
أو (زاير) بالكردية، الذي يرجع بنسبه إلى بيرخضر شاهو الجد الأعلى الذي قدم من إيران (منطقة جوانرود). وهو رجل من السادة الهاشميين. كانت له رئاسة دينية في بادئ الأمر. وقد تفرعت الإمارة إلى ثلاثة فروع: (١) بهرام بيكيه (٢) كيخسروبيكيه (٣) ولد بكيه. وقد لعبت قبائل الجاف بوضعها هذا دوراً فعالاً في الخصومات التي احتدمت بين العثمانيين والإيرانيين حول الحدود والمطامع الإقليمية. واستفاد من ذلك على الأخص أمراء البابانيين الذين كانوا يتناحرون على الحكم في المنطقة.
وقد اقتضت الأحوال السياسية أخيراً أن تنقسم قبائل الجاف إلى جمهرتين أو مجموعتين: (١) جاف العراق أو جاف مرادي و (٢) جاف إيران أو جاف جوانرودي. وتسكن قبائل الجاف العراقية في ناحية شيروانة التابعة لقضاء كفري. ومنطقة شهرزور التابعة لقضاء حلبجة في لواء السليمانية. ومن أشهرها قبائل الميكايلي والروغزادي والطرخاني والشاطري والهاروني والصداني والبوداخي واليزدان بخشي والنجم الديني والكلالي وغير ذلك.
أما الهماوند فهم من القبائل الكردية المعروفة بالشجاعة والبسالة. ويقيمون في منطقتي جمجمال وبازيان اللتين يمر منهما طريق كركوك - السليمانية الرئيس في =

ألف بيت أو خيمة بحيث لم يعد بوسع أي رجل من الجاف أن يتعدى إلى تخومها لأنه إذا ما فعل ذلك سرعان ما يقتل بدم بارد. بينما يركب الهماوند بجماعات تعد الواحدة منها عشرين أو ثلاثين خيالاً فيذهبون إلى الجاف وينهبون بيوتهم. لكنني أعتقد أن قوله هذا فيه شيء من المبالغة، لأن الجاف يستطيعون أن يقدموا إلى الپاشا ألف خيال مقتدر في وقت الحاجة. وهم يقطنون في الغالب منطقة شهرزور، لكنهم ينتشرون أيضاً على طول خط الحدود. هذا وقد اغتنم أحد أولئك التعساء من الجاف فرصة مرور قافلتنا فحمل نبالته ووجاهته سالمة إلى خارج المناطق الخطرة.

وقد تم آخر تبديل لحراسنا في جعفران بالقرب من سفح ممر سكرمة، إحدى بوابات كردستان الكبيرة في هذه الاصقاع. ولما كان قد رافقنا من هناك اثنان من الخبثاء الجريئين الشبيهين باللصوص فقد علق دليلنا عليهما بقوله إنهما يعدان بعشرين فارساً. ثم استطرد قائلاً: «إن اللصوص يخشونهما ولا يجرأون على مهاجمتنا بوجودهما، لكننا يجب علينا أن نكون حذرين على كل حال، ولتكن حيوانات الحمل غير متباعدة، ونحن سنكلف أحد هذين بأن يسير في المقدمة.» فجد رفاقي في السير بعد أن صدر لهم مثل هذا الإنذار، وهم الذين يلجأون في كثير من الأحيان إلى حيلة التلكؤ والتباطؤ الخبيثة، حتى وصلنا إلى شدقي الممر بالسرعة اللازمة.

فوقفنا هنا وقفة قصيرة، لكنني سررت لذلك لأنها مكنتني من أخذ رسم

= الوقت الحاضر، ولا تعد قبيلة الهماوند من القبائل الكبيرة. ويعتقد بعض المؤرخين أنهم في الحقيقة تفرعوا عن عشيرة الجاف الأصلية. وقد جاء في كتاب (عشائر العراق الكردية) أن لغتهم لا تختلف عن لغة الجاف، لكنها تختلف عن لغة أهل السليمانية وأطرافها المعروفة بلغة الكرمانج. ومن وقائعهم المعروفة في تاريخ العراق الحديث مناوأتهم لباشوية بغداد واضطرار الوالي عمر باشا سرداز أكرم إلى تأديبهم بقسوة والتنكيل بهم فأدى ذلك إلى عزله. ولهم موقعة معروفة مع الجاف جرت في مكان يقع بين جمجمال والسليمانية يسمىٰ (كرده لربويه) قتل فيها ابن كيخسرو بك الجاف.

تخطيطي سريع لهذه البوابة الطبيعية الفريدة، التي يسميها الأهلون تسمية في محلها فيطلقون عليها اسم «دربند». وقد استغرق صعودنا ساعة ونصف، وفي النهاية وقفنا فوق القمة متطلعين من الخلف إلى البلاد الجبلية الموحشة التي اجتزناها. أما من الجهة الأخرى فقد كانت تمتد الأصقاع المنخفضة التي بقي علينا أن نجتازها قبل أن يكون بوسعنا الوصول إلى عاصمة الخلفاء العتيدة. أقول الأصقاع المنخفضة لا المستوية، لأن البلاد التي صارت تمتد أمام أعيننا الآن كانت بعيدة كل البعد عن الاستواء على كونها من حيث الارتفاع النسبي أوطأ بكثير من المناطق التي خلفناها وراءنا. فقد كانت تقوم أمامنا قمم واطئة من التلال الجرداء المعتمة التي كانت تمتد امتداداً متسلسلاً حالت كثافة الجو دون اكتشافنا لنهايته. أما الفسح التي كانت تتخلل تلك القمم فقد كانت تتقاطع معها على نفس النمط سلسلة من الروابي والآكام الصغيرة. فكان المنظر العام بذلك مقفراً ومعتماً. ومع هذا فقد كانت هذه بلاد الآشوريين الأصلية، مهد الامبراطوريات الجبارة، ومنبت الملوك العظام في الأزمنة الغابرة. ولم يكن يدور في خلد أحد أن هذه المفازة الصخرية الجرداء كانت بلاد سميراميس العظيمة، أو سارداناپولس[١] المترف. على انها قد تكون الموطن اللائق لـ«نمرود الصياد الجبار».

فأدت بنا نزلة صخرية مخيفة، ومسافة عدة أميال قطعناها في البلاد المنخفضة التي أتيت على وصفها، إلى هذا المكان المسمى زالة، إنها مكان بسيط جدًّا كما بينت من قبل، والحقيقة أنني لم أر أسوأ من هذا المكان للمبيت.

وقد أزعجنا في هذا المكان، وفي المنزل الذي نزلنا فيه الليلة الماضية، ما نشب من خصام بين مهمندارنا[٢] وأهالي القريتين حول الشعير والتبن الذي

---

(١) سميراميس هي ملكة آشور الأسطورية قريبة الإلهة عشتار، أما ساردانا بولس فهو أشور بانيبال الملك الآشوري ابن أسرحدون وقد ورد ذكره في الإنجيل باسم اسنابر.

(٢) مهمندار كلمة فارسية بمعنى الرجل الذي يتولى شؤون الضيوف.

كان يجب أن يقدم لخيولنا، والطعام لنا. فقد أشرت أكثر من مرة قبل هذا إلى العادة الشائعة في هذه البلاد، بأن المرموقين من الأجانب والأشخاص الموصى بهم من الأصدقاء أو السلطات الحاكمة يعتبرون ضيوفاً عامين وليس مختصين بشخص دون آخر، وهم والحالة هذه يزودون بالطعام والمنام على حساب الحكومة الاسمي أو الخانات وحكام الأماكن الواقعة على طريقهم. وهذا امتياز تعد مساوئه أكثر من فوائده. فمن الطبيعي أن السائح من دونه لا تتهيأ له الفرصة للاتصال بالطبقات العليا من الناس، وقد يمر بالبلاد من دون أن يتسنى له الاطلاع على أي شيء من عاداتهم وأحوالهم. لكنه في كثير من الأحيان يصبح قيداً يعيق تحرك السائح وترتيباته، لأنه لا يستطيع اتخاذ ما يلزم للبقاء في بعض الأماكن أو التوجه إلى أخرى من دون مساعدة مضيفه وموافقته عليها. وقد تكون آراء المضيف نفسه مختلفة عن آراء ضيفه، أو مؤديه إلى الحيلولة دون تحقيق أعز رغباته عليه.

وفي هذه الحالة، كنت أنا ضيفاً على الباشا في السليمانية. وتتطلب الأصول المتبعة في هذا الشأن أن أستمر على كوني ضيفاً ما دمت موجوداً في بلاده. غير أنه لما كان هذا يعد شيئاً باهظاً في تكاليفه فقد حملت القرى التابعة له على تحمل النفقات، وحتى لو كانت هذه النفقات تقيد على حسابه من قبل خدامه فإن القرويين المساكين كانوا لا يستفيدون شيئاً من ذلك لأن الخدام يستفيدون منها هم أنفسهم ويلقون العبء على القرويين على كل حال. أما ما حدث في الليلة الماضية، فبعد كل ما فعله دليلنا عول خضر أغا لم يأت القرويون بالمقدار الكافي من العلف لخيولي، ولذلك أخبرت خدامي الخاصين بشرائه على حسابي أنا. ولا أدري إذا كانوا قد فعلوا ذلك أم لا، لكنني دفعت المبلغ المطلوب. وفي هذه الليلة انتشر في القرية النحيب والعويل - فقد حرمت نساء الأسر الخمس أو الست التي تتألف منها القرية من ذخيرتها الشحيحة من الحبوب، وجاءت إحداهن إلى حيث كنت أمكث معولة مولولة لتسترجع دجاجتها الوحيدة التي كانت قد أخذت منها قسراً ليدخل ريشها في تكوين مخدتي، فاستعادتها حينما كانت السكين تهم بذبحها.

وببضع بنسات أمكن الحصول على دجاجة أخرى، غير أن المهمندار تدخل في الأمر لأن شرفه وضع على المحك حيث إنه كان مسؤولاً عن إعاشتي مجاناً من جميع الوجوه، عدا الريح الذي كان ينتظره لنفسه، ولذلك استرجع الدراهم قسراً من العجوز صاحبة الدجاجة وأعادها إليّ. وقد بدأت، محاولات عدة لتسوية المشاكل بشراء ما كنا نحتاجه، لكن الدراهم وإن كانت تقدم بصورة سرية فإن الناس كانوا يخشون المهمندار بحيث يأبون تسلمها. وأخيراً، فبعد أن تم اعتصار كل ما يمكن استخراجه كانت الطريقة الوحيدة التي كان يترتب عليّ اتباعها لتحاشي لعنات المجتمع المنهوب هو أن أبعث أحد الخدم سرًّا خلال الليل إلى دور المتضررين فأدفع لهم قيمة ما كان يؤخذ منهم مع إضافة قليلة. وكنت أعتمد في ذلك على نزاهة خادمي – وهو اعتماد قد يكون في غير محله بلا شك. لكنني لم يكن لدي وجه آخر للاختيار، وأعتقد أنه لا بد أن يكون قد نفذ ما كنت أعتمد عليه فيه جزئيًّا على كل حال لأن معظم الناس جاءوا، حينما كنت أهم بالركوب في صباح اليوم الثاني، يودعونني بوداع حار وتمنيات طيبة.

كفري ٤ تشرين الثاني

ومن زالة، المكان الذي أرخت به كتابي الأخير، أوصلتني مسيرة اثنين وعشرين أو أربعة وعشرين ميلاً إلى إبراهيم خانجي إحدى القرى الكردية التابعة لرئيس من رؤساء الكرد، حيث كنا سنقضي ليلتنا. وقد أدت بنا الأميال الخمسة أو الستة الأولى من طريقنا إلى بقعة صخرية فريدة لم أر مثلها قط. لكن مقدار العشب الذي نبت برغم ذلك في الربيع والصيف كان شيئاً مدهشاً. فلا يزال قسم منه نابتاً حتى الآن، بينما ترك القسم الأعظم منه بعد أن أشعلت فيه النار فسحاً كبيرة من سطح الأرض وهي سوداء، مرقطة بالأحجار الرمادية.

ثم صعدنا بعد ذلك جبلاً كثير الصخور يعلو إلى ارتفاع غير يسير، وهو آخر موقع ذي أهمية يحجز بيننا وبين دجلة. وقد كان أجرد من كل شيء عدا بعض العشب، لكن شجرة عظيمة من أشجار البلوط كانت تنشر ظلها فوق

قمته، وهي لا بد أن تكون آخر ما بقي من غابة كانت تغطي هذه الجهات بأجمعها في يوم من الأيام. وهذه الشجرة مدينة في بقائها لتقليد من التقاليد لا يمكنني تفسيره - إذ ربما يكون أساسه قد ضاع بمرور الزمن. لأن جل ما يمكن معرفته اليوم في هذا الشأن هو أن المسافرين الذين يأوون إلى ظلها بعد صعود متعب سرعان ما يزول عنهم التعب وتدب فيهم القوة لمتابعة المسير. وقد كانت محاطة بجدار من حجر، ويطلق عليها «دور المنده».

وعلى بعد عدة أميال من الممر الصخري الذي نزلنا هذا الجبل منه وقفنا لنتناول فطورنا في قرية كردية حقيرة تسمى جان ريز، حيث يسكن سليم أغا رئيس أكراد الدلو[1] من فروع البابوات في السليمانية. وحينما أشرفنا على القرية لاحظنا وجود رماح وخيول مسرجة، ثم وجدنا عند وصولنا أن البك كان يعد العدة للخروج إلى الصيد لأنه كان محاطاً برجال الحاشية المجهزين للركوب، والذين كانوا يمسكون عدداً من كلاب الصيد (السلق) بأربطتها، ويحملون فوق قبضات أيديهم الصقور الملفوفة رؤوسها بالغماء.

وقد حصلت لنا كلمة قالها الدليل، الذي تقدمنا بعدة ياردات، على ترحيب معهم بالمجاملة من هذا الرئيس الذي كان شخصاً محبوب المظهر، يتجاوز منتصف العمر، بلحية يختلط فيها الشيب وتقاسيم تدل على قوة معتدلة. ثم استنكر الاعتذار الذي تقدمت به عن تطفلنا عليه واعتراض سبيل خروجه إلى الصيد. وحلف برأس الپاشا وعيونه هو بأنه يرحب بنا ألف مرة لا مرة واحدة. على أنه تأسف لأن معدات الراحة عنده غير كافية، وطعامه غير مناسب بحيث إنه يخجل من الاحتفاء بنا بهذه الوسائل. حيث قال «لكننا نحن الأكراد أناس خُشُن نعيش في السهول والجبال وليس عندنا في أي وقت من الأوقات ما نفاخر به، والآن فإن القليل الذي كان عندنا قد زال - فنحن ما بين أمير أو پاشا ننشد

(١) جاء في النص ١٧١ من كتاب العشائر العراقية (ج ٢) أن الدلو يسكنون في أنحاء كفري وأنحاء خانقين... ومنهم بيت البيرقدار، كان رئيسهم يحمل بيرق البابان والآن هذا البيت في أنحاء الصلاحية (كفري).

رغيف الخبز.» ثم مضى يقول هو يأخذ قطعة من الخبز الأسود الذي وضع بين أيدينا على الصينية مع شيء من اللبن «انظر ماذا نأكل، فنحن وخيولنا نقتات على الشيء نفسه. لقد كان بوسعنا من قبل أن نقدم لضيفنا رغيفاً من خبز القمح، لكن ذلك العهد قد انتهى وعلينا أن نقنع الآن بالرخيص».

واستطرد بعد ذلك يقول في نفس الموضوع الذي كنت أحاول إخراجه منه بأسئلة أوجهها له، أو بعلامات الاقتناع والعطف «فقد كنا نحن الأكراد في زمن من الأزمان جنوداً أقوياء، ولم نكن نفكر بغير الركوب والتدرب على الحرب بالسيف والرمح، وبالصيد والبزدرة، وما أشبه من الألعاب. لأننا كان عندنا ما يكفي لمعيشتنا وكان فلاحونا يزرعون الأرض لنا، لكن كل رجل منا مضطر اليوم لأن يضع السيف والرمح جانباً وينصرف إلى «الجفت» (أي الثورين لسحب المحراث). وما هو نفع الجندي يا سيدي حينما يأخذ بمباشرة المحراث؟ لكن الإيرانيين والپاشا يتمادون في مطاليبهم كلها، فماذا تكون عاقبة ذلك - لا يبقى للفلاح سوى أن يلتجيء إلى الفرار والذهاب إلى راوندوز وكرمنشاه أو الموصل أو أي مكان آخر بدلاً من أن يبقى حيث لا يستطيع تحمل إخوانه - ولهذا تخلو البلاد من سكانها كما ترى.»

وقد كان البك كثير السؤال على الأخص عن الإنكليز والروس مع أن جهله بالفريقين كان شديداً جدًّا، فتركه وهو ممتن من زيارتي له على ما آمل. لأنني بعد أن أشبعت رغبته بالبرهنة على قوة أسلحتي النارية، وخاصة مسدساتي الصغيرة التي كان يحتقرها إلى أن شاهد مفعولها وتأثيرها، قدمت له هدية من بعض المصنوعات الإنكليزية التي استأثرت بلبه إلى حد كبير، ثم افترقنا ونحن أحسن الأصدقاء.

فقلت لدليلنا عول خضر أغا حينما ابتعدنا «إن هذا الرجل المدني، هذا الأغا الذي استقبلنا بمثل هذا الاستقبال الحار، ورحب بنا مثل هذا الترحيب - لو فرضنا أننا لم تكن معنا أنت ولا أي دليل آخر من السليمانية، والتقينا به وبقافلته في البادية، فإنه لا أظنه كان سيتورع عن مهاجمتنا وسلبنا لو كان بوسعه أن يفعل ذلك؟» فأجاب وهو يضحك بملء شدقيه «أقسم برأس سليمان پاشا،

وبرأسك يا سيدي أنك تعرف هذا الرجل كما أعرفه أنا على ما يبدو، وقد أصبت كبد الحقيقة. إن سليم أغا هو ابن بجدتها والرجل المعد لهذا العمل. فهو عمل الحاجة يأكل الخبز معك باعتبارك ضيفاً عنده وبعد أن يودعك بكلمات مثل «خوش أمدى وخدا حفيظ» يعمد إلى لف لحيته وتبديل لفته ويتنكر هو ورجاله بحيث لا تستطيع معرفتهم ثم يركب فيقطع الطريق عليك ويسلبك إلى حد العري ثم يتركك. إنه أشد الأوغاد شرًّا في كردستان وأكثر الأوباش فقداً للضمير، إن هذا الرجل يا سيدي سلب النساء وتركهن عرايا هائمات في الصحراء.»

ثم سألته قائلاً: «هل يعد هذا شيئاً شائناً حتى في كردستان؟» فأجابني الدليل يقول: «إن هذا شائن عندنا بحيث إنني لا أعرف الكلمات المناسبة لوصفه. لكن سليم أغا هذا هو حيوان لا حياء له ولا شعور. فإن عنده تحت تصرفه حوالي أربعين أو خمسين خيالاً، يستخدمهم في قطع الطريق بحيث يتعذر على القوافل وزوار كربلاء القادمين من إيران المرور منه. وهو يجرد جميع من يقبض عليهم من كل ما يملكون.» فسألته: «ولكن ماذا يقول الپاشا في كل هذا؟ ألا يعتبر الأغا من خدام سموه؟» «على وجه التأكيد» أجاب عول خضر أغا «وأن الپاشا لا بد أن يحرق أباه إذا فعل مثل هذه الأشياء، ولكن ماذا أقول يا سيدي؟ إن الپاشا عنده ما يكفي من المشاكل في بلده - إننا لا نحتفظ بالحاكم في منصبه مدة تكفي لأن يصبح قويًّا بحيث يستطيع المحافظة على الهدوء التام والسكينة، ولذلك لا يسعنا سوى أن نبذل جهدنا على كل حال. ولكن سليم أغا هذا أشد الأنذال خبثاً، ألم يرك ذراعه يا سيدي؟ إننا نقول هنا بأن ذلك كان عقوبة من الله جوزي بها على صنيعه الشائن».

وبعد ذلك قلت له «حسناً ولكن رستم أغا الذي سنذهب إلى بيته هذه الليلة إن شاء اللّه، أي نوع من الرجال يمكن أن يكون؟ هلا يفعل مثل ما يفعله سليم أغا- ألا يسلبنا هو أيضاً إذا تمكن من ذلك؟» فأجاب يقول «هناك شيء من هذا القبيل في الحقيقة يا سيدي. إنه رئيس قبيلة الزنكنة[1]، ولكنه وللّه

---

(١) جاء في النص ٣٥٨ من كتاب الشرفنامة للبدليسي (حاشية المترجم الملا جميل =

الحمد من خدام سليمان باشا. ومع هذا فإنه سيوصلك سالماً إلى كفري إن شاء الله». فرددت عليه بقولي «إن شاء الله، إن شاء الله، ولكنني لاحظت من هذا كله أن كل رئيس من رؤساء الفروع القبلية هؤلاء يعمد إلى اللعب بنفس اللعبة في هذه البلاد». فأجاب «آه بارك الله سيدي، لقد قلت الحقيقة، ولكن هذا لم يكن كذلك دائماً في أيام عبد الرحمن باشا والد سليمان باشا ومحمود باشا، فلم يكن يحدث في أيامه أي شيء من هذا. فقد كان من الممكن لك أن تسير والجواهر فوق رأسك والذهب في يديك من أول الپاشوية إلى آخرها، أي من سرادشت إلى كفري ومن كوي إلى بانه من دون أن يسألك أحد عن أي شيء. إن الدنيا كانت هنا سلام عليكم، وعليكم السلام. ولكن النزاع بين الأخوين هو الذي جر الخراب على البلاد وأنزل بها البلايا. فمرة محمود ومرة سليمان من دون أن يبقى أحدهما أكثر من ثلاث سنوات. وبعد ذلك تدخل العجم لتسوية النزاع فأخذوا البلاد لأنفسهم وأكلوها هم وجيشهم. ثم جاء على أثرهم الطاعون، والمجاعة، فعملاً معاً على استئصال شأفة الناس وإبقاء الأعداء لنا. وأصبح الحال بحيث إن السرقة حينما تقع يتهم بها كل فريق الفريق الآخر، أي خصمه. فخدام سليمان ينسبون انتهاك الحرمة لخدام محمود. بينما يرد خدام محمود عليهم بأن يعزوها إلى رجال سليمان. أما الحقيقة فهي أن الپاشا لم تبق له لديه القوة اللازمة لمعاقبة من يجده مذنباً أو يقترف خطأ، ولا للسيطرة على من تحدثه نفسه بالشر، لأن الإيرانيين يلتهمون كل شيء يمكن ان يقع في قبضة أيديهم وبذلك يضطر الرجال النزهاء إلى الهرب فتبقى البلاد للصوص».

ولم يكن هناك ما يقال ضد هذا الكلام الصريح الصحيح، ولذلك غذذنا السير إلى قرية إبراهيم خانچي[1].

= روزبياني): وتقطن هذه العشيرة اليوم منطقة زنكنة المعروفة باسمها في ناحية قادر كرم، ويبلغ عدد أسرها (٨٠٠) أسرة يقطنون ٤٥ قرية تقريباً. وكان رئيسها عام ١٨٣٤م رستم أغا واليوم عبد الكريم وآخرون.

(١) وهي مركز عشيرة الزنكنة.

وقد كنا الآن في وسط آشور القديمة تقريباً، التي كنا في الحقيقة قد دخلناها حينما اجتزنا الفتحة الأخيرة التي نزلنا فيها إلى سهل السليمانية. والحق أن البلاد لم يكن فيها ما يدل في الوقت الحاضر على أنها كانت مركزاً للامبراطوريات قوية الشكيمة. فإن هذه القمم الجرد وتلك الوعورة التي تخترقها الوهاد الجافة فتمتد من حولنا إلى بعيد أو قريب لا يمكن أن تكون قد كانت يوماً ما مسرحاً للحوادث الجسام التي ينسبها التاريخ إلى امبراطورية سميراميس وأخلافها حيث كان عدد لا يحصى من المتحاربين يتقاتل من أجل النصر والممتلكات المترامية الأطراف.

ومهما كانت المزايا التي كان يتحلى بها أولئك المحاربون الآشوريون، فإننا وجدنا أخلافهم قساة خشن الطباع مثل المناطق التي يعيشون فيها. فقد كانت إبراهيم خانجي، القرية التي يسكنها رستم أغا، عبارة عن مجموعة تتألف من حوالي مئة كوخ مبنية من الطين والحشيش. أما الديوان خانة، كما كانت تسمى، التابعة للرئيس التي أدخلنا إليها فقد كان بناؤها واهياً بحيث إنني توقعت أن ندفن بين أنقاضها إذا ما هب شيء من الريح أو سقطت مزنة من المطر خلال الليل. وقد استقبلنا ابنه الذي كان حدثاً لطيفاً لكنه كثير الفضول قليل الخجل، له مثلهم جميعاً أصابع كصنارة صيد السمك يضعها فوق كل ما تصل إليه يده. ثم جاء رستم أغا نفسه في المساء وهو رجل خفيف الروح طلق المحيا ذو سحنة سمراء داكنة ووجه مدور وضحكة لا مبالية، فاستقبلنا بمجاملة تهويشية صاخبة. وقد كان من أولئك الشرسين الذين يكونون في أحسن حالاتهم حينما لا يعاكسهم أحد، كما قالت الممرضة السكوتلاندية عن طفلها المدلل فهو يبتسم دائماً عندما يكون على سجيته، ويقطب حاجبيه حالما يستاء من أحد.

فكنا متحفظين لدرجة ما في باديء الأمر، ولما كنت أحاول دوماً التوفيق بيني وبين الناس في كل المناسبات على قدر ما يمكن، فسرعان ما تم التفاهم بيننا ودخلنا في حديث ودي. لكن ذلك بدأ بشكل غريب. فحالما انتهينا من التعارف والمجاملات المطلوبة دعا خادمي الذي كان واقفاً في

داخل الغرفة فسأله: ما اسمك؟ ومن أين أنت؟ وكم صار لك في معية الصاحب؟ وهل يدفع لك أجراً أو أن أحداً بعثك معه؟ وهل أنت سعيد في خدمته؟ وبعد أن أجيب على جميع أسئلته هذه أضاف قائلاً بلهجة حازمة «أي المسدسات يملك سيدك؟ اءتني بها» فأشرت له بأن يأتي بها، وسرعان ما أصبحت بين يدي الأغا. وعندما رأى أن الطبنجات لها عدتها الخاصة رماها جانباً بازدراء وهو يقول «إني أعرف هذا النوع من السلاح، فإن اثنين من طائفتك جاءا إلى هنا قبل مدة من الزمن فقدما لي زوجين منها لكنني أبيت أخذهما، فأي نفع فيهما لي؟ إني أريد مسدسات من هذا النوع وأخرج مسدسين جيدين من مسدسات مورتيمر المزدوجة، لكنهما كان متآكلين من الاستعمال. ثم قال «فلو كان عندك من هذه لأخذتها منك، لكن مسدساتك هذه عديمة الفائدة. والآن قل لي هل لديك أشياء أخرى؟ إن الأشياء التي أنا مغرم بها هي المسدسات والشال والستر مثل هذه» وأشار إلى سترته التي كانت من القماش القرمزي. «هل عندك شال كشميري مثل هذا؟ انظر» قال هذا وهو يشير إلى شال قديم مطرز بالفضة فوق رأسه. فقلت له ان السياح الذين يمرون من هنا في طريقهم إلى بغداد لا يكون عندهم مثل هذه الأشياء عادة. والحقيقة أنني لا أملك الآن سوى فراشي وملابسي الخاصة. فرد عليّ قائلاً «لا شيء، انظر هذا بعض ما أعطاني إياه الإفرنج الذين حدثتك عنهم» وأخرج سكينة «سپورت» من صنع إنكليزي.. ثم ابتدرني قائلاً «حان وقت الصلاة، يجب عليّ أن أصلي» وفرش السجادة على الأرض بجنبي وبدأ بصلاته (نماز).

وأخيراً انتهى منها والتفت إليّ. وكنت في هذه الأثناء قد أخرجت سكيناً كبيراً كنت قد خصصته لاستعمالي أنا أثناء السفر، فقدمته له باعتباره سلاحاً ذا فائدة كبيرة في القتال والسلم، وهو من أحسن مصنوعات إنكلترة. فتقبله بلطف وبشاشة ولاح لي أن أساريره قد تفتحت بعض الشيء، لأنه أصبح ينكت ويمزح.

ثم تطرقنا إلى أحاديث كثيرة من هذا القبيل، وقد توصلت منها إلى أن البك كان يعرض بالهدايا على الدوام. فقد أشار عدة مرات إلى ما كان قد

أهدي له من السياح الآخرين. ولما كنت راغباً في تكوين أصدقاء كثيرين على قدر ما يمكن لفائدة الذين قد يمرون بعدي من هنا اغتنمت فرصة تذمره من مقص إيراني كان يحاول عبثاً أن يقص به قطعة من الورق، فأهديه مقصًّا إنكليزيًّا ممتازاً. فزاد هذا في مقدار ما كان قد سببه عنده السكين قبلاً من الرضا والسرور، وأخذ يثني بكثرة على الإنكليز وسلعهم الممتازة. ثم تطرقنا في حديثنا إلى أكل لحم الخنزير وتناول المسكرات وأوجه تحريمها، وإلى موضوع الأشباح والأرواح الخبيثة فكان البك غير ملم بشيء عنها. غير أنه مع ما كان عنده من خشونة طباع وعادات افتراسية نهابة كان يؤمن إيماناً غير يسير ببعض الخرافات، وهذا شيء شائع بين أهل المكر وقطاع الطرق.

والظاهر أن يوم التوبة، بالنسبة للنهب وسفك الدماء، لا يزال بعيداً عند رستم بك. فقد أسهب في وصف المعارك التي خاضها ومقدار السلب الذي حصل عليه بحماسة وحرارة كانتا تدلان على مقدار الخبث والشيطنة المتأصلين فيه. ثم قال لي إنه كان قد جرح عشر مرات على الأقل برغم أحسن الدروع التي يملكها. وهو يقول «عندي دروع من كل نوع، وقد كنت أستعملها على الدوام، لكنني تعلمت أن لا أعتمد عليها إلا قليلاً بل أعتمد على الله وحده». وقد ضم صوته للآخرين في ندب الأيام السود التي حلت بالعنصر الكردي. فهو يقول «إن أزمنة الأكراد الذهبية قد ولت. اركب وتجول في البلاد فأية روحية وأية حيوية تجد فيها؟ إن جميع الخيالة الماهرين والرجال الشجعان قد قضوا نحبهم. أو هربوا إلى بلاد أخرى، أو تسلموا المحراث اضطراراً للحصول على المال الذي يدفع للباشا ولإعالة الزوجات والأطفال. وأي نفع يبقى في الجندي حينما ينصرف إلى المحراث يا ترى؟» فصدقته على ما قال حول زوال أمارات الرفاهية والازدهار من البلاد، لكنني قلت له ان الناس كلهم على ما يبدو لم ينصرفوا إلى المهن السلمية وتبرهن على ذلك أخطار الطريق. فأجابني يقول «إن هذا بسيط، إنها ليست سوى بعض حوادث للسرقة والنهب هنا وهناك، فلا وجود الآن لعصابات الخيالة الباسلة. لكني أرجو أن تطمئن بأنني أنا رستم بك أتعهد بضمان سلامتك، وسوف لا يمسك أي شيء ما بين هذا المكان وكفري. أنت رجل طيب ممتاز، وإني أودك وأقدرك حيث

أنك لا تشبه البعض من أهل بلادك الذين قابلتهم قبل هذا، ممن لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً سوى الأكل والنوم، إن عيونك مفتحة وعندك ذوق. اطمئن، فسوف ترى كفري سالماً يوم غد».

ولا شك أنك قد عرفت الآن ما يكفي عن رستم أغا. لقد أغريتُ على وصف شخصيته والكتابة عنه بشيء من التفصيل لأنه نموذج ممتاز للرئيس الكردي المتوحش. وقد زودنا في صباح اليوم التالي بدليل للطريق ورسالة إلى كفري، مقسماً فيها بعيونه وبحياة ضيفه نفسه بأن لا تمس ولا شعرة من رأسي في أي مكان تكون فيه كلمته مسموعة. وهنا كذلك سوف أترك التحدث عن أصدقائنا الأكراد الخُشُن الذين ربما تكونون قد مللتم من تحدثي عنهم. فهم مثل سائر الأمم والرجال مخلوقات من نتاج الظروف والتثقيف، لكنهم يتصفون بصفات قومية خاصة يمكن أن تتحول إلى الاعتبار الصالح. فإنهم شجعان وأصحاب ضيافة إلى حد معين، لكن الصفة الأخيرة قد تضاءل شأنها في السنين الأخيرة إلى حد مؤسف بسبب الفقر والجور. وهم مثل معظم الأقوام التي تعيش عيشة الرعاة وتحكم بحكم شيخي معروف يتميزون بحب قوي للأهل والعشيرة، مما يجعلهم شرسين عنيفين في تخاصمهم وتشاجرهم. فيتبنون الضغينة والثأر الناشيء عن الإساءة الحاصلة لقريب من الأقارب ويطورونها بسلسلة من القتل الخالية من الرحمة والضمير. وهم وإن كانوا بعيدين بطبيعتهم عن القسوة فإن هذه الضغائن، وتولعهم بشؤون القتال والنشاط الحربي، تميل بهم إلى ان يصبحوا تحت رحمة الطيش في سفك الدماء وتؤدي بهم إلى أن يضعوا حياة الإنسان من حيث الاعتبار في مستوى أحط من المستوى الذي توضع فيه في البلاد المسالمة. ومع ذلك فإن حروبهم تكون غير مميتة وإن نفس الشعور بالعواقب غير المتناهية المتأتية عن سفك الدماء يعمل على كبح عواطفهم كبحاً ناجعاً حينما يكون مجرد الشعور بالرحمة أو الحس الأخلاقي بفظاعة الجريمة أضعف من أن يستطيع الحيلولة دون وقوع القتل. وهكذا تكون الحالة في الحقيقة بين القبائل نصف المتوحشة، حينما ينعدم وجود قوة مهيمنة عليا تستطيع ممارسة السيطرة المطلوبة. وإذا ما أراد المرء أن يكوّن فكرة قريبة إلى ذهنه عن الأكراد أو التركمان أو حتى العرب،

من حيث النزاع والتعامل الاجتماعي، فعليه أن يتصور ما كانت عليه الحالة في مرتفعاتنا السكوتلاندية قبل قرنين من الزمن.

أما بالنسبة للأشخاص فإن الأكراد فعالون وأقوياء، ولا يختلفون إلاَّ قليلاً من حيث الأساس عن جيرانهم الإيرانيين. غير أن قسمات الوجه القومية لها شكلها الخاص البارز بصورة تلفت النظر. فهيئة التقاطيع حادة، وشكل الوجه بيضوي، والصورة الجانبية تلفت النظر من حيث بروز عظام الأنف وتقهقر الفم والذقن، الأمر الذي يسبغ على الشكل العام شكلاً نصف دائري، أما العيون فمتأصلة بعمق، وهي غامقة اللون، سريعة ومدركة. ويكون الحاجبان كثين واضحين لكنهما يميلان قليلاً إلى الوراء لتكملة الشكل المفروض للصورة الجانبية. أما شكل التقاطيع العام فهو أكثر دقة ونحافة منه عند الإيرانيين الذين يكونون في العادة أقوى بنية من الأكراد. ومن النادر أن تجد الأنف الأفطس في كردستان. ويكاد يكون الفم كامل التكوين، بأسنان لطيفة دقيقة. وتكون الأيدي والأصابع صغيرة ونحيفة. هذا ويمكن أن نقول باختصار ان هناك شيئاً من الرشاقة والانسجام في الشكل الكردي، الأمر الذي يجعل منهم أمة وسيمة مليحة ما بين أمم العالم الأخرى.

وتنطبق نفس النقاط على النساء أيضاً، بقدر ما تدل عليه الملاحظات التي أمكنني التوصل إليها، فهن حينما يكن شابات جميلات للغاية، لكنهن حينما يتقدمن في السن أو حتى عندما يصلن إلى دور النضج فإن بروز التقاطيع الحاد الذي يتميزن به مع الرجال يبتعد بهن ابتعاداً أكيداً عن حد الجمال، وسرعان ما يبدو عليهن الكبر والذبول. فقد أتيحت لي فرص عدة لملاحظة هذه التفصيلات فيهن لأنهن لا يتحجبن كما تتحجب النساء الإيرانيات، وغاية ما يصنعن من هذا القبيل هو أن يسحبن المنديل الذي يغطين به رؤوسهن إلى حيث يحجبن به الفم والذقن عن النظر. لكنني آسف لأنني لم أتمكن من متابعتهن إلى داخل البيوت حيث أستطيع وصفهن في عملهن البيتي. على أنني عندي، بالنسبة لما أعرفه، ما يحملني على الاعتقاد بأنهن في حياتهن، وواجباتهن، وأعمالهن، يشبهن نساء القبائل الإيرانية شبهاً قريباً من جميع



كفري في ١٨٢٧م

الوجوه. لكن نساء الطبقة الموسرة التي تعيش في المدن يبقين في حرم أزواجهن أو آبائهن، ويتحجبن حينما يخرجن إلى الخارج.

ها قد وصلنا كفري بعد أن اجتزنا حوالي اثنين وعشرين ميلاً من البلاد المقفرة غير المهمة، التي كانت تشبه إلى حد كبير المرحلة الأخيرة من الطريق، سوى أن السهول أصبحت أكثر اتساعاً هنا بالنسبة للمناطق المرتفعة، لكن الحريق العام الذي تعرضت له على ما يبدو يسبغ على وجه الأرض كله مظهراً كريهاً. ولم نجد كذلك أية قرية من القرى في طريقنا كله. على أننا كنا غير راغبين في مشاهدة أي نوع من البشر، فليس من المحتمل أن يكون الناس الذين نصادفهم في هذه الأوعار ممن يمكن مصاحبتهم أو السير معهم.

وتقع كفري في مدخل فتحة تتفتح في سلسلة من الجبال الواطئة،

الجرداء بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى. فهي تتألف من قمم طبقات بارزة جدًّا ترتفع فوق السهول وكأنها قد أتلفت بالنار الفطرية منذ الأزل. لكن البلدة نفسها، المسورة بسور يدور حولها، كانت تبدو بمظهر مغرٍ حينما ينظر إليها من الفتحة التي أدت بنا إليها. وكانت أشجار النخيل المرتفعة إلى ما فوق السور، وهو أول نخيل يقع نظرنا عليه، تشعر الجميع بدخولنا إلى «عربستان»[1]. كما كان التبدل في الأزياء ومظهر الناس يؤيد بأننا أصبحنا الآن في داخل الممتلكات التركية.

هذا وقد وجدنا طريقنا إلى دار عرفنا أنها أعدت لتكون منزلاً لنا، وكان يجلس خارجها فوق بعض السجاد عدد من العثمانلي المتزمتين الذين رحبوا بنا بإشارات تدل على المجاملة، ولكن بكلمات معدودة. وكان الخدام من



من أبواب السور - الواجهة الداخلية

(١) لا شك أنه يقصد بذلك بلاد العرب لا (عربستان) المعروفة في جنوب إيران.

الأتراك، كما كان كل شيء من حولنا يشير إلى التبدل الذي حصل في البلاد والناس. ولأول مرة في هذه الرحلة لم يحصل اختلاف هذا المساء حول الشعير والتبن للخيول، أو الزاد المقدر لنا. فقد كان كل شيء مهيأ لنا بالتمام وبكامل الحرية، من دون كلام أو سؤال. على أنني لاحظت أن عادة واحدة فقط كانت تبعث على الاشمئزاز، فإن الخدم بدل أن ينتظروا ما يمكن أن تقدمه لهم على سبيل المجاملة عند الخروج، يهجمون عليك كلهم مرة واحدة ليطلبوا، لا ليستجدوا، البخشيش. وقد كان حتى السجان في هذه الحالة مع المطالبين به، ولا أدري على أي أساس كان يستند في ذلك، فوجدت أن الطريقة الوحيدة لمعالجة الوضع أن أعطي في الحال ما أراه كافياً وأرد بعد ذلك أية طلبات أخرى.



(٣)

تحركنا من كفري - قره تبة - أخطاء الطريق - جبل حمرين - ادين كوي وجهانكير أغا - الأدلاء العرب - منازل العرب - قلق - آثار الازدهار القديم - هبهب - دراج البادية - سهل بغداد - خبر غير سار - بغداد في حالة حرب - التوقف في الباب - الوصول إلى المقيمية.

بغداد - ١٣ تشرين الثاني ١٨٣٤م

ها قد وصلنا أخيراً يا عزيزتي - إلى مدينة بغداد العظيمة، عاصمة الخلفاء - عاصمة هارون الرشيد وزبيدته الجميلة - ومقر جعفر البرمكي، ومسرور رئيس الخصيان، وجميع الرجال مثل أبي الحسن وعلي خوجة، والسيدات والحمالين، والمفتونين والمفتونات الذين تتحدث عنهم «ألف ليلة وليلة». فوا أسفاه، كيف عفا عليها الزمن. لكننا لنتمهل قليلاً ولا نتحدث عن الأشياء قبل أوانها.

فقد زودنا مضيفنا في كفري سليم أغا بدليل إلى المرحلة التالية، لكنه أوصانا بإلحاح أن لا نبدأ برحلتنا قبل الصباح، ولذلك لم نتحرك قبل بزوغ الفجر. والحقيقة أن هذه المرحلة كانت مرحلة خطرة، لأن الطريق بالنظر لوقوعه على الحدود بين الأكراد والعرب تماماً كان يتعرض للسلب والنهب من الفريقين معاً، ويصعب اكتشاف الفاعلين فيه. وقد كنت أنتظر أن يتصدى لنا في الطريق صديقانا القديمان سليم بك ورستم أغا، لأنهما وقد خرجنا من منطقة نفوذهما ربما كان يروق لهما أن يقوما بفحص أدق لعفشنا وكراعنا. إذ كانت هناك عدة أماكن مناسبة للكمين، وخاصة قاع النهر الملأى بالقصب وبعض الوهاد المنتشرة في سلسلة الجبال الواطئة التي كان يتحتم علينا

اجتيازها. ولذلك طلب إلينا دليلنا أن نعد أسلحتنا النارية للاستعمال ونركب بحذر. على أننا استطعنا الإفلات، كما تم لنا في عدة مناسبات من قبل، فوصلنا قرة تبة وهي قرية صغيرة كثيرة الأوساخ بعد مسيرة عشرين ميلاً. وقد ثبت أن الحيطة التي أوصانا بها مضيفنا في كفري كان لها ما يبررها، فقد سلبت قبل أسبوع أو عشرة أيام قافلة في النهر الذي أشرت إليه. وحينما سمع بها سليم أغا في كفري ركب بنفسه مع خمسة عشر خيالاً فلحق باللصوص وقتل ستة أو سبعة منهم ثم تم أسر عدد مماثل. ولأجل أن يبرهن لنا على ذلك، على ما أحسب، أرانا الحصان الذي ركبه حينما قام بهذا العمل الباهر. فكان كميتاً جميلاً يبلغ أربع سنوات من العمر، رفض أن يبيعه على ما قال لي بمئة تومان أو ما يقابل خمسين باوناً استرلينيًّا. وقد كنت أنا مستعدًّا لأن أدفع له ذلك المبلغ في الحال لو كان يوافق على التخلي عن ذلك الحيوان الأصيل.

وكان بودي في هذه الليلة أيضاً أن أبدأ بمسيرة طويلة، لكن علي أغا ضابط القرية صرح لي بأنه لا يستطيع أن يسمح لي بالتحرك قبل الصباح لنفس السبب الذي قدمه مضيفنا السابق - وهو انعدام الأمان في الطريق. فوفقت بين الرأيين بالركوب في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، لكننا تمنينا بعد ذلك لو تأخرنا في الركوب إلى بزوغ الفجر برغم المسافة التي قطعناها. لأننا ما إن ابتعدنا عن القرية مسافة نصف ميل حتى علمنا أننا قد نسينا رزمة من أمتعتنا فبعثنا خيالاً ليأتينا بها. وحينما استفسر عنها في المنزل الذي كنا فيه أنكر صاحبه كل علم بها، لكنه أضاف قائلاً: «إن عشرة من الخيالة مروا بقرب الباب بعد أن تركتم المنزل، وربما كانوا هم الذين أخذوا الرزمة». وحينما سأله بخوف ووجل «من أين أتوا وإلى أين توجهوا؟» أجابه قائلاً: «لا أعرف ذلك، لكنهم كانوا يتعقبونكم على ما يبدو».

فكانت هذه أخباراً غير سارة، وكان لها تأثير مخدر واضح على دليلنا الذي بادر في الحال إلى الانحراف عن الطريق الاعتيادي وقادنا لأكثر من ساعة واحدة خلال سهل مكشوف كان على كل حال خالياً من العوائق بحيث تقدمنا في المسير من دون صعوبة. على أنه وقف أخيراً وقال: «يجب أن تكونوا على

علم بأنني حتى الآن أقودكم في طريق فرعية، ولا بد لي أن أقول لكم الآن بأني لا آمن أولئك الخيالة الذين شوهدوا وهم يتعقبوننا في القرية. ولو كان هؤلاء من الأعداء فهناك مكان يتحتم علينا عبوره بعد قليل ويمكنهم أن ينتظروننا فيه - يجب علينا أن نجتازه في وضح النهار. ولذلك أعتقد أننا ينبغي ان ننزل هنا بهدوء حتى يبزغ الفجر، انزلوا رجاء وناموا - لا تتكلموا ولا كلمة واحدة، والله هو الموفق! ربما نستطيع أن نفلت». وهنا تدخل خدامي فتسلموا الحديث بلهجة التبجح الإيرانية المعتادة: لماذا نتوقف فنضيع الوقت؟ لماذا نعبأ بالأكراد أو العرب، كلاب! حيوانات! من هم هؤلاء حتى يستطيعوا إيقافنا؟ دعهم يجربون لنعلمهم أن هناك إيرانيين، رجالاً يستهينون بحياتهم في سبيل حماية سيدهم. من يكن أولئك العرب حتى ولو كانوا عشرة أو عشرين؟ گورى بيده ريش! وغير ذلك. لكنني لاحظت أن الدليل كان متخوفاً في الحقيقة، فأسكت هذه الفورة البطولية وعلى هذا الأساس بقينا في مكاننا ساعة كاملة من الوقت فكانت ساعة شديدة البرد ومزعجة.

وبعد انقضائها خطرت للدليل فكرة جديدة في الموضوع، أو تشجع بتوفيق من الله، فوافق على متابعة السير وفعلنا ذلك محاذين نهراً صغيراً ذي عمق غير يسير كان يجري في مجرى كثير التعرج. وبعد قليل مررنا بمنزل، من منازل العرب، ومن حسن حظنا أنه كان يقع في الجانب الآخر من النهر. فهاجت كلابه مكوّنة جوقة هائجة من النباحين، لكننا لم يقلقنا أي شيء آخر. وقد قضينا فترة شاقة متعبة حتى طلع النهار، وعندئذ عبرنا النهر وسرنا في طريقنا إلى بقعة التلال المنخفضة التي كانت تحد السهل في هذا المكان. فكانت هذه تلال حمرين التي تعد فرعاً من جبل حمرين الذي يمتد من كردستان حتى يتصل بسلسلة گودريان. وقد انتهى ركوبنا الطويل الشاق خلال الوهاد الجافة المعقدة، التي كانت تتخلل هذه التلال، بمسيرة لقينا فيها نفس المقدار من المشاق خلال سهل واسع منبسط، يمتد من سفحها إلى دجلة وعلى طول ضفافها إلى خليج البصرة. لأننا الآن قد تخلصنا من آخر الحدود الصخرية وأصبحنا في السهل الرسوبي غير المنقطع الذي يتكون من دجلة

والفرات. فبان في الأفق البعيد خان دلي عباس والنخيل المحيط بعدة قرى أخرى، فلوينا عنان خيولنا نحو الجهة الشمالية منها.

فتبين أنها أدين كوي[1]، وهي قرية جميلة جعلنا منزلنا فيها لتلك الليلة في دار الضابط العجوز جهانگير خان، التركي النزيه المضياف. ولم نكن مقيدين هنا بالطعام اللازم للبشر والخيل على حد سواء، لأن خدامنا كان لهم مطلق الحرية بأن يأخذوا ما يشاؤون منه لهم ولحيواناتهم. وأمر الضابط أن تكون حصتي الخاصة من هذه الغنيمة شيئاً من الرز الفاخر. وقد كان جهانگير أغا هذا گرجيا بالولادة، وحينما كان فتى يافعاً أخذ أسيراً في أيام أغا محمد خان ثم ارتقى في خدمة عدد من الأسياد حتى أصبح في النهاية ملتزماً لهذه القرية التي يدفع عنها إلى الحكومة شيئاً يتراوح بين المئة تومان والثلاثمائة. وهو مثل غيره يتذمر من عناء الزمان وتعسف الحكومة في الابتزاز، لكن الحقيقة أنه لم يكن يعوزه شيء للراحة في بيته على ما يبدو وأن كل ما كان عنده كان مستعداً ليشاركه غيره به عن طيبة خاطر. وقد كان من الواجب المحبب إلى النفس أن يُبرهن لمثل هذا الرجل على أن السياح الإنكليز لم يكونوا ميالين إلى عدم تقدير الجميل الذي يعاملون به، فكانت الهدية التي قدمتها له من جراء ذلك تفوق حد التصور على ما أعتقد. ولا بد لي أن أقول هنا أن الأتراك حتى الآن قد فاقوا الإيرانيين، أو حتى الكرد، في معاملتهم للضيف من حيث المجاملة أو التحرر. على أن هناك نقطة واحدة كنت أود في بعض الحالات أن يتم إصلاحها. فهم يعتبرون من واجبهم في الضيافة أن يتكرّموا بالكثير من صحبتهم على ضيفهم، مما قد يكون شيئاً حسناً للغاية فيما لو كان الضيف يفهم لغتهم لأن ذلك يمكن أن يتيح الفرصة لحصوله على الكثير من المعلومات لكنه من سوء حظه، كما هي الحالة في قضيتي، أن يكون غير ملم بلغتهم فإن ذلك يصبح ثقلاً خطيراً عليه. لأن حضورهم يحول دون قيامه بإنجاز مختلف الأعمال التي لا بد له من اغتنام الفرصة السانحة لإنجازها.

---

(١) الأرجح أنها المنصورية الحالية في لواء ديالى.

وفي حالتي أنا، استطعت بواسطة خادم من خدامي الذي قام بدور الترجمة أن استخرج شيئاً من المعلومات من صديقي جهانگير أغا، الذي كان قادراً على تقديم المعلومات بقدر ما كان مجاملاً ولطيفاً. فقد تعلّمت شيئاً عن الطريقة الخالية من التبصر التي تتبعها حكومة بغداد في تأجير أراضي الباشوية، وتأيدت لي الفوضى، وما أدت إليه من تناقص في السكان، التي شهدت عليها أعيننا نحن وآذاننا منذ أن دخلنا في حدودها.

وهكذا كان رأي مضيفنا الكريم حول فوضى الطريق وأخطاره، حتى بالقرب من العاصمة، بحيث إنه رفض بتاتاً أن يسمح لنا بمتابعة السرى في تلك الليلة قائلاً إنه لا يسمح لنا بالسير قبل طلوع الصبح حتى ولو أُعطي ألف تومان عن ذلك، لأنني كنت كالمعتاد راغباً في التحرك حالما تكون قد ارتاحت خيولنا. فإن البلاد كلها على ما يقول قد اكتسحها العرب الرُّحّل، وإن السرى في الليل من دون دليل يعتمد عليه يعد ضرباً من الجنون. ولما كنا نعتمد عليه في إيجاد الدليل المطلوب، الذي يستحيل السير من دونه في مثل هذه الطرق غير المنتظمة، فقد تحتم علينا أن نذعن للأمر الواقع آملين فقط أن نتحرك في ساعة مبكرة من النهار.

على أن إيجاد الدليل كان على ما يظهر أمراً يسهل التكلم فيه ويصعب وضعه في موضع التنفيذ. فلم يحضر الشخص المهم الذي كان عليه أن يسير بنا في الطريق قبل السادسة والنصف. وكانت هناك مراوغة عربية حول الشخص الذي كان يترتب عليه الذهاب أو عدمه، مما لم أستطع إدراكه أو فهمه. ولكننا أخيراً بدأنا بالرحيل، وعلى بعد ميل واحد من القرية وصلنا إلى منزل من منازل العرب توقف فيه دليلنا ليحصل على خيالين اثنين منه يقومان بمرافقتنا للحماية، إذ بدونهما لا يستطيع التقدم في الطريق ولا خطوة واحدة، هكذا كانت أوامره، وقد ظهر الآن أن مضيفنا ارتأى من الأسلم لنا أن يكون مرافقونا من العرب لا من العثمانلي، وخاصة بالنسبة للرعب العظيم الذي كانت تشعر به البلاد في تلك الجهات من وصول جماعات كبيرة من الأعراب وضرب خيامها في الأراضي المنخفضة التي كانت تمتد بيننا وبين دجلة. وعلى

هذا ذهب دليلنا مع أحد خدامي للتفاوض في هذا الشأن مع الأعراب الذين اقتربنا من خيامهم، بعد أن تركنا راكبين على ظهور خيولنا بالقرب من أحد الجداول. وكان الأعراب جميعهم جالسين أمام خيامهم وهم يدخنون شطوبهم ويشربون قهوتهم، وفي باب كل خيمة كانت تقف مهرة جميلة مسرجة ومهيأة للطوارئ مع رمح صاحبها مغروزاً في الأرض بجانبها. وقد قيل لي إن هذا المخيم كان بوسعه تقديم أربعين أو خمسين خيالاً يعتمد عليهم. لكننا بعد أن مرت علينا ساعة كاملة بهذه الحال لم نستطع الحصول إلا على اثنين فقط منهم، إما لعدم الرغبة في مثل هذه الخدمة أو من جراء الكسل، فكان ذلك مضيعة للوقت تبعث على الانزعاج.

على أن مقدار التأخير قد جُعل على ما أحسب متناسباً مع العزة المنطوية في النتيجة - فقد عاد الخادم وبصحبته شيخان أو كبيران من كبار ذلك المخيم العربي، وتوجه أحدهما إليّ شاهراً رمحه بطريقة تهديدية وهو يقسم برأسه ويقول إنه سيوصلني سالماً إلى منزلي برغم كل ما يحدث في الطريق. فكان هذا كله شيئاً حسناً على ما يظهر، لكنني أرى أن الطمع في المكافأة المرتقبة هو الذي حدا بالشيخين أن يركبا جواديهما فيأتيان معنا.

فتابعنا السير بعد ذلك، لكنني دهشت حينما علمت أن دليلنا الأول الذي جاء معنا من القرية في بادىء الأمر لم يكن يرغب في مرافقتنا إلى أبعد من هذا. على أنه رد على اعتراضي يقول إن بقاءه لا فائدة فيه بالكلية - لأن الدليلين الأعرابيين لم تكن فيهما الكفاية فقط وإنما هما الدليلان الوحيدان اللذان يمكنهما أن يجتازا بنا الطريق إلى هدفنا. والأنكى من ذلك أن هذين الدليلين لم يكونا يفهمان غير العربية التي كنا نجهلها نحن تمام الجهل. غير أننا لم يكن لنا محيص عن هذا ولذلك تابعنا السير عبر حقول القرية المحروقة وما بين السواقي الجافة والرطبة حتى جئنا إلى جدول عميق غير عريض علمت بعد ذلك أنه كان جدول الخالص الذي حاذينا ضفافه المتعرجة لعدة أميال في سيرنا.

وعلى بعد فرسخ من القرية مررنا بمحطة دلي عباس، مع الجسر

الممدود على الخالص فيها، وقد تعجبت حينما عمد دليلانا فيها إلى تركها إلى يسارنا والتمادي في السير على الضفة الشمالية. وبعد ذلك مررنا بعدة قرى تستقي ماءها من الخالص، ويتكوّن سكانها كلهم من العرب. وقد كان بالقرب من إحداها مخيم كبير من منازل الأعراب فسرني أن أرى الجدول يحجز بيننا وبينه. وكانت هناك منازل أخرى تنتشر بعيداً وقريباً إلى مسافة كبيرة، وعند ذلك اتضح لي أن الدليلين عمدا إلى تعقيب الضفة الشمالية من الجدول على طول هذه المسافة ليتحاشيا المرور بها أو بما يقرب منها.

وقبل أن نصل إلى هذه القرية بقليل استدعاني أحد خدامي من الخط الأمامي في السير إلى الوراء لمراقبة الدليلين اللذين أصبح تصرفهما غريباً على حد قوله، إذا لم يكن مريباً. إذ انضم إليهما رجل آخر من الأعراب كان يركب فرساً جميلة فأفزعنا أن نسمع بأنَّ شيخاً آخر يمنعه قلقه على سلامتنا من البقاء وراءنا، ولكنه قفل راجعاً لأهله فقيل لنا إنه وجد البلاد غير آمنة. على أن تردد الدليلين الباقيين وتخلفهما إلى ما وراء القافلة هو الذي كان يفزع خادمي. وحينما عوتبا على عدم التفاتهما إلى شؤون السير والطريق أجابا بفزع غير يسير بأن هناك كثيراً من خصومهما العرب في هذه الأنحاء. ثم تقدما بأنواع مختلفة من الطلبات للبخشيش أو الهدايا. فوجدت من الأحسن أن أتصنع الحزم والغضب، بينما تفوه أحد خدامي بكلمة أو كلمتين للتملق. وما بين هذه وتلك اقتنعا بمتابعة السير مع كثير من الإحجام مرددين كلمة إن شاء الله عدة مرات، ومبدين كثيراً من علامات التخوف. ولم ينفع ذلك كله في تهدئة المخاوف التي كانت تساور رجالي الذين لم يستطيعوا كتمان قلقهم حينما كانوا يتصورون أنهم يمكن أن يضربوا في هذه الجهات ويجردوا من ملابسهم، إذا لم يقتلوا بدم بارد. ولم تكن حالتي الفكرية أنا على أكثر من ذلك هدوءاً واستقراراً، فلم يكن بوسعي أن أحلم فيما إذا كان تصرف الدليلين مبنياً على الخوف أم على الرغبة في المساومة واستغلال المخاوف التي قد يثيرانها فينا. فمرت علينا ساعات ثلاث ما بين منزل الأعراب الذي مررنا به وظهور النخيل المحيط بالقرية، التي كان علينا أن نقضي ليلتنا فيها، في الأفق البعيد فكانت أشد

الساعات التي عرفتها قلقاً وإزعاجاً. على أنها مرت على كل حال مثل غيرها من الساعات المزعجة الأخرى، كان من بواعث الارتياح لنا أن نسمع دليلينا في النهاية يعلنان بأننا قد تجاوزنا المنطقة الخطرة وصار بوسعنا متابعة السير بأمان. وقد تبين أن ذلك كان من بواعث الارتياح لهما كذلك، لأن تشوقهما للمسير كان لا يقل عن إحجامهما عن التقدم باديء ذي بدء.

ما أعظم السهول الواسعة من الأراضي الغنية القابلة للزراعة التي اجتزناها هذا اليوم ولاحظنا وجودها وامتدادها من جميع الجهات - الأراضي التي كانت كلها تنبت زرعاً يانعاً فأصبحت يباباً بلقعاً بالكلية! وما أكثر مجاري المياه والقنوات التي شاهدناها - إنها آثار الري القديم في هذه البلاد - وما أعظم القابلية على الازدهار الزراعي وتكاثف النفوس، المهملة إهمالاً كلياً! لقد كان كل ذلك في الحقيقة منظراً محزناً، وكان مما يفرج عن العين المتعبة من النظر إلى مناظر المدنية الراحلة والثروة المندثرة أن نلتفت إلى الموطن المريح للسكان الحاليين في المكان الذي سنقضي فيه هذه الليلة. فدخلنا هبهب، إحدى القرى التي تتكدس بيوتها بمجموعتها على ضفاف دجلة، قبل أن تميل الشمس إلى المغيب بساعة واحدة تقريباً. وبعد أن قدمنا بعض الإيضاحات استقبلنا بأدب ولطف نائب الضابط إسماعيل أغا، وهو سيد من السادة، فزودنا بجميع ما كنا نريده تزويداً وافراً. وتقع القرية نفسها ما بين بساتين ممتدة من النخيل - وكان كل بيت يوجد في ساحته عدد منها. فذكرتني المناظر هنا ببعض أنحاء بومبي.

وفي أثناء ركوبنا هذا اليوم اصطدنا عدداً كبيراً من الطيور - ولا سيما من الدراج الأسود والرمادي. كما لاحظنا من بعيد كثيراً من الغزلان، لكن الأسراب الكبيرة من الدراج البري التي مرت بنا كانت من أعظم ما رأيت من هذا القبيل إثارة للدهشة والعجب. فكانت هذه الأسراب تأتي كالغمام، على شاكلة الجراد، وكان أحدهما على الأخص، وهو الذي استغرق عدة دقائق في مروره، يكوّن قوساً من فوقنا يمتد جانباه من الطرفين على مد النظر - ربما كان هذا السرب وحده يحتوي على آلاف مؤلفة من الطيور. وهناك نوعان من هذا

الطير يشيع وجودهما في أواسط آسية - نوع كبير ونوع صغير، وهذه كانت من النوع الصغير. لكنني لم أرَ هذه الطيور من قبل تجتمع بمثل هذه الأسراب الجسيمة، أو في حالة الهجرة كما كان يظهر مما رأيت[١].

وقد قررت العمل على تلافي الوقت الضائع إن أمكن، ونظراً لما قيل لي من عدم وجود ما يدعو إلى القلق في الطريق ما بين موقعنا هنا وبغداد فقد حصلت على دليلين راجلين من الأعراب وتحركنا في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وتمادينا في السرى حتى وصلنا إلى المدينة العظيمة. فكان طريقنا كله في اراضٍ مستوية، ومررنا بعدة قرى قبل طلوع الصبح الذي بزغت علينا خيوطه الأولى ونحن نشاهد منائر بغداد وقبابها ترتفع في الأفق البعيد. ويبدو أن سهل بغداد على طول امتداده ينطوي على منتهى الخصب، لكنه يتطلب در الماء إليه ليكون منتجاً حقاً. فقد جعله نظام الري البديع، الذي لا تزال آثاره الكثيرة باقية حتى اليوم، حقولاً يانعة وبساتين غناء. أما الآن ففيما عدا التفاح المر الذي يغري العين بصبغته البرتغالية الغنية والنباتات المنتجة للصودا[٢] التي لا تصلح إلا علفاً للجمال، فلا تستبين العين فيه شيئاً نامياً مطلقاً. ومع أننا سرنا سيراً مسرعاً، فقد مرت علينا فترة متعبة قبل أن ترتفع أسوار المدينة أمام أنظارنا - وبارتفاعها تجدد استبداد القلق والريبة بنا، لأننا علمنا أن قبيلة من الأعراب المعادين قد نصبت خيامها على مقربة من المدينة وأن جيوش الباشا كانت مرابطة تجاه العدو - وأن عدة مناوشات قد حصلت من قبل، وأن جماعات من الأعراب صارت تملأ البلاد وتقوم بالسلب والنهب، بحيث لم يكن من الأكيد مطلقاً أن يسمح لنا بالوصول إلى الأسوار من دون مضايقة وإزعاج برغم وقوعها على مثل هذه المسافة القصيرة عنا.

ومع أن هذه الحالة هي على درجة من الاعتياد في هذه الجهات بحيث لا

---

(١) من المؤسف أن يقل وجود هذا الطائر المفيد في هذه الأيام، وسبب ذلك بلا شك اصطياد الناس له في جميع أوقات السنة من دون مراعاة القانون الذي يحدد اصطياده في أشهر معينة حماية له وحرصاً على عدم انقراضه.

(٢) لعله يقصد بهذا نبات الشنان البري المعروف.



سور بغداد وخندقها في أوائل القرن التاسع عشر

تستدعي الكثير من الدهشة لدى السكان المحليين فإني أعترف بأن الخبر قد أفزعني، خاصة بعد أن تأيد الخطر لنا من إطلاق عدة إطلاقات من المدافع وسقوط النار المنطلقة من البنادق في نفس المكان الذي أُشير إلى كونه موقعاً للمخيم المعادي. ونظراً لأنه لم يكن عندنا ما يمكن أن نفعله سوى أن نصل بأسرع ما يمكن إلى حيث نستطيع الاحتماء بالأسوار، فقد سرنا سيراً أسرع ومع أننا التقينا بعدد من جماعات الأعراب الصغيرة التي كانت مدججة بالسلاح أو مررنا بهم فقد وصلنا إلى باب كركوك[1] من دون مضايقة أو تحرش. وقد حصل في الباب توقف على جانب غير يسير من الإزعاج لأن قافلة من القوافل كانت تهم بالخروج، ولأن موظفي الباشا كانوا يقومون باستيفاء الرسوم والضرائب المطلوبة. غير أن تطمين الضباط المسؤولين بأننا إنكليز، وأننا كنا

---

(١) لعله يقصد الباب الوسطاني (الظفرية) الذي يوجد فيه الآن متحف الأسلحة.

في طريقنا إلى مسكن الباليوز أو المقيم، كان كافياً لإنقاذنا من لجاجتهم وإلحافهم. لكن تخليص أنفسنا من زحمة البغال والقافلة لم يكن سهلاً، فاستغرق وقتاً أكثر مما كان يتحمله جزعي وقلة صبري. على أننا في النهاية تمكنا من العبور بشق الأنفس، وحصلنا على دليل يوصلنا إلى دار المقيمية. وبعد سياحة طويلة عبر الأزقة والأسواق، كانت مملة بالنسبة إلينا، وصلنا إلى مبتغانا. وقد عرفت بهزة من الفرح السپاه[1] الهنود الذين كانوا يرابطون في الباب - لقد كانوا كأنهم أصدقاء قديمون في بلاد غريبة - وبعد خمس دقائق كنت جالساً على مائدة الفطور مع الكولونيل تايلور[2]، بكل مسليات الترحيب الحار والفطور الشهي لتحيتي وإنعاشي. ولا أراني بحاجة للقول بأن بقية اليوم قد تقضت بأطرف الحديث وأكثره متعة مع الأصدقاء الذين اجتمعت بهم، فقد كان عندنا كثير مما يجب أن نقف عليه ونقوله. غير أنه لما كانت هذه الأخبار لا يمكن أن تحظى عندكم بنفس الاهتمام الذي تحظى به عندي سوف أكفيكم مؤونتها في الوقت الحاضر، وأستودعكم إلى تلك الراحة الهنيئة التي تقصر عن زيارة وسادتي هذه الليلة.

(١) Indian Sepoys وهم الحرس من الهنود الذين كان يؤتى بهم من الهند لحراسة المقيمية البريطانية في بغداد.

(٢) المقيم البريطاني في ذلك الوقت. والمعتقد أن الدار التي كان يقيم فيها تقع في مكان دائرة كمرك بغداد الحالية التي كانت تلتحق بها أيضاً الفسحة التي بنيت فيها بناية مديرية التلفونات الحالية والبدالة كذلك.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٤)

لذة الراحة بعد التعب - الانطباعات الأولى في بغداد - أسوارها - شوارعها - نهر دجلة وضفافه - الأسواق وفسح البيع - وصف بكنغهام للمدينة - الجوامع والمنائر - البيوت - داخلية البيوت والأحوال فيها - المرأة التركية - المظهر الشخصي - الوشم - النساء الكرجيات - سكان بغداد - عاداتهم - الازدهار في أيام داود باشا - الشؤون العسكرية - الأسواق - التجار الأتراك - العرب - عاداتهم - أصوات بغداد.

عزيزتي

إن أول يومين أو ثلاثة بعد الانتهاء من رحلة غير قصيرة، وعند الوصول إلى مكان غريب، لا بد ان تنقضي بنوع من الدوامة المحمومة الحالمة، التي لا يمكن أن تكون مؤاتية للحصول على المعلومات الصحيحة أو تكوين فكرة عما يحيط بالمرء. ففيها يتم تبادل الاستفسارات والأجوبة ويتطرق المرء إلى الحديث عن أشياء شتى. لكن شيئاً من المعرفة عن الأمكنة والمواقع يعد ضرورياً له قبل أن يكون بإمكانه استيعاب المعلومات التي تنقل إليه. والراحة كذلك - الراحة البسيطة والهدوء - هي التي تبعث الانشراح فينا، بعد أن نكون قد شققنا طريقنا خلال بلاد صعبة وطريق شاق متعب، بحيث يصعب علينا أن نوفّق على تهيئة أنفسنا للجهد المطلوب للسعي وراء العجائب ومشاهدة المناظر. ولا بد لمن يجد نفسه في هذه الظروف أن يكون قد شعر بهذا - أي بالإحساس اللذيذ الذي يلازم هذا «التكاسل»، وخبر الإحجام الذي شعرت به في نقض هذا التأثير السحري.

أما حالتي فلم تكن تتحمل الانهماك الطويل. إذ لا يزال هناك الكثير مما يجب أن أجتازه، ولا يمكن إلا تخصيص قليل من الوقت لمشاهدة المناظر أو

التمعن في الأشياء الغريبة. ومع ذلك فها هو دجلة الخالد يجري من تحت شباكنا، ويعج بالزوارق والأكلاك، ويمتد من فوقه جسر الزوارق المعروف الذي يوصل بين ضفتيه. وترتفع من حولنا منائر الجوامع وقبابها، ومراقد القديسين والأولياء، وهي تحدثنا عن الأيام الغابرة حينما كانت بغداد عاصمة الإسلام وموئل قوته ومنعته. وها هي بابل وسلوقية[١] وطاق كسرى تقع في مواقع قريبة منا، وتغص البلاد المحيطة بنا كلها بالأشياء المهمة التي تلفت النظر وتستدعي الاستكشاف. ولذلك أعددنا أنفسنا للاستفادة من وقتنا القصير بأحسن وجه، وبدأنا بجولاتنا.

فبالنسبة للذين يأتون من إيران، وخاصة الذين يكون قد أضجرهم تعاقب الدمار والخراب الذي أتعب عيوننا وأنهكها ما رأيناه من آثاره، يعتبر منظر بغداد لأول وهلة منظراً بديعاً يبعث على الانطباع الحسن بالتأكيد. فللأسوار أولاً منظر مهيب يؤثر في النفس - فهي مشيدة بالآجر المحروق بالنار، ومدعمة من كل زاوية بأبراج مدورة لها فتحات (مزاغل) خاصة للمدافع، بدلاً من السياج البسيط المبني بالطين، المتهدم على الدوام تقريباً، الذي يحيط بالمدن الإيرانية. ولا يعني هذا أن سور بغداد هو سور كامل، فالأمر ليس كذلك. وإنما أتكلم عن مظهره الخارجي. والأبواب أيضاً، فمع أنها متهدمة للغاية فإنها على وجه التأكيد أعظم من أبواب المدن الموجودة في البلاد المجاورة.

وحينما يدخل السائح القادم من إيران إلى المدينة فإنه علاوة على ذلك يبتهج بمنظر البيوت المبنية، مثل أسوار المدينة، بالآجر المفخور التي ترتفع في علوها إلى عدة طوابق. ومع أن عدد الشبابيك المطلة على الطريق غير كثير بحال من الأحوال فإن العين لا يزعجها استمرار ذلك التعاقب الكريه من الكتل الطينية الحقيرة الواطئة، المتداعية، المتعرجة وغير المنتظمة، التي تحجزها

---

(١) هي المدينة التي بناها سلوقس في الجانب المقابل من دجلة تجاه طاق كسرى. وسلوقس هو القائد اليوناني الذي حكم هذه الجهات بعد موت الإسكندر المقدوني في هذه البلاد.

عن بعضها ممرات متربة موحلة لا تستحق حتى أن تسمى أزقة، مما يتكون منه القسم الأعظم من كل مدينة إيرانية.

ولا ينكر أن الشوارع، حتى في هذه المدينة، تكون في الغالب عبارة عن أزقة ضيقة غير مبلطة، وموحلة في الشتاء من دون شك، لكن المرء حينما يمر راكباً فيها وخاصة في المواسم غير الممطرة يتأثر حتماً بفكرة أن الجدران المتينة القائمة على يمينه وشماله لا بد أن تحتوي في داخلها على مساكن مريحة جيدة تقاوم الأحوال الجوية، بينما تؤيد الأبواب ذات الحجم المناسب والقبضات الحديد التي تحافظ على مدخلها ما يختلج في مخيلته من فكرة المتانة والأمان. أما في إيران فالأمر يكاد يكون بعكس ذلك، إذ تكون مداخل البيوت، وحتى بيوت الأشخاص المرموقين، أشبه بفتحات الكهوف أو المغاور بدلاً من أن تكون أبواباً لبيوت يأوي إليها أناس من البشر.

ولا تعدم شوارع بغداد الفتحات التي تسمح بدخول النور والهواء إليها. فليست الشبابيك المطلة عليها كثيرة فقط بل توجد أيضاً شرفات مطلة، أو شبابيك بارزة[1]، تخيم على الشارع فتسمح بدخول الضوء إلى الغرف التي يجلس فيها عادة عدد من الأتراك المتزمتين الذين يقضون الوقت بالتدخين. وإذا كنت محظوظاً فقد تجد نفسك صدفة هدفاً لأشعة نفاذة توجهها إليك من وراء المشبك[2] نصف المغلق زوجان من العيون المشرقة. وقد ترى هذه الأجنحة المعدة للجلوس ممتدة أحياناً عبر الشارع لتتصل بالبيوت من الجانبين، فتضفي بذلك تنوعاً مبهجاً على طراز البناء وخاصة حينما تشاهَد وهي نصف مظلمة بسعف النخيل الذي يعلوها من ساحة الدار في الداخل. وقد كان هناك في الجو العام المتكوّن من التنوع البارز، وطراز البناء، والملابس الغريبة، واختلاط الخضرة، وخاصة سعف النخيل، ما يعيد إلى الذهن، حينما ينظر إليه من وسط الشوارع الأكثر استقامة ذكرى مشوشة عن بلاد أخرى أكثر

---

(١) شناشيل.

(٢) القيم.

اشتهاراً في العالم - بلاد عليها مسحة ما ديرا في جزر الهند الشرقية والغربية أو ما أشبه - بلاد تولد في النفس مقداراً من البهجة والانشراح يزيد، على كل حال، على المنظر الحقيقي الذي أراه أمامي.

هذه هي الانطباعات التي تكوّنت لدي عما رأيته أثناء مروري بالبلدة، لكن ضفاف النهر كانت ترينا منظراً مختلفاً تمام الاختلاف وأكثر جاذبية وجمالاً من كل ذلك. فإن تدفق نهر جليل معروف يعد شيئاً طريفاً في جميع الأزمان، لكنه حينما تكون ضفافه مزدانة بخط طويل من الأبنية المؤثرة في النفس – إذا لم تكن جميلة تمام الجمال – ومظللة ببساتين النخيل وارفة الظلال، فضلاً عما يزيد في رونقها مئات الزوارق وضجيج الآلاف من الناس، وحينما يكون مجراه قد مُد من فوقه جسر من الزوارق يعبر عليه سيل دائم التدفق من الناس والخيل والجمال والقوافل، وحركة نقل عظيمة من جميع الأنواع والأشكال، فإن اللمحة المتكونة من جميع هذا يصعب عليها أن تقصر عن رسم صورة حية جداً في مخيلة الرائي. وهذا بطبيعة الحال هو المنظر الحقيقي لدجلة حينما تنظر إليه من أية نقطة كانت على ضفتيه، حيث تستطيع أن تحصر في مدى رؤيتك جميع الحيز الذي تشغله المدينة الحالية.

ولم تكن النظرة الأولى التي ألقيتها على دجلة تدل على ما كنت أتوقعه على وجه التأكيد: فلا يمكنني أن أقول إنني قد خاب أملي تماماً فيه لكنني كنت أتوقع أن أرى نهراً أكثر عرضاً واتساعاً مما رأيت. على أنني أعتقد أنه أحسن بعرضه الحالي لأن العين تستطيع في الوقت الحاضر أن تشرف على الجانبين بسهولة. أما جهة البلد المطلة على النهر فقد كان عجبي فيها مفعماً بالبهجة والسرور. فلم نجد فيها إلاّ القليل من الجدران العارية، لأن معظم البيوت لها عدد كبير من المشابك (القيم) والشرفات (الشناشيل) أو الشبابيك البارزة التي تطل على النهر. وبالقرب من الجسر جامع جميل بقبابه ومنائره، وهو منظر يبعث في النفس السرور والارتياح[١]. وهناك بوجه عام شموخ يستحق الاعتبار

---

(١) إذا كان هذا الجسر في نفس الموقع الحالي لجسر الشهداء، أو الجسر القديم، وهو =

في خط الأبنية المطلة على النهر من ضفته اليسرى، فيضفي تنوعاً ظريفاً على المنظر. وليس الجانب الأيمن، أو الغربي، من النهر على مثل هذا الجمال في طراز الأبنية وامتدادها، لكن بساتينه[1] الواسعة ونخيله المتشابك المختلط بالأبنية تسبغ عليه منظراً مبهجاً إذا ما نُظر إليه من الجانب الآخر المكتظ بالسكان.

على أنني يجب أن أعرف بأنني قد خاب أملي بأسواق بغداد. وليس السبب في ذلك افتقارها إلى السعة والامتداد، لأنها على مقدار كاف منهما، ولا خلوها من الناس، أو عدم وجود حركة فيها، لأنها تكون في كثير من الأحيان مكتظة اكتظاظاً كافياً فتظهر بمظهر يزيد تنوعاً وبهاء عما يلاحظ عادة في الأسواق الإيرانية. وإنما هناك من ناحية البناء والعمارة فقر في التخطيط وبساطة في التنفيذ، ومظهر من مظاهر التهدم، الذي يُعزى جزئياً إلى الكوارث التي أصابت المدينة مؤخراً بطبيعة الحال، لكن كثيراً منه يرجع السبب فيه إلى عيب أصيل وُجد في طراز البناء منذ البداية. على أن بعض الأسواق، ومنها صف ثلاثي أو رباعي ممتد إلى مسافة غير يسيرة من تشييد داود باشا، قد بني بناء جيداً بالجص والآجر المفخور، وظلل عن الشمس بسقوف ذات طوق عالية مبنية بالمواد نفسها. لكن أسواقاً أخرى كانت خربة جداً، وكانت سقوفها مصنوعة من مرادى الخشب الممدودة بصورة وقتية غير منتظمة والمغطاة بالسعف أو القش وبالقصب. أما الدكاكين نفسها فهي دكاكين بسيطة فقيرة، غير مرممة في كثير من الحالات، وكثير منها فارغ غير مشغل. وقد كان يلاحظ في معظم الأماكن ذلك الجو المتسم بالإهمال والقذارة، الذي يدل تمام الدلالة على الجنوح إلى الانحطاط والإهمال العام.

= الأرجح فإن الذي يحاول عبوره من هذا الجانب (الشرقي) يجد في رأسه من الجهة اليمنى جامع الوزير أو جامع حسن باشا العتيق الذي بناه كوجك حسن باشا خلال ١٦٤٢- ١٦٤٤م، ومن الجهة اليسرى جامع الآصفية (تكية المولوية).

(١) ذكرنا في حاشية أخرى من حواشي هذه الرحلة أن نيبور الذي زار بغداد في منتصف القرن السابع عشر وجد في جانب الكرخ حوالي ألفي بستان وحديقة معمورة.

وهناك في مختلف أجزاء البلدة عدة فسحات مكشوفة يباع فيه البعض من أنواع السلع، وقد سميت بأسمائها، مثل «سوق الغزل» و«سوق الموسلين» و«سوق الحنطة» وما أشبه[1]. ومن بين هذه كلها كانت أكبرها وأزهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية، أو باب الموصل[2]. غير أن أية سوق من هذه الأسواق لا يمكن أن تمت بصلة إلى أي رونق أو بهاء، وحتى إلى النظافة بالذات. والحقيقة أن السوق التي ذكرت لآخر مرة هي «ميدان»[3] المدينة الكبير. وتعرض الخيل هنا للبيع، وهو محاط بالمقاهي الممتلئة على الدوام بجمهور من جميع أنواع الناس الذين يجلسون فيها للتدخين وشرب القهوة وما أشبه. وهو في الوقت نفسه الميدان العام للاستعراض، وتنفيذ أحكام الإعدام كذلك، لأن المجرمين يعاقبون هنا بقطع الرأس والشنق أو الجدع (قطع الأيدي والأرجل). فكثيراً ما يلاحظ المارة أمامهم جذعاً مقطوع الرأس، أو جذعين، يعرض على الناس خلال اليوم تنبيهاً لفاعلي الشر. على أن التركي المتزمت، الذي لا يتأثر بهول المشهد، يدخن شطبه بهدوء أو يمر بما يشاهده من دون أن يعبأ به، أو يغمغم بكلمة لا إله إلاّ الله. وحتى هذا المكان الذي يستعمل لكل شيء لا يحتوي على أكثر من أيكر[4] ونصف من الأرض على ما أعتقد.

---

(١) لقد زار الكوماندر فيلكس جونز بغداد في ١٨٤٦م، أي بعد مجيء فريزر صاحب هذه الرحلة باثنتي عشرة سنة فقط، وذكر قائمة الأسواق والمحلات التي كانت في بغداد يومذاك فيما نشره، في مجلة جمعية بومبي الجغرافية ما بين سنتي ١٨٤٩، ١٨٥٦م، فلم أجد ذكراً لسوق الموسلين وسوق الحنطة فيها، ولعل الأخير هو سوق العلوجية. لكنني وجدت ذكراً للكثير من الأسواق التي لا تزال تسمى بنفس الأسماء (أي بأسماء السلع) مثل سوق الصياغ وسوق التمارة (الشورجة) وسوق الصفافير وسوق القز وسوق البزازين وسوق اليورغانجية وسوق التوتونجية وغير ذلك.

(٢) لعله يقصد «باب المعظم» التي كان موقعها بالقرب من باب وزارة الدفاع الحالية بامتداد الجدار الذي يحجز بين تلك الوزارة وبناية قاعة الشعب. وقد كانت تسمى قبل ذلك باب سوق السلطان أو الباب السلطاني الذي هدم في ١٩٢٥م.

(٣) لا شك أنه ساحة الميدان الحالية.

(٤) الأيكر يساوي (٤٠٠٠) متر مربع.

هذا وتستحق بغداد، من حيث شهرتها القديمة وأهميتها الحالية، أن يؤتى على وصفها بأكثر مما أنا مستعد لتقديمه إليكِ من الوصف التفصيلي الدقيق. ولما كنت أعتقد أنكِ يمكن أن تنزعجي إذا ما أقدمت على ترك القصة وهي مبتورة غير كاملة، أجد نفسي مدفوعاً إلى الاستعانة بشيء من المصادر الأخرى لأجل أن يتسنى لي تقديم فكرة أوضح عما تكون عليه هذه المدينة التي سارت بذكرها الركبان، أو عما كانت عليه قبل أن تنزل بها الكوارث الأخيرة. ويبدو لي أن الوصف الذي عمد إليه بكنغهام في كتابه «رحلات في بلاد بين النهرين[1]» هو على درجة من الجودة بحيث إنني سوف لا أترك مجالاً متيسراً من دون أن أبادر فيه إلى اقتباس شيء منه، لأنكِ قد لا يتسع لك المجال لمطالعته.

فيقول المستر بكنغهام «إن ما في داخلية البلدة من الأشياء ذات الأهمية يقل عما يتوقعه المرء من الشهرة الجديرة باسمها كمركز شرقي كبير للثروة والأبهة. فإن قسماً كبيراً من الأرض الداخلة في ضمن الأسوار غير مشغول بالأبنية، وخاصة من الجهة الشمالية الشرقية. وحتى في الأماكن التي توجد فيها الأبنية والعمارات، وخاصة في محلات المدينة التي يكثر فيها السكان بالقرب من النهر، تلاحظ وفرة الأشجار. وعلى هذا فحينما كان يُنظر إلى كل ذلك من سطح أية دار من الدور الكائنة في داخل الأسوار كانت المدينة تبدو كأنها قائمة في بستان كبير من النخيل، أو مثل ما كانت بابل عليه من كونها إقليماً مسوراً وليس بلدة واحدة.

«وقد بنيت الأبنية كلها، العامة والأهلية، بالآجر المفخوَر ذي اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة، والحجم الصغير، والزوايا المدورة الدالة على أن معظم هذا الآجر كان قد استعمل عدة مرات من قبل لأنه ربما كان قد أخذ من

---

(١) J. S. Buckingham, Travels in Mesopotamia (London 1827) والجزء الثاني من الكتاب هذه يختص بالرحلة من الموصل فكركوك فبغداد فبابل. وللمؤلف كتاب رحلة آخر عنوانه: Travels in Assyria, Media, and Persia, (London 1830)

هذا وقد زار بكنغهام بغداد في أيام داود باشا، أي قبل أن يفتك بها الطاعون ويهدمها الغرق الذي وقع في ١٨٣١م كما سيأتي في هذه الرحلة.

خرائب أبنية قديمة لتشييد أبنية أخرى بها. وفي الحالات القليلة التي يكون الآجر جديداً يكون ذا مظهر نظيف مرتب لا وجود له مطلقاً في الآجر القديم. ومع ذلك فحتى هذا يعد أدنى من الحجر. وشوارع بغداد، مثل شوارع جميع المدن الشرقية الأخرى، ضيقة غير مبلطة تقوم على جانبيها بوجه عام جدران خالية من أي شيء، إذ نادراً ما تلاحظ الشبابيك[1] مفتوحة على الأزقة والطرق العامة، بينما تكون أبواب الدخول المؤدية إلى المساكن صغيرة بسيطة.



من أزقة بغداد القديمة

وتكون هذه الشوارع أكثر تعقيداً وتعرجاً من كثير من شوارع المدن التركية الكبيرة. وفيما عدا بعض الأسواق وخطوطها التي تنتظم انتظاماً محتملاً، وبعض الفسحات المكشوفة، فإن داخلية بغداد عبارة عن متاهة من الأزقة والممرات.

«أما الجوامع التي تعد على الدوام أبرز المعالم في المدن الإسلامية فهي مبنية هنا بطراز يختلف عن طراز الجوامع التي شاهدتها في معظم أجزاء

(١) إن المستر فريزر صاحب الرحلة هذه قد ذكر عكس هذا في بداية هذه الرسالة. والغريب أنه هو نفسه يعمد إلى اقتباس هذا القول من بكنغهام الذي زار بغداد قبل المستر فريزر بمدة لا تتجاوز الخمس عشرة سنة، وكانت عند مجيئه عامرة من دون أن تكون قد تعرضت لنكبة الطاعون وكارثة الفيضان التي هدمت القسم الأعظم منها (١٨٣١م).

تركيا الأخرى. وأقدمها على ما يعتقد يسمى جامع سوق الغزل، لكن هذا لم يبق منه سوى منارة سميكة ضخمة وقسم من السور الخارجي».

وللمنارة حوض واحد فقط، ينشأ بروزه كما يقول المستر بكنغهام من تحت مركز العمود ثم يصعد إلى أعلى بسلسلة من المنحنيات المعقدة والتزيينات المدلاة على شاكلة المقرنصات «الستالاكتايت» التي تنتفخ بالتدريج إلى الخارج وتنتهي بالحوض من حوالي ثلث ارتفاع المحور. وتكون النهاية مدورة غير رشيقة، فيبين المنظر العام للرائي منظراً سمجاً.

ويعد هذا الحوض أعلى نقطة يمكن الارتقاء إليها ومشاهدة منظر المدينة العام منها. وهو في الحقيقة يشرف على معظم السطوح والساحات لمسافة طويلة من حوله. وقد استغربت حقاً أن أجد كفاراً مثلنا يسمح لهم بالصعود إلى ارتفاع يتفرجون منه على المسلمين. ووجدنا شيئاً من الصعوبة في الصعود بسبب الظلام المخيم على السلّم وذروق الخفاش والحمام المتراكم فيها، ذلك الحمام الذي كان يأوى بالآلاف إلى الأماكن التي تآكلت فيها الحنيات والشقوق المتكونة بتأثير العنف والزمن. ومن المعتقد أن المنارة وجامعها المتهدم يبلغ عمرهما ما يزيد على ستمئة سنة[1]. ولما كنت أشك في أن يكون وصف جوامع بغداد مسلياً لكم سوف أقتصر في الوقت الحاضر على أن عدد هذه العمارات المقدسة يتجاوز المئة[2] على ما يُعتقد، أو كان قد تجاوز المئة

---

(١) جاء في كتاب (دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً) للدكتورين مصطفى جواد وأحمد سوسة أن الخليفة المكتفي بالله العباسي أنشأ هذا الجامع خلال المدة (٩٠٢- ٩٠٨) ميلادية وسمي بجامع القصر. ثم «شيد في جامع القصر هذا في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) مئذنة لا تزال قائمة إلى يومنا هذا وهي تعرف بمنارة سوق الغزل.. وشيد سليمان باشا الكبير والي بغداد (١٧٧٩- ١٨٠٢م) جامعاً في غرب المنارة بقي قائماً إلى سنة ١٩٥٧م ويعرف بجامع سوق الغزل...».

(٢) لقد أورد الدكتوران في المرجع السابق قائمة تحتوي على (١٦٠) من الجوامع والمعابد والمساجد القائمة اليوم في جانبي بغداد مع التي خربت قبل عدة سنين، ومعظمها كان قائماً حينما زار صاحب الرحلة هذه البلاد على ما نحسب.

في يوم من الأيام، برغم أن حوالي عشرين أو ثلاثين منها فقط تستحق الملاحظة والاهتمام لدرجةٍ ما. أما القباب فلا أظنك تستطيعين أن تجدي ما يزيد على الدزينة منها بحجم يعتد به، وأنا متأكد أن عدد المنائر يقل عن أربع وعشرين. وهناك عدد من المنائر والقباب المغطاة بالآجر المصقول، الملون في الغالب باللون الأخضر والأبيض والأصفر والأسود، الموشى بالفسيفساء (الموزاييك) ليدل على الأوراد والأرقام والكتابة التي يكون لها، على حد تعبير المستر بگنغهام، تأثير مبهج بدلاً من تأثير الروعة والفخامة. ويمكن أن يقال بوجه عام إن جوامع بغداد ومراقدها تقلّ في طراز عمارتها عن جوامع ومراقد المدن الإسلامية الكبيرة في الهند بقدر ما تمتاز أبنيتها بوجه عام على أبنية المدن في إيران. وقد تحدثت عن الأسواق من قبل، وإني أؤيد هنا المستر بگنغهام تمام التأييد في كونها بسيطة بساطة نسبية، أما الخانات والحمامات فلا أستطيع أن أذكر إلا النزر اليسير عنها، لكن الخانات التي رأيتها كانت تبدو وهي على درجة كافية من الرثاثة.

ويقول المؤرخ المشار إليه عن دور السكنى في بغداد «إنني لم أرَ منها سوى جدرانها الخارجية وسطوحها. وقد لفت نظري بوجه خاص أنني على طول هذه المدينة الواسعة وعرضها لم أجد ولا عقداً مدبباً واحداً في أبواب أي مسكن من المساكن. فقد كانت العقود كلها مدورة ومنبسطة مع شيء من الزينة بالآجر الصغار فوقها. وحتى الأسواق القديمة والجوامع المتهدمة التي كان يلاحظ وجود العقد المدبب فيها يكون شكله أقرب إلى شكل العقد القوطي من العقد الإسلامي، وهذا ما لاحظته في الموصل أيضاً. ولذلك لا يمكن أن تكون بغداد نفسها قد كانت مقراً لفن العمارة الإسلامية الذي ربما يكون قد نشأ في بلد يبعد عنها من جهة الغرب.

«وتتألف البيوت من صفوف من الغرف تنفتح أبوابها إلى باحة داخلية مربعة. وفي الوقت الذي تُشغل فيه السراديب، وهي غرف تبنى تحت سطح الأرض، أثناء النهار للاحتماء بها من الحرارة الشديدة تستعمل السطوح المكشوفة لتناول العشاء وقت المغرب والنوم فيها خلال الليل. فمن سطح

المسكن الذي كان يقيم فيه المستر ريج الذي كان منقسماً إلى عدة أقسام، يكون لكل منها ممرها الخاص للصعود والنزول، بحيث يتكون منها في الحقيقة عدد من الغرف غير المسقفة، كان بوسعنا أن نشرف عند انبلاج الصبح على منظر من مناظر بغداد يشبه منظر مدريد الموصوف في «الادايابل بواتو» حين يرينا أسر البيوت المحيطة بنا جميعها في مخادعها المكشوفة، وهي في حالات على جانب غير يسير من الطرافة في بعض الأحيان. فقد كانت تنكشف لنا من هذا الموقع المنيف ثمانية أو عشرة مخادع مختلفة تقع في عدة محلات محيطة بنا. ونظراً لأن الأسر جميعها كانت تنام في العراء خلال الصيف بطبيعة الحال كانت تنكشف أمام أنظارنا مناظر بيتية خصوصية كثيرة من دون أن يكتشف أحد ولو مرة واحدة، أو يشك، بكوننا كنا نتطلع إليه. فقد كان الزوج في الأسرة الموسرة ينام على سرير مرتفع تفرش فوقه حشية ووسائد من الحرير، مغطاة بلحاف سميك من القطن من دون أن تحاط بستائر أو كلة تقي النائم من البعوض. كما كانت الزوجة تنام على فرشة مماثلة ولكن على الأرض بصورة دائمة - أي من دون سرير، وعلى مسافة من زوجها - بينما كان الأطفال، الذين يصل عددهم إلى الثلاثة أو الأربعة، يشغلون فرشة واحدة. أما الخدم أو المماليك فقد كان كل منهم ينام على حصيرة منفردة تفرش على الأرض، لكن الجميع كانوا ينامون أو ينهضون من الفراش على مرأى من بعضهم بعض. وكان كل فرد ينهض من نومه في ساعة مبكرة بحيث لا يبقى أحد في الفراش بعد طلوع الشمس، فيطوي فراشه وغطاءه ووساداته لتؤخذ إلى الدار عدا الأطفال الذين كان يتولى هذا العمل عنهم أمهم أو أحد الخدم.

«ولم يكن أي من هؤلاء يخلع ملابسه كما يفعل الأوربيون عامة حينما يذهبون إلى الفراش. فقد كان الرجال يحتفظون بقمصانهم ولبساهم، وقفاطينهم أحياناً، عند النوم. وكانت الأطفال والخدم ينامون بالملابس ذاتها التي كانوا يلبسونها أثناء النهار. أما الأمهات والبنات الكبيرات فقد كن يلبسن سراويل الأتراك الحريرية الكاملة مع الرداء المفتوح ولفات الرأس إذا كن من الأسر الغنية. وكانت الفقيرات منهن يلبسن جلباباً (دشداشة) فضفاضاً أحمر

وغطاءً بسيطاً للرأس. وفي معظم الحالات التي رأيناها كانت الزوجات يساعدن أزواجهن في ارتداء الملابس أو خلعها، والقيام بكل واجبات الوصيف.

«وقد كان الزوج عادة يؤدي الصلاة بعد أن يكون قد ارتدى ملابسه، بينما يكون المملوك منصرفاً إلى إعداد القهوة والشطب له. وبجلوسه على سجادته بعد أن تكون هذه قد أُحضرت كانت الزوجة تقوم على خدمته بنفسها، فتتراجع إلى مسافة مناسبة لتنتظر الكوب بعد تقديم الماء، وتكون واقفة بين يديه على الدوام، وكانت تتكتف أثناء حضوره في بعض الأحيان، وحتى أنها كانت تقوم بتقبيل يده عند تسلم الكوب منها كما يفعل أحط خدم الدار ومباشريه. وحينما كان الزوج يتكيء على وسائده أو يجلس على سجادته بارتياح وتراخ لينعم بشطبه أو غليونه الصباحي كانت نساء الأسرة ينصرفن إلى الصلاة بصورة عامة. وغالباً ما كن يصلين على انفراد كما يصلّي الرجال تماماً، ولكننا لاحظنا مرة واحدة أو مرتين أن ربة البيت وبعض النساء الأخريات، كالأخت مثلاً أو إحدى القريبات، كن يؤدّين الصلاة معاً معقبة إحداهن إشارات الأخرى التي تقف بجانبها، كما يحصل حينما يقوم الرجال بصلاة الجماعة خلف الإمام. ولم تكن أية امرأة، سواءٌ أكانت الزوجة أم الخادمة أم المملوكة، تهمل هذه الفريضة الصباحية، لكنني لم أجد بين الأطفال الذين تقل أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة من كان يقوم بتأديتها.

«وعلى الرغم من العزلة الظاهرة التي تعيش فيها المرأة هنا، وفي جميع أنحاء الأمبراطورية التركية في الحقيقة، فإنها غير محرومة من الحرية الحقيقية التي يساء استعمالها لدرجة غير يسيرة في بعض الأحيان كما يحصل في أماكن أخرى. ولا يمكن أن ينكر بأن التسهيلات للاجتماعات السرية المريبة هي أكثر في المدن التركية منها في أية مدينة أوربية كبيرة. فإنّ تنكّر المرأة التركية أو العربية في زيّها ولباسها هو على درجة من الكمال بحيث إن زوجها لا يستطيع التعرف عليها. وهذا يؤدي بناء على ذلك إلى أن تذهب السيدة أينما تريد عند الحاجة.

«وتعد الگرجيات والچركسيات من بين نساء بغداد أجملهن على وجه التأكيد، وأقلهنّ تشويهاً بالمساحيق. أما نساء الطبقة العليا من سكان البلاد الأصليين فتكون سحنهن أقل طراوةً وصفاءً، بينما تكون نساء الطبقتين الوسطى والدنيا، ببشرتهن السمراء وقلة جمال محياهن إلا من حيث العيون السود المعبرة، قد وشمن أنفسهن وشماً وحشياً يكسبهن مظهراً منفراً في بعض الأحيان. وتقوم نساء جميع الطبقات والمراتب بصبغ شعرهن بالحناء، كما تصبغ راحات أيديهن صبغاً قوياً بها بحيث تبدو وكأنها أيدي البحارة المكسوة بالقطران».

وإلى هذا الحد أكتفي بهذا المقدار مما ذكره المستر بگنغهام. ومن المؤكد أن نساء الگرج والچركس هن أجمل النساء وأكثرهن تقديراً هنا، لكنهن أصبحن أكثر ندرةً من ذي قبل. فإن تركيا لا يسعها بعد هذا أن تشجع تجارة الرقيق مع هذه البلاد التعيسة المضطهدة (القفقاس)، حيث إن أهاليها يرزحون الآن تحت وطأة الحكم الذي يمارسه طاغية أشد قسوة من الحكام السابقين وهو عاهل الروس المطلق المستبد. ويسير القضاء على السكان هناك سيراً حثيثاً، ولكن ليس بالسرعة التي يريدها المغتصب. فحينما كنت في تبريز تناهى إلينا أن حملة كانت على وشك أن تجرد من تفليس ضد الأباظة بنية استئصالهم.

وليس من المحتمل كذلك أن يتكاثر العنصر الگرجي هنا، لأن المعروف اليوم معرفةً قاطعة أن قليلاً من نساء تلك البلاد من يمكنهن تربية الأطفال وتنشئتهم في هذه الجهات. فهم يموتون عادةً قبل إكمال الثالثة من أعمارهم، ويعزو البعض القسم الأعظم من هذه الوفيات إلى ولع الأمهات الخالي من التبصر بتحشية أطفالهن الصغار بالحلويات وسائر الأنواع غير المناسبة من الغذاء.

ولقد قدر بگنغهام نفوس بغداد حينما كان موجوداً فيها بما يتراوح بين الخمسين والمئة ألف نسمة. وهو يعتبر عدد نفوسها أقل من عدد نفوس حلب وأكثر من نفوس دمشق، بحيث إنه يجعل الحد المقارب للحقيقة ثمانين ألفاً.

على أنه من المؤكد أن عدد النفوس قد ازداد ازدياداً كبيراً في أيام داود باشا، ولذلك فإنه على ما أعتقد لم يكن يقل قبل طاعون ١٨٣١م عن مئة وخمسين ألف نسمة. وكان القسم الأعظم من هؤلاء أتراكاً وعرباً، لكنه كان هناك أيضاً عدد كبير من البغداديين الأصليين وهم يكادون أن يكونوا عنصراً خاصاً يختلط فيه الدم الإيراني والهندي بالأرومات الرئيسة. ومعظم التجار الآن هم من أصل عربي، وهناك عدد من اليهود والأرمن والنصارى التابعين للكنيستين الكاثوليكية والسريانية. ويلاحظ وجود الأكراد والإيرانيين والبدو بكثرة في الأسواق، لكن البدو لا يودون قضاء ليلتهم ما بين الأسوار. أما القسم الأعظم من الإيرانيين، الذين هم في الغالب من زوار العتبات في كربلاء ومشهد علي، فيرجعون في آخر النهار إلى الكاظمية وهي قرية وعتبة مقدسة تقع على بعد أربعة أميال في الجانب الغربي من النهر، أو يخيمون خارج أسوار المدينة، في الجهة الشمالية منها.

ويصف المستر بكنغهام أزياء بغداد وألبستها بكونها أقل رونقاً وبهاءً بكثير مما هي في مصر أو القسطنطينية في ذلك الوقت. على أنني لا أستطيع الحكم على ذلك بشيء، لكن منظر الأزياء في الوقت الحاضر أبعد من أن يكون شيئاً باهراً على وجه التأكيد. وقد أكد لي الكثيرون أن هذا المظهر يختلف اختلافاً غير يسير عما كان عليه في أيام داود باشا. فقد كان الباشا يحتفظ ببلاط زاهر وتأسيسات فاخرة، كما كانت الحلل والبزات العسكرية على عهده شيئاً زاهياً ومتألقاً تمام التألّق. فإن الثمانمئة گرجي من أتباعه، المتزيين بالألبسة الزاهية والمسلحين بالسلاح الفاخر، الراكبين على الجياد العربية الأصيلة، المطهمة بالجهاز المزركش، لا بد أن تكون قد كوّنت منظراً باهراً في عهده. وكان ضباطه، وهم يقتدون بسيّدهم، يتنافسون فيما بينهم من حيث فخامة العُدد وكثرة الأتباع. أما الآن فلا يوجد شيء من ذلك مطلقاً، إذ تقتصر القوة العسكرية البسيطة اليوم على عدد قليل من الهايتة، أو الخيالة الألبانيين، المختلطين بخيالة آخرين من أهل البلاد، التي تتزيا بالألبسة الرثة والأسلحة البسيطة. وتحتوي كذلك على مفرزة من «النظام» أو الجند النظامي الجديد، وهذه قطعة عسكرية على آخر ما تتصوره المخيلة من عدم الانتظام، فقد أفقدها

لباسها نصف الأوربي منظر الأتراك المهيب من دون أن يسبغ على أفرادها أناقة الجند الأوربيين ومظهرهم المهني. وليس هناك سوى مئات قليلة من هؤلاء الأبطال الشواذ، الذين ذكرني زيهم غير المهندم، و«الفيس» الأحمر الذي يضعونه فوق رؤوسهم، بالمساجين الفرنسيين القدماء الذين كانوا يلبسون قبعاتهم الليلية الحمراء وسترهم المتعفنة. أما السراي، أو قصر الباشا، فلا ضجة فيه ولا مظهر يعتد به، وأما الموظفون الفاسدون ذوو المستوى المنحط التابعون للرجل التعيس الذي كان يضطلع بمنصب الباشا فيقتدون بسيدهم في الرثاثة وقلة الحاشية وفي جميع الوجوه الأخرى.

غير أن الأسواق ما يزال فيها الآن شيء من الحركة واللون. لأن الأتراك والعرب معاً مغرمون بالأحمر بمختلف أطيافه ودرجاته، وبالألوان الزاهية الأخرى. يضاف إلى ذلك أن الأصباغ والزينات التطريزية، وعمائم الشال، والألبسة الفضفاضة، مع الخناجر المطعمة بالفضة والمسدسات المدلاة من المحزم، تعمل كلها على رسم صورة حية مبهجة.

على أن الركوب عبر الأسواق يعتبر عملاً فيه شيء من الخطر. فهي، على كونها تؤلف الممرات والطرق العامة في البلد، ضيقة بحيث إنك تضطر على الدوام على التوقف فيها بسبب الخطوط الطويلة من الجمال والبغال المحملة التي يحتمل جداً أن تؤدي الأحمال الموجودة فوق ظهورها إلى كسر رأسك أو ركبتيك حسب ارتفاع الحيوان الذي تصادفه، بينما تكون منشغلاً بشق طريقك بينها وبين الأعراب الحفاة الذين يمتلىء بهم كل شارع أو زقاق. وقد ذكرتني مجموعات الحمير، المحملة بالحطب، بسيدة مآدب «ألف ليلة وليلة» التي عزت الجرح الموجود في خدها إلى صدمةٍ أصابتها من إحدى القوصرات التي كان يحملها حيوان من هذه الحيوانات. فعرّضت بذلك حيوية مجتمع الحطابين كلهم إلى الخطر. وتبرهن الخروق المختلفة في سراويلي الآن أكثر من مرة على إمكانية وقوع ما جاء في تلك القصة. وكم أتمنى أن يكون بوسعي أن أقول إن دكاكين الطباخين تذكرني على الشاكلة نفسها بدكان سي مصطفى وحلوياته اللذيذة. لكن الحقيقة ان رائحة السمن الزنخ كانت منفرة جداً، ولم تكن

دكاكين الحلواتية كذلك مغرية مثل دكاكين الحلواتية في استانبول.

ومن بين الأشياء التي تلفت نظر الغريب في بغداد الهدوء الرزين، والجمود الذي يبدو على التاجر التركي[1] وهو يجلس فوق المنصة العالية المنصوبة بالقرب من بابه، مدخناً شطبه في وسط الضجيج المحيط به، كأنه لا يسمع شيئاً منه ولا يملك الاهتمام الذي يجب أن يكون عند التاجر بيع ما عنده من سلع. وحينما يراجعه أحد الزبائن يعرض عليه السلعة المطلوبة ببطء وسكون وينهي المعاملة إذا تم الاتفاق على السعر - وإلا فيتابع تدخينه للشطب. ولو كان في مكانه تاجر إيراني لسألك دزينة من الأسئلة عما تريد، ولعرض عليك بالتعاقب خمسين شيئاً من الأشياء التي لا تحتاجها، ولقفز من مكانه وعاد إليه عدة مرات، خلال المدة التي يستغرقها التركي المتزمت في سحب «الچبوق»[2] من فمه بقصد التحدث إليك. على أنه لا بد من الاعتراف هنا بأن الباعة اليهود والأرمن يعوضون بسرعتهم وطلاقة لسانهم عن تثاقل الأتراك وتكاسلهم. فإنهم مدركون نشطون في التأكد من طلبات الزبائن وتزويدهم بها.

والمزية الأخرى التي تلفت نظر الغريب في شوارع بغداد وأسواقها كثرة العرب، من البدو وسكان المدينة، التي ألمحت إليها من قبل. ويتألف لباسهم من قميص خشن يلبس فوقه الناس المتمكنون قفطاناً (زبوناً) مصنوعاً من نوع من أنواع القماش الحرير أو القطن، المخطط في الغالب. وكلهم يضع على كتفيه عباءة من شكل خاص، فتكون عريضة من دون أردان لكنها مزودة بفتحتين تمد منهما اليدان عند الحاجة، وتصنع من الصوف المحبوك في حياكته، المخطط بخطوط عريضة متعامدة بيضاء اللون وبنيته، لكنها تكون

---

(١) يلاحظ مما يكتبه صاحب هذه الرحلة أنه يعتبر الكثيرين من سكان المدن في العراق أتراكاً ويقتصر في الغالب على تسمية أهل الريف والبدو (الأعراب) بالعرب. وأعتقد أن القارئ المدرك يمكن أن يكتشف ذلك بسهولة.

(٢) الجبوق كلمة تركية بمعنى الشطب وجمعه شطوب وهو عود يحفر بسفود محمى ليدخن به.

بيضاء أو سوداء اللون في بعض الأحيان. وهي اللباس القومي الخاص - أي العباءة العربية المعتادة. ولا يقل لباس الرأس انفراداً وتخصصاً عن العباءة. فليس هو عمامة على ما يعتقد البعض، ولا شيئاً يشبهها. وإنما هو يتألف من كفية[1] حرير مربعة الشكل محبوكة الحياكة، تخطط بخطوط متسعة صفراء وحمراء، وتبرم لحمتها من الحاشية إلى خيوط متينة قصيرة. وتطوى هذه الكفية بشكل مثلث ثم توضع فوق الرأس فيتدلى طرفاها على الكتفين أو أمامهما، بينما يتدلى الطرف الثالث إلى الوراء. وفيما حول قمة الرأس المغطى بهذه الطريقة تلف حزمة من وبر الإبل البني[2] اللون، المبروم برماً جزئياً مرتين أو ثلاث مرات، بحيث يبدو الرجال لأول وهلة وهم يرتدون العباءة الفضفاضة معه أشبه ما يكون بالنساء الساحرات من الرجال. وليس من الممكن من دون الاستعانة بالرسم أن أنقل إليكم ما يكوّن عندكم فكرة تامة عن التأثير الفريد الذي يحدثه لباس الرأس هذا، حينما يساعده في التأثير زوجان من العيون السود النفاذة التي تحدّق من بين خصل شعرهم الأسود. لأن العرب، مثل سائر المسلمين لا يحلقون الرأس، وإنما يضفرون شعرهم الطويل الخشن الأسود بسواد الفحم (الذي يتدلّى على أكتافهم وظهورهم) ويخفونه تحت الغترة[3]. على أنه لباس رأس مفيد للبادية، يخفف من تأثير الحرارة والبرودة وخاصة حينما يلبسون تحته طاقية مصنوعة من الوبر. لأنهم يتلثمون بطرفي الكفية في الطقس البارد، ويتلفعون بها إلى ما فوق الوجه والعيون حينما يشتد تأثير الشمس وإزعاجها، وبذلك يُنتفع بها للحماية في كلتا

---

(١) يظهر من هذا ان «اليشماغ» الحالي الذي يلبس تحت العقال في الغالب لم يكن قد ظهر يومذاك.

(٢) من الغريب أن لا يذكر بين هذا الوصف لون العقال الأسود الشائع الآن، ولعله لم يكن شائعاً في تلك الأيام.

(٣) أعتقد أن صاحب الرحلة ربما يكون مخطئاً في هذا التعميم المطلق الذي قد ينطبق على البعض من رجال القبائل في البادية وغيرها. ولا يخفى أنه يقصد بالعرب هنا أبناء العشائر.

الحالتين. ومع ذلك فإن هؤلاء البدو قد تحمصت بشرتهم إلى حد السواد التام. وأؤكد لكم أنهم يكونون بهذا أشكالاً فريدة في وحشيتها حينما يطوفون فوق جيادهم النحيفة، فتتطاير ملابسهم الفضفاضة في الهواء وتهتز رماحهم فوق أكتافهم. وإن المرء قد يعتبرهم حتى في داخل المدن أشخاصاً تخطر ملاقاتهم، لأنهم يندفعون في سيرهم بهيئة الاستقلال الفظ. فإن العربي يعتبر نفسه في كل مكان سيد الأرض التي يحل فيها، وهو في الحقيقة يكاد يكون كذلك هنا أيضاً. ثم إن صراخهم وهديرهم حينما يمرّون قد يؤديان بالمرء إلى الاعتقاد بأنهم يهمون بسلب كل من يصادفونه في الطريق. لأن العربي لا يتكلم إلا بأعلى[1] صوته، ولذلك يرتفع صوتهم أثناء الكلام بحيث يخيّل للغريب أنهم يتشاجرون فيما بينهم. وقد أدّت هذه الخصلة في بعض الأحيان إلى حصول أغلاط مضحكة. فقد كان أحد النوابين المقيمين في بغداد متشبعاً بالخوف من الهيضة (الكوليرا) بحيث لا يخرج من البيت إلا وهو يحمل معه الأدوية الواقية. وقد حدث ذات يوم بُعيد وصوله إلى هنا أنه بينما كان جالساً في إحدى المقاهي أو الأماكن العامة الأخرى، طُلب إلى مغنٍّ كان موجوداً فيه أن يسلي الناس بالغناء. لكن المسكين وجد صعوبة في ذلك وأخذ يخرج أصواتاً مبحوحة وأنغاماً غريبة ربما كانت تبعث الفزع في نفوس البعض منهم. غير أن النوّاب الذي كان يجهل لغة البلاد تصور أن الرجل قد أصيب بالهيضة الوبيلة التي كان يقال إنها قد بدأت تصيب بعض الناس في بغداد بشرها. فهجم النواب عليه والأدوية بيده، وأخذ يقنعه بتناول الحبوب والشرب مما كان في القنينة التي كانت معه فرفض المغني المتعجب ذلك وهو يستغيث بقوله: «لا لا لا» لكن النواب ظل يلح عليه بتناول الدواء حتى أُفهم بحقيقة الأمر.

غير أن العرب ليسوا وحدهم هم الذين يصخبون بمثل هذا الصخب، وإنما هو شيء عام في بغداد التي تعد من بين جميع الأماكن الأخرى التي

---

(١) لا شك أن صاحب الرحلة قد تسرع في تعميمه هذا أيضاً فليس من المعقول أن يقيس المرء قوماً كلهم ببعض الأشخاص الذين يرتفع صوتهم في السوق في بعض الحالات.

ذهبت إليها غريبة جداً من حيث وجود كل نوع من أنواع الأصوات التي يمكن تصوره فيها، ويعد سكانها بوجه عام أشد الناس صخباً. فالغرفة التي أسكنها الآن لها شرفة تطل على الشارع وشباكان، بحيث إن كل شيء يمر من تحتها يسمع بحذافيره كما لو كان يحصل في داخل الغرفة نفسها. ولذلك يعزف عندي قبيل طلوع النهار جوق من الديكة والدجاج الموجود في ساحة مجاورة، وترتفع أصواته. ويعقب هذا بوق النهوض الذي يدق في جناح الحرس السپاهيين التابعين للمقيمية، فيثير بدوره نباح عدد من الكلاب. ويظل النباح مستمراً حتى تبدأ الحمير بالنهيق. وما يحل ذلك الوقت حتى يكون الأعراب المجاورون الذين التجأوا إلى المدينة بسبب اضطراب الحالة في خارجها قد شمروا عن سواعدهم وأخذوا يسوقون إلى المرعى قطعان الأغنام والماشية والجمال التي جاءوا بها معهم طلباً للأمان. ولا بد أن تكون هذه الحيوانات أكثر حيوانات العالم صمماً تجاه الرعاة، أو أن الرعاة يسيئون معاملتها إساءة غير يسيرة. لأنها تُنادى بمختلف الأصوات العالية بقصد إقناعها بالحركة والخروج إلى الخارج، فيؤدي ذلك كله إلى تكوّن هدير وثغاء لا مثيل له في أي مكان آخر. وعلى هذه الشاكلة يتجمع قطيع بعد آخر فيزداد الهرج والمرج وتعلو الضجة فتشتبك الأصوات. وما تبدأ بالحركة ويقل الضجيج حتى تعقبه أصوات أخرى ويتعالى ضجيج من نوع آخر، فهناك أصوات المارة والمستطرقين والشحاذين، والأصوات المتعالية من بعيد وغير ذلك، ولا أظن أن هذه الأصوات يمكن أن تضاهيها أصوات پكاديللي بكل عرباته، ولا شارع كوكسبر أو تشرينغ كروس، ولا سميث فيلد في يوم السوق الخاص. ولا غرو فهذه بغداد الوريثة الحقة لبابل القديمة.



(٥)

أسباب الخراب في بغداد - ظهور الطاعون في المدينة - انتشاره - المقيم البريطاني يغادر بغداد - اعتذار المستر غروفز عن موافقته - تفاقم الوباء - دخول الماء من الأسوار وغرق المدينة - سقوط سبعة آلاف دار مرة واحدة - دفن خمسة عشر ألف - ذعر الباشا - إحاطة الماء بالقوافل - توقف الفيضان والطاعون - دخول الطاعون إلى بيت المستر غروفز - موت زوجته وطفله - حوادث الموت الكاسح وأسبابها - تأثير الطاعون في الأماكن الأخرى - بغداد بعد الطاعون والغرق - طاعونان آخران في سنتين أخريين - الوفيات في البصرة.

عزيزتي

كنت حينما اقتطفت مما كتبه بكنغهام[١] قد وصفت بغداد كما كانت عليه في أيام أسعد[٢] باشا. وقد أشرت أيضاً إلى ازدياد النفوس وحلول عهد زاهر تحت حكم داود من بعده. ولو كنت أقف عند هذا الحد فقد يؤدي ذلك الانطباع بكم إلى الاعتقاد بأن بغداد قد بقيت على حالتها تلك. فوا أسفاه! كم تكونون مخطئين بذلك! - آه كيف يتجندل الأبطال! - فإن بغداد الآن خراب قفر، نسبياً! وقد تم هذا التبدل بتعاقب الكوارث عليها تعاقباً مخيفاً كان يمكن أن يحصل في أية مدينة من المدن الحديثة. فقد قضى الطاعون والغرق والمجاعة، بأبشع أشكالها على السكان وقوّض أسوار هذه المدينة العظيمة

---

(١) يقصد ما جاء عن بغداد ووصفها في الفصل السابق.

(٢) الصحيح هو سعيد باشا، وسعيد هذا هو ابن سليمان باشا الكبير من ولاة العراق المماليك المشهورين. وقد حكم بين أيار ١٨١٣م وكانون الثاني ١٨١٨م، ثم أعقبه في الحكم داود باشا آخر الباشوات المماليك في العراق كما لا يخفى بعد أن قتله. وربما سمي أسعد على سبيل التحبب.

وعماراتها. وجور الانسان، وهو أشد نكالاً من نقمة القدرة الإلهية، كان ولا يزال يكتسح ما تخلف عن كل ذلك بسرعة.

ففي أواخر عهد داود باشا، أي في خلال سنة ١٨٣٠م، تكاثر أعداؤه في مجالس الباب العالي وأواسطه، فتقرر إسقاطه على كل حال. ولكنه كان قد ثبت أقدامه في مكانه بحيث إن جميع القوى الموجودة في استانبول ما كان في مقدورها أن تفعل ذلك لو لم تتدخل في الأمر يد جبارة فتنزله من عليائه. فكان داود قد عمد منذ مدة طويلة إلى تشكيل جيش كفء ونجح نجاحاً كان يمكنه أن يهزأ فيه إلى حد الازدراء بجميع الاستعدادات العسكرية التي كان بوسع السلطان أن يجردها ضده. وهكذا بقيت الحال إلى أن ظهر في بغداد، في أوائل ١٨٣١م، الطاعون الذي كان يفتك فتكاً ذريعاً في إيران. فقد كانت بعض الإصابات الفردية قد وقعت على ما يقال منذ تشرين الثاني المتقدم، ولكنها أُخفيت أو أُهملت. ولم تصبح حقيقة الطاعون المميتة، التي كان يتزايد ظلها في بغداد، شيئاً مخيفاً حتى حل شهر آذار من سنة ١٨٣١م.

ففي اليوم الأخير من آذار أغلق الكولونيل تايلور[١] بيته تبعاً للعادة الأليمة، الضرورية، التي يتبعها الأوربيون الذين يجدون بالتجربة أن هذه الحيطة إذا تم اتخاذها في الوقت المناسب فإنهم يفلتون في الغالب من المرض الذي لا ينتقل على ما يبدو إلا بالملامسة[٢] أو الاتصال الوثيق بالشخص المصاب. وفي مثل هذه الحالات يتم تسلم الأشياء كلها عن طريق خوخات تفتح في الجدار، ولا تمس مطلقاً قبل أن تغسل غسلاً جيداً بالماء. فاللحم والخضروات والدراهم كلها تمر بهذه العملية التطهيرية، والرسائل والأوراق يتم تسلمها بملقط طويل من الحديد وتبخر قبل أن تلمس باليد. ولو كان من الممكن لسكان هذه البلاد أن يضبطوا بحيث يمكن أن يخضعوا لمثل هذه

---

(١) المقيم البريطاني يومذاك.

(٢) لم يتوصل العلم الحديث إلى معرفة "باسيل" الطاعون وطرق عدواه الأكيدة إلا في ١٨٩٤م، أي بعد وقوع هذه الرحلة بسنين عديدة.

الإجراءات الوقائية لكان من الممكن أن يجرد هذا المرض من تأثيراته، ولقل عدد ضحاياه إلى حد كبير. لكن التراخي وعدم المبالاة الممتزج بعقيدة واهية بالقضاء والقدر يمنعانهم من إجهاد أنفسهم في هذا الشأن، مع أن هرب الآلاف من المدينة بأمل التخلص من الوباء الذي تسرب إلى مساكنهم يبرهن بطريقة لا تقبل الجدل بأن اعتقادهم بالقضاء والقدر غير راسخ أو تام بأي حال من الأحوال.

وقد تم هذا الفرار في الوقت المناسب، وهرب اللاجئون ولكنهم هلكوا في مكان آخر وفرصة أخرى. وفي غيرها نقل الهاربون المرض معهم ونشروا سمومه هنا وهناك حتى ماتوا ميتة تعيسة في البر أو البادية. ومع كل ما كان يبذله الأوربيون من عناية أو حيطة لم تكن هذه في بعض الأحيان كافية لدرء العدوى وإبعادهم عنهم. فالفايروس[1] على درجة من الدقة بحيث إن أقل اتصال يحصل يكون كافياً لإيصاله من شخص إلى آخر، ويستطيع أصغر حيوان نقله من محل لآخر. ولذلك تكون القطط والجرذان والفئران حيوانات خطرة في هذا الشأن، وتصبح القطط على الأخص وهي تألف الإنسان أشد خطراً عليه، ومن أجل هذا يقوم الذين لهم عقيدة بأهمية الحجر والعزل بإتلافها حيثما توجد. ومن الحوادث المميتة المسببة عن الاتصال بمثل هذه الحيوانات الحادثة التي وقعت في بيت أحد نصارى بغداد المتصلين بالمقيمية البريطانية. فقد كان هذا ممن يقتدون بالمقيم في غلق داره، وعدم فتحه لأحد. غير أن ابنته في هذه المرة لمست قطة كانت تتردد على البيت، وكانت هذه القطة قد خرجت إلى الخارج أو اتصلت بقطة أخرى فأدى ذلك إلى نقل المرض إلى البيت وإصابة البنت به فقضت نحبها. وقد كانت الطفلة المسكينة منذ اللحظة الأولى على علم بمصيرها، حيث كانت تقول «أصبت بالطاعون، وسوف أموت» فأيدت الأعراض التي ظهرت عليها ما تنبأت به وأسلمت الروح بعد أيام أربعة.

---

(١) لقد أثبت العلم الحديث في نهاية القرن التاسع عشر أن الطاعون مرض يسببه ميكروب خاص من نوع الباكتيريات العضوية (باسيلس)، وهو ليس من نوع الفايروس، كما أثبت أن عدواه تنتقل بطريق الجرذان والبراغيث وما أشبه في الغالب.

ومن المحتمل أن يكون المرض قد جيء به إلى بيت الكولونيل تايلور بطريقة عرضية مثل هذه، مع أنه هو وجميع من كان يسكن معه كانوا على علم بأن البيت ومداخله كلها كان مغلقاً غلقاً محكماً. ففي اليوم العاشر من نيسان مات أحد الحرس السپاهيين به، وأصيب أربعة من خدامه. وكان المرض قد انتشر في هذه المرحلة انتشاراً أدى إلى موت سبعة آلاف شخص في القسم الشرقي من المدينة، وهو القسم الذي كان يقع فيه مسكن الباشا والبعثة البريطانية وجميع الناس المعروفين. وكان أخبار الجانب الثاني على جانب أقل من الفظاعة، لكن هلع السكان اشتدت وطأته بارتفاع مستوى المياه في دجلة، التي انبثقت من السدود المقامة على جانبيها فغمرت الأماكن المنخفضة من الناحية الغربية، ودخلت المدينة حيث كانت ألفان[1] من البيوت قد تهدمت من قبل على ما يعتقد. وقد حيل دون الكثير ممن كان يمكن لهم أن ينجوا بأنفسهم لا بانتشار هذه المياه فقط بل بوجود الأعراب أيضاً، الذين أخذوا يتجمعون الآن حول المدينة فيسلبون الخارجين منها جميعهم إلى حد العري.

فبالحصار الذي تم على هذه الشاكلة تسنى للوباء أن يفعل ما يفعل بكل حرية، ووقع الناس فريسة له بسرعة لا تصدق. ولما وجد الكولونيل تايلور أن داره قد تسللت إليها العدوى لم يبق لديه سوى أن يستخدم الوسائل المتيسرة عنده للفرار في الوقت الذي كانت لا تزال هناك إمكانية يستغلها لذلك. وكانت زوارقه، التي كان قد جاء بها من البصرة هو وأسرته، لا تزال مشدودة بجدران المقيمية من جهة النهر بحالة استعداد للخدمة الآنية. فقرّر أن يستقلها في الحال، وكان من حسنات هذا الوضع والموقع أن تلك الزوارق قد ارتفعت بارتفاع المياه في النهر حتى صارت في مستوى الباب الخلفي للدار، وأن سكان الدار كان بوسعهم أن يتخذوا الاستعدادات المطلوبة وينتقلوا إلى

---

(١) جاء في «أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث» في هذا الشأن «.. وفي ليلة السادس والعشرين (نيسان) انهار قسم من المسناة الواقعة في الجهة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة. ففاض الماء وتساقط على أثر ذلك من الدور ألفان في بضع ساعات..»

الزوارق من دون أن يتعرّضوا إلى أي تدخل من الخارج. وحينما تم كل شيء على الوجه المطلوب دعا الكولونيل تايلور المستر غروفز، المبشر المعروف، إلى أن يصطحبه وأسرته إلى البصرة حيث يمكن بالالتجاء إلى بيت في الريف تحاشي العدوى.

على أن المستر غروفز(١) رفض استغلال الفرصة المتاحة له عن تقصد بالغ، ولم ينزل عند رغبة الكولونيل تايلور في ذلك. وكان الرجل الجليل هذا قد تعهد بالعناية بعدد معين من الأحداث، وهم أطفال بعض الأسر المسيحية في بغداد، فمنعته دوافع القيام بالواجب من اتخاذ خطوة كانت تعد في نظره تخلياً عن الواجب. فقرر البقاء في مكانه، وبعد أن وضع ثقته بالعليّ القدير الذي أنزل البلوى وهو قادر على إنقاذه أو القضاء عليه، أغلق داره التي كانت تحتوي على اثني عشر شخصاً، من بينهم معلم أرمني وأسرته، وظل ينتظر النتيجة. ويمكن الحصول على أحسن أخبار هذه الفترة المرعبة من يوميات هذا الرجل الكريم. وعلى هذا فإنني سأعمد إلى أن أقتبس منها ما يختص بالطاعون والغرق من الأخبار خلال ما يأتي من سرد القصة الموجزة عن الحالة في بغداد.

فقد غادر الكولونيل تايلور بغداد في الثاني عشر من نيسان. وفي اليوم السابق لذلك علم بأن عدد الموتى قد بلغ حد ألف ومئتين، وفي يوم السفر بالذات تأكد لدى العارفين بأن ألفاً وأربعين حادثة موت قد حصلت في الجانب الشرقي من المدينة وحده. وفي اليوم التالي لذلك علم المستر غروفز بكل ألم ومرارة بأن المرض قد تسرّب إلى الدار المجاورة لداره، التي كان قد تجمع فيها ثلاثون شخصاً، وكأنهم قد فعلوا ذلك لغرض تزويده بالضحايا المهيأة لا غير. وفي ذلك اليوم بالذات كانت الوفيات تتراوح بين الألف والألف

---

(١) Rev. A.N. Groves، مبشر انكليزي أقام في بغداد عدة سنين وفتح مدرسة فيها لأيتام النصارى من أرمن وغيرهم، وله كتيب يصف فيه أيام الطاعون الكبير هذا في بغداد الذي وقع في ١٨٣١م. والكتاب اسمه:

Journal of a Residence in Baghdad (London 1832)

وخمسمئة، وكان معظم من مات في هذا اليوم في خارج أسوار المدينة. ثم ازداد عدد الموتى إلى ألف وثمانمئة. وقد أخذ الهلع والخوف من الأحياء الباقين مأخذه بحيث كان يندر إقناعهم بالبقاء لدفن موتاهم. واتخذ الكثيرون الاستعدادات اللازمة للمصير الذي كانوا ينتظرونه بتهيئة الأكفان لهم ولأسرهم، قبل أن يؤدي الطلب المتزايد عليها إلى استهلاك المتيسر منها كله. وأصبح الماء شحيحاً أيضاً، لأن كل سقاء كنت تطالبه بالوقوف كان يرد عليك بأنه كان يأخذ حمله من الماء لغسل جثة أحد الموتى. وقد روت بنت أرمنية للمستر غروفز خبراً قالت فيه إنها كانت قد عدت خمسين جثة وهي تنقل للدفن في فسحة لا تزيد مساحتها على ستمئة ياردة. ولم يكن السكان قادرين على بذل أي نوع من الجهد، لأن الحيرة على ما يبدو قد شلّت أيديهم وأذهلتهم فأفقدتهم رشدهم. فجلسوا في بيوتهم ينتظرون الموت الذي كان آتياً لا محالة، وكأنهم قد صعقوا مما كان يمر أمامهم، ونادراً ما كان يتخايل أحد في الشوارع في هذا الوقت عدا حَمَلة الموتى والأشخاص الذين كانوا يأخذون الأكفان لهم، وعدا السقائين الذين كانوا يأخذون الماء لغسل الجثث.

وبقي عدد الوفيات ثابتاً لا يتغير ما بين السادس عشر والحادي والعشرين من نيسان، على قدر ما يمكن التأكد منه، وظل محافظاً على مستواه المقارب لألفي وفاة في اليوم والواحد. لكن حوادث كثيرة تنفرد بنوع النكبة التي تؤدي إليها كانت تحدث هنا وهناك. فإن أسرةً ينتمي إليها أحد طلاب المستر غروفز الصغار قد أصيب أربعة أشخاص من مجموع الستة الذين كانت تتألف منهم - إذ أصيب الوالد والأم مع أحد الأولاد وإحدى البنات، ولم يبق منهم سوى بنت وابن فقط. أما كتائب الباشا المعروفة التي كانت تتألف واحدتها من سبعمئة رجل، فإن بعضها قد بلغ عدد الذين أتىٰ عليهم الطاعون حد الخمسمئة. وكانت أخبار المناطق المجاورة للمدينة على أسوأ مما كانت عليه في داخلها. كما كانت المياه الطاغية في النهر يعلو مستواها علواً سريعاً كذلك، حتى أصبح خطر الغرق العام وشيكاً كل يوم.

ففي اليوم الحادي والعشرين من الشهر انبثق الماء من سراديب

المقيمية، ووصل إلى أوطأ من قمة السدود المحيطة بالمدينة بقدم واحد. وبأمل التمكن من تقديم المساعدة ذهب المستر غروفز إلى المقيمية. لكن المناظر التي شاهدها في الطريق كانت تبعث في النفس التألم والكدر إلى أقصى الحدود، ولم يكن من الممكن مطلقاً الحصول على أي نوع من المساعدة للمصابين الذين كانوا يصارعون المرض. فمن الناس من كانت زوجته تعاني سكرات الموت، ومنهم من كانت أمه كذلك، ومنهم من كان مضطرًا لأن يذهب بنفسه إلى الشط فيحمل الماء منه ليغسل طفلاً ميتاً. لأن السقاة الاعتياديين انعدم وجودهم، وإذا ما وجد منهم أحد كنت تجده مصحوباً بخادم يسوقه إلى بيت حدثت فيه حادثة وفاة. وقد امتلأت ساحة الجامع بالقبور الحديثة وأخذ الناس يدفنون الموتى في الشوارع العامة. ويقول المستر غروفز «**ان الموت قد أصبح الآن مألوفاً بحيث إن الناس صاروا يدفنون أقرب الناس إليهم من دون اكتراث يعتد به، كما لو كانوا يقومون بعمل اعتيادي**».

ولم تكن المناظر القريبة أقل من ذلك إثارةً للألم والانزعاج. ففي مقابل شبابيك الدار التي كان يقيم فيها المستر غروفز كانت هناك دربونة تؤدي إلى ثمانية بيوت، ومن هذه البقعة الصغيرة فقط كانوا يشاهدون الجثث تنقل إلى الخارج يوماً بعد يوم حتى وصل عددها إلى سبع عشرة جثة. وفي اليوم الثالث والعشرين توفيت أم السيد، صاحب البيت الذي يسكنه المستر غروفز، في بيتها ولما لم يكن من الممكن الحصول على مساعدة أحد لنقلها إلى مدفنها في الخارج قبرت في بيتها من قبل خادمتيها اللتين سرعان ما أتى الموت عليهما من بعدها. ونظراً لعدم وجود أحد له علم بمصيرهما فقد بقيت جثتاهما في مكانهما، تملأ رائحتهما الجو، حتى نهبت الدار بعد ذلك بمدة وجيزة وكسرهما بابها فأصبح أمرهما معروفاً[1].

---

(١) جاء في النص ٣٩ و٤٠ من كتاب (تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام داود باشا) لمؤلفه عبد القادر الخطيبي الشهراباني الذي نشره الأب انستاس الكرملي في ١٩٣٦م: «.. فوقع الطاعون في بغداد وكثر الموت فما بقي شعور عند الأحياء =

وفي هذا اليوم نفسه شوهدت بنت صغيرة عمرها اثنتا عشرة سنة وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها في الطريق، وحينما سئلت عنه أجابت بأنها لم تكن تعرف من هو - لقد وجدته في الطريق وعلمت أن والديه قد توفيا. وقد كان عمل الطفلة هذا ضرباً من العمل الخيري الشائع جداً يومذاك، وخاصة بين الإناث من الناس، لكنه كان شيئاً مميتاً في كثير من الأحايين. إذ ذكرت امرأة أرمنية جاءت تستعطي شيئاً من السكر لطفل التقطته على هذه الشاكلة أن جارتها كانت قد أنقذت طفلين بنفس الطريقة بعد أن وجدتهما متروكين في قارعة الطريق. فمات الطفلان كلاهما ثم أعقبتهما هي نفسها. ومن بين جميع الحوادث المؤلمة المقترنة بالحملات الخيرية التي كان يتولاها المستر غروفز أحياناً عند خروجه من البيت، كان منظر الأطفال العديدين المتروكين على هذه الشاكلة أشد المناظر إيلاماً. فقد كان الآباء والأمهات، حينما يجدون أنفسهم قد أصيبوا بالمرض، يعمدون إلى أخذ أبنائهم المرشحين لليتم ويتركونهم بالقرب من أبواب البيوت المجاورة «إلى رحمة الغرباء في وقت قضت فيه التعاسة الشخصية على كل إحساس بشري». كما يقول المستر غروفز. ثم يتابع وصفه قائلاً: «وكان الكثير من الأطفال المتروكين على هذه الشاكلة لا يزيد عمرهم على عشرة أيام. وقد وجدت في طريقي إلى المقيمية ثمانية أو عشرة من مثل هؤلاء ولم يتيسر أي عون أو أمل انساني لهم، إلا إذا كان بوسع الذين تركوهم أن يعودوا

= من دهشة ما حل بهم. يكفيك أن الوالدة لفظت ولدها في الطريق. والخلاصة ما بقي أحد ليغسل الموتى، ولا بقي من يحفر حفائر ليدفنوا الموتى. في ذلك الوقت المهول المرحوم بكر أفندي كان متوفياً فما وجد أحد يغسله ويدفنه، وبعد ثلاثة أيام مرّ رجل من الغرباء على بيته فشم رائحة نتنة، فأتى به إلى مسجد يقال له مسجد بير دود فرأى حفرة فرماه فيها... وبعد عشرين يوماً خلص الطاعون وتراجعت الناس وأمر داود باشا من بقي من معسكر الحيطة (الهايته) أن يدوروا في البلد، وعلى كل من يرى ميتاً أن يرميه في الشط مقابل أجرة تساوي مئة قرش. فتفرق هؤلاء المأمورون في البلد، وبقوا يسألون الناس عن الأموات الذين باقين على وجه الأرض من غير دفن فيحملونه ويرمونه في الشط..» (تلاحظ ركاكة اللغة).

إليهم فيسترجعونهم من الطريق بعد أن ييأسوا من عطف الغرباء عليهم. وقد خابت جهودي المخلصة كلها في إيجاد أي نوع من المساعدة المثمرة لنجدة أولئك الصغار الأبرياء، وكانت أسرتي أيضاً ليست في وضع تستطيع فيه تقديم أية مساعدة لهم حتى لو خاطرت بجلب العدوى إلى بيتي».

وفي الرابع والعشرين من الشهر أدى سقوط أحد جدران المقيمية بسبب المياه المترشحة في داخلها إلى قيام المستر غروفز بزيارتها مرة أخرى. فلم يصادف في طريقه إلى هناك ولا نسمة واحدة من الناس في الشوارع، عدا الذين كانوا يحملون الجثث والأشخاص المصابين بالطاعون الوبيل. وكانت صرر الملابس، من مخلفات الموتى، ملقاة بالقرب من كثير من الأبواب. وقد أُغلقت ساحة الجامع الكبير، إذ لم يبق فيها مكان لهم. ولذلك كان الناس يحفرون القبور في جوانب الطرق، وحتى في الطرق نفسها، وفي كل بقعة فارغة أخرى. وبينما كان المستر غروفز يتحدث إلى الخادم الوحيد الذي بقي حياً من خدم الكولونيل تايلور في المقيمية تناهى إليه أن عمته، التي كانت ثامن شخص من أقاربه يصاب بالعدوى، قد قضت نحبها مثل غيرها. ومات هذا اليوم كذلك بائع مشهور من باعة قطن الأكفان، بعد أن كان يستغل حلول النكبة ويبيع القطن بأسعار مرتفعة. ولذلك لم يبق في المدينة شيء من هذه السلعة. وارتفع سعر الحبال أيضاً إلى أربعة أضعاف سعرها الأصلي. وبدلاً من أن تدفن الجثث بموجب مراسيم الدفن المعتادة صارت تلقى حتى جثث الموسرين من الناس على ظهور البغال أو الحمير ثم تؤخذ لتدفن في حفرة من الحفر. ومما يذكره المستر غروفز أنه صادف في طريقه نساء عربيات كن يقمن بإيماءات غريبة تلفت النظر - وكأنهن كن يخاطبن بها الله عز وجل متعجبات من بقاء الإفرنج والكفار مثله على قيد الحياة، بينما كان يموت ذلك العدد الكبير من المسلمين. فكان تأثير ذلك عليه شيئاً مرعباً ومؤلماً، خاصة وقد كان في تلك اللحظة محاطاً بالموتى وزمجرة الكلاب التي كانت تنهش بالجثث (حتى قبل أن يسلم أصحابها الروح أحياناً إلى بارئها)، المختلطة بصراخ الأطفال الملقاة في قارعة الطريق، الأمر الذي كان يتكوّن منه منظر مفزع فظيع لا يمكن أن ينمحي من ذاكرته.

وقد ازداد عدد الوفيات في هذه الأثناء ازدياداً ملحوظاً. إذ تأيد في اليوم السادس والعشرين من الشهر لدى المسؤولين في السراي بأن عدد الموتى بلغ خمسة آلاف نسمة في يوم واحد - ولا شك أن العدد قد ازداد بمقدار أربعة آلاف على ما يبدو، وكان هذا من مجموع السكان الذي لم يكن يتجاوز في ذلك الوقت الخمسين أو الستين ألفاً. لأن ثلث السكان على الأقل كانوا قد غادروا المدينة. ثم ارتفع مستوى الماء ارتفاعاً مخيفاً كذلك، فكان توقع ما يمكن أن يؤدي إليه تدفقه إلى المدينة شيئاً فظيعاً. على أن جميع ما كان يتوقعه الناس بفظاعته قد تجاوز التحقق في اليومين التاليين. ففي تلك الليلة تهدمت كتلة كبيرة من السور فاندفع الماء بكل قوته إلى داخل المدينة، وغمر محلة اليهود بسرعة، فتهدمت مئتا دار من دورهم في الحال. وقد سقط كذلك قسم من سور القلعة، ولم يكن هناك أمل كبير بإمكان بقاء أي بيت أو جدار قائماً عند تسرب الماء إليه بالنظر لطبيعة الملاط الذي تبنى به الجدران وقابليته للتفتت. وما حلت الليلة الثانية حتى كان القسم الأسفل من المدينة بأجمعه تحت الماء، فسقط على ما يقال سبعة آلاف دار مرة واحدة، دافنة بذلك المرضى والذين كانوا يعانون سكرات الموت والأموات والأصحاء في رمسٍ مشترك. والمقول استناداً إلى مراجع موثوقة أن ما لا يقل عن خمسة عشر ألف شخص، مريض وغير مريض، أتى عليهم الماء فأغرقهم بلججه في هذه الحادثة وحدها. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار احتشاد السكان في الأماكن التي كان يمكن الالتجاء إليها من المدينة، وتعذر الهرب على الناس في الخارج بسبب الطوفان الحاصل، نجد أن هذا العدد ليس مما لا يمكن تصديقه على كل حال. وقد جاء القليلون الذين نجوا من هذه الكوارث بمخلفات أُسرهم المحطمة إلى الدور التي بقيت سالمة في الأجزاء المرتفعة من المدينة وخالية بسبب الهجر أو الطاعون، وبهذه الوسيلة زودوا الوباء الفتاك الذي كان لا يزال مرابطاً في المساكن التي أشغلوها بغذاء جديد. ويعلق المستر غروفز على هذا الحادث بقوله «ليس هناك شيء يمكن أن يعطي فكرة مثيرة حقاً عن مقدار تعاسة الأفراد وبؤسهم في هذه الفترة أكثر من مرور هذه الحادثة المخيفة من دون ملاحظة تذكر، أو جهد يبذل للتفريج عن المصابين بوطأتها، بينما كانت

حادثة مثل هذه إذا وقعت في أي وقت آخر لا يتردد ذكرها على كل لسان فقط وإنما تبذل أيضاً أشد الجهود وأعظمها لمساعدة المتضررين بها».

وقد بلغت صعوبة الحصول على المؤن أشدها في هذه المرحلة. إذ صار الأشخاص المحترمون جداً يدورون على الأبواب ليستجدوا شيئاً من أبسط الضروريات اللازمة للعيش. وكذلك ازداد عدد الموتى المتروكين في الشوارع إلى درجة مخيفة. وتعذر وجود الوسائل اللازمة لرفع جثثهم ودفنها. وقد شارك في هذا الوضع الذي وصلت فيه الشدة حدها الأقصى مشاركة تامة عاهل المدينة المبتلاة وسيدها الهمام. إذ أصبح السراي شبيهاً بمساكن القسم الأعظم من رعاياه - أي كومة من الأنقاض يقبع فيها هو نفسه، وهو على أشد ما يكون من الرعب والحيرة. وقد صرح لخادم من خدام المستر غروفز بأنه كان لا يعرف أين ينام فيضمن سلامة نفسه. حيث إنه كان يخشى في كل ليلة أن يدفن بين أنقاض القسم المتبقي من مسكنه. ولذلك بعث يطلب الزورق الباقي لدى المقيمية لعله يستطيع الهرب به من المدينة، لكن نوتيته لم يكن قد بقي منهم على قيد الحياة سوى رجل واحد، وحتى الباشا لم يستطع تأمين الرجال اللازمين لتشغيله. ويقول المستر غروفز في هذا الشأن «إن الخوف منه لم يعد له أثر بين الناس، ولم يعد لمحبته وجود». فكان حتى في قصره مجرداً عن السلطة، لأن الموت كان يعمل جاهداً فيه كما كان يعمل في أي مكان آخر، وتضاءلت السلطة التي كانت مطلقة في أيام الحكم البشري حتى أصبحت في حكم العدم تجاه تأثيرات القدرة الإلهية. فمن مجموع المئة گرجي الذين كانوا يقفون في خدمته لم يبق على قيد الحياة سوى أربعة فقط. وجل ما كان يمكن عمله هو أن يُرمى الموتى من الشبابيك إلى النهر لئلا تسري عدواهم إلى الأحياء وليحال دون التأثير على نفسيتهم. ثم تهدمت اصطبلات القصر كما تهدم القصر نفسه، فصارت خيول الباشا جميعها تهيم على وجهها في الشوارع حيث كان بوسع كل أحد أن يقبض عليها، فبيعت معظمها إلى الأعراب. ولذلك علق المستر غروفز على وضع الباشا يقول «إذا كان الباشا على مثل هذا الحرمان من العون والمساعدة فأي بؤس وشقاء كان لا بد أن يرزح تحتهما الجمهور الأعظم من الناس الذين تركوا ليصارعوا الموت وحدهم».

وفي أثناء هذا الصراع الرهيب مع الموت كانت المناظر المحيطة ببيت المستر غروفز وأسرته على مقدار كبير من الكآبة والعسر، مع كل ما حبتهم به العناية الإلهية من تحاشي المرض الحقيقي وأخطاره. فمن الدربونة الصغيرة المقابلة لهم كانوا قد شهدوا بأم رأسهم خمسة وعشرين جثة تحمل إلى الخارج، وكانوا على علم بوجود عدة أشخاص مرضى فيها. وفي إحدى الدور التي كانت تحتوي على ثماني أنفس لم يبق سوى شخص واحد على قيد الحياة، وعلى الشاكلة نفسها لم يبق من الثلاثة عشر شخصاً الذين كانت تضمهم دار أخرى بقربها سوى نفر واحد. ولم تكن هذه حوادث فريدة في بابها بأي حال من الأحوال. فمن مجموع الثمانية عشر خادماً وسپاهياً الذين كان الكولونيل تايلور قد تركهم لرعاية المقيمية لم يبق في نهاية الشهر غير أربعة، وحتى هؤلاء أُصيب اثنان منهم بعد ذلك ففارقا الحياة. وكان في المؤسسة التابعة للمستر غروفز خمسة معلمين للغتين العربية والأرمنية، فأتى الموت على كل واحد منهم وأزالهم من الوجود. ومع كل هذا السيل الجارف من الموت الذي كان يكتسح الناس زرافات ووحداناً، لم يقلل المرض من ضراوته ولم يتناقص عدد الوفيات اليومية. فقد تجمع السكان الباقون في بقع أضيق فأضيق من المدينة بتأثير الغرق الذي داهم الكثير من محلاتها، فهيأ ذلك لسهام الطاعون ونباله أهدافاً أوضح ومقاتل أسهل نيلاً. ولا غرو فإن تدفق السكان من المناطق المغمورة بالماء على البيوت الملوثة من قبل قد هيأ للوباء ضحايا جديدة، فبقيت جثث الموتى وهي تنفث سمومها في جميع باحات البيوت وفُسح المدينة، وتملأ الشوارع فتربك الحالة فيها.

ولم يكن هذا القضاء المخيف على الأرواح البشرية مقتصراً على المدينة وحدها، فإن قافلة كبيرة إلى دمشق كانت قد غادرت بغداد في بداية أمر الطاعون، لكنها أخذت العدوى المميتة معها وصادفت في طريقها بالإضافة إلى ذلك عدواً آخر لا يقل عن الطاعون قدرة على الفتك والدمار، وهو الفيضان. فالتجأت إلى بقعة من الأرض مرتفعة ارتفاعاً نسبياً وبقيت محاصرة هناك لمدة أسابيع ثلاثة كان الماء خلالها يضيق الخناق عليها باستمرار ويقلل

عدد أفرادها يومياً، فكان رئيس القافلة «قافلة باشي» في عداد الموتى منهم. وقد حاول الكثيرون أن يعودوا فيجربوا حظهم فيعيشوا في بيوتهم من جديد لكن الزوارق كان يندر الحصول عليها، كما كان القليل الذي يمكن الحصول عليه منها يسام غالياً بحيث لا يستطيع الاستفادة منه إلا القليل منهم.

وعلى الشاكلة نفسها، خرجت قافلة من بغداد متوجهة إلى همذان في إيران وهي تتألف من ألفي شخص. فحملت الوباء معها وأدى ذلك إلى موت نصفهم في الطريق. فكانت هذه القافلة تترك في كل منزل تنزل به من ستين إلى سبعين جثة ملقاة على الأرض، كما كان عدد غير يسير يموت في أثناء المسير على ظهور الخيل والبغال أو يقع من فوقها حينما يمرض فيترك ليموت على قارعة الطريق، وتسلب لوازمه من قبل الذين لم تمتد إليهم يد الموت.

والأنكى حتى من كل ذلك ما كانت عليه حالة الألوف الذين تأخروا بالفرار من الطاعون فأحاطت بهم المياه الفائضة وقضت عليهم. فقد اضطروا إلى التراجع إلى البقع المرتفعة إلى الأرض، وظلوا يرقبون المياه وهي تطغى وترتفع من حولهم حتى صعدت إلى ارتفاع نصف ياردة في كل خيمة. ولم يتيسر لهم الطعام ولا الوسائل اللازمة لإشعال أي نوع من النار. ولذلك لم يكن بوسع المريض ولا المعافى أن ينام أو يستلقي، والأسوأ من هذا أنهم لم يكن لديهم من الوسائل ما يستطيعون به أن يدفنوا الموتى الذين كانوا يزدادون بينهم. وقد حاول البعض وهو نصف مخبول من اليأس أن يعود فيموت في بيته، لكن المياه لم تترك له أي سبيل وتعذر الحصول على الزوارق بأي ثمن. ومما كان يزيد في حراجة الموقف الذي كان يقف فيه هؤلاء اللاجئون أن الذين كانوا يتوفقون في الإفلات من حصار الماء كانوا على يقين بأنهم لا بد أن يقعوا في أيدي اللصوص من الأعراب الذين كانوا يسلبون جميع من يصادفونه، نساءً ورجالاً، من دون تمييز.

وفي أثناء تراكم هذا المقدار الكثير من التعاسة والشقاء البشري لم يكن هناك أروع من الهدوء الشبيه بهدوء الموت الذي كان يخيّم على المدينة في جميع أرجائها. فقد كف الملالي عن الأذان للصلاة، وتخلّى النادبون عن ندب

الموتى. ووصف المستر غروفز ذلك بقوله: «**إن البلية ألجمت الناس بحيث كان المرض يستولي على اللب حينما كان يفكر المرء به**».

وقد كانت أول لمحة من لمحات الفرج في مضاعفات الألم هذه ومعاناته تنطوي في هبوط مستوى المياه الذي حصل في بداية أيار. وبعد ذلك بمدة وجيزة جيء بشيء من الرز من الجانب الآخر. وكان محتكرو الحطب الذين استغلوا احتياج السكان المساكين وعوزهم قد وقعوا فرائس للوباء فأصبح الحصول على ما كان عندهم من وقود شيئاً ممكناً. ثم تسنى للمساكين التعساء الذين لم يتذوّقوا طعاماً مفيداً مدة طويلة من الزمن أن يطبخوا طعاماً مناسباً. وبعد قليل، أي في الرابع من أيار، ظهرت بوادر التخفيف من وطأة الطاعون نفسه. إذ كانت الأيام التي سبقت ذلك جميلة وسماؤها صافية الأديم، وبشّر ارتفاع الحرارة بالحد من ضراوته. وفي ذلك اليوم نفسه قل عدد الحالات المرضية الجديدة وهبط عدد الوفيات أيضاً، بينما تطاولت قائمة المتماثلين إلى الشفاء. «وقد سرّت أنظارنا» على حد قول المستر غروفز «حينما رأينا ثلاثة أو أربعة من السقائين يعودون للعمل وهو أول منظر نشاهده من هذا القبيل خلال عشرة أيام. كما شوهد المزيد من الناس يمرون بالأزقة والشوارع، وفي هذه الليلة سمعت لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع الملالي يؤذنون للصلاة».

ومنذ هذا الوقت فصاعداً كانت أخبار المدينة تتحسن بالتدريج. غير أن ما يؤسف له أن المرض الذي لم يتعرّض لبيت المستر غروفز حتى الآن ظهر فيه في اليوم السابع من أيار، وكما هو معروف تمام المعرفة كان على ذلك الرجل الممتاز والمسيحي المتفاني أن يتحمل المصاب المؤلم بفقد زوجته وطفله. ثم أصيب شخصان آخران هناك فماتا كذلك، وقد كان أحدهما المعلم الذي سبق له أن فقد على هذه الوتيرة من قبل أربعين قريباً من مجموع أربعة وأربعين.

هذا وبوسعنا ان نستمر في سرد حوادث الموت الكاسحة التي عرف بها سير الطاعون في هذه الفترة وتمادى في ذلك من دون توقف. فقد محيت مئات الأسر عن آخرها، ولم يبق من كثير من الأسر الأخرى التي كان يبلغ

عددها عشرين أو ثلاثين شخصاً سوى شخص واحد أو شخصين فقط على قيد الحياة. وذكر أحد الأرمن للمستر غروفز أن سكان المئة والثلاثين داراً التي كانت تتكوّن منها محلته لم يبق منهم حيّ سوى سبعة وعشرين شخصاً فقط. كما أخبر ابن الملا المتصل بالمستر غروفز أن المحلة التي يقيم فيها هو لم يبق فيها حيّ ولا شخص واحد، فقد ماتوا كلهم. أما السيد إبراهيم، الخادم الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من خدام الكولونيل تايلور، فلم يسلم من أسرته البالغ عددها أربعة عشر شخصاً سواه هو وحده. ومن حوادث الوفيات الفريدة في بابها، التي حصلت في جهات الباشوية الأخرى، يمكن أن أذكر أن الحلة لم يكد يبقى فيها أحد من الناس بسبب الطاعون، بعد أن كان عدد نفوسها قبل الطاعون يناهز العشرة آلاف نسمة. ويبدو مما استطعت أن أحصل عليه من الأخبار، ومما يرتأيه المستر غروفز، أنه من المحتمل جداً أن يكون الطاعون قد أتى على ثلثي[1] السكان كلهم في بغداد، وأن عدد الذين وقعوا فريسة لهذا المرض لم يكن أقل من مئة ألف نسمة إذا لم يكن أكثر. ولا شك أن عدد الوفيات قد ازداد بصدفة الفيضان المؤسفة، فقد وقع أولاً في الريف فحال دون هروب الناس من الطاعون وحاصر القسم الأعظم منهم ما بين الأسوار. ثم تسرّبت المياه إلى المدينة نفسها وعند ذلك لم تغرق الألوف من الناس أو تدفن في خرائب البيوت فقط وإنما احتشد من بقي على قيد الحياة

(١) لقد ظل الطاعون خطراً مرعباً في جميع أنحاء المعمورة على مر الدهور وكر القرون، وظل شبحه المخيف يقض مضاجع الأمم ويقضي على الملايين من نفوسها حتى استطاع العلم الحديث تشخيص ميكروبه وتعيين طريقة عدواه في نهاية القرن التاسع عشر. فقد بلغت ضحايا الطاعون في روما سنة (٨٠) للميلاد عشرة آلاف نفس في اليوم الواحد. وقضى الطاعون الذي انتشر في أوروبة كلها عام ١٣٤٨م على (٢٥) مليوناً من البشر، أي على ما يقرب من ربع السكان فيها جميعهم. فهبط عدد نفوس روما بهذا السبب إلى عشرين ألف نسمة فقط. ومات في فلورنس وحدها ما يزيد على (١٠٠) ألف نسمة. هذا وقد كان ضحايا هذا الطاعون الوبيل تبلغ الملايين في البلاد الأسيوية، وخاصة الكبيرة منها مثل الهند والصين.

منهم في مساحة ضيقة فوق البقع الجافة من الأرض، واضطروا على اللجوء إلى البيوت الملوثة بجماعات يتراوح عدد أفراد كل منها بين العشرين والثلاثين، وهم محاطون بالفساد والتفسخ، ومحرومون من الملابس والمؤونة، أو وسائل إشعال النار. وقد كان تراكم الجثث غير المدفونة كذلك مؤدياً إلى تفاقم التأثيرات الناجمة عن تفشي الطاعون، بتلويث الجو وجعله أشد إيذاءً وإهلاكاً للنفوس(١).

---

(١) لقد وقعت قبل هذا الطاعون المخيف في العراق طواعين أخرى كان لها تأثيرها البين في إماتة الروح فيه خلال تلك الأيام الخوالي. وأذكر فيما يلي ما وقع منها في الحقبة المنحصرة بين العقد الأخير من القرن السابع عشر للميلاد وسنة ١٨٣١م، أي السنة التي وقع فيها هذا الطاعون. فقد حدث قبيل وصول والي بغداد الحاج حسن باشا الكبير إلى العراق أن تفشى الطاعون فيه سنة ١٦٨٩م وظل يفتك بالناس وتشتد وطأته مدة تزيد على الخمسة أشهر. وبلغ من ضراوته وكثرة ضحاياه أن صار يسميه البغداديون «أبو طبر»، والمعتقد عند بعض المؤرخين أن هذا الطاعون قد فتك بمئة ألف نسمة من السكان وقضى عليهم. وقد سرت عدواه إلى بغداد من مندلي على أثر مجاعة كبيرة بدأت بالموصل والمناطق المجاورة لها، ثم امتدت إلى العراق الأوسط والجنوبي نظراً لقلة الأمطار وجفاف الحقول. فأدى تقاطر السكان إلى بغداد بهذا السبب إلى انتقال المرض إليها وانتشاره في محلاتها. ثم عاد هذا الطاعون إلى بغداد في السنة التالية (١٦٩٠م)، فكان أشد فتكاً وضراوة من قبل على ما يقال ودام مدة تناهز الثلاثة أشهر فمات من جرائه خلق كثير. ثم سرت عدواه إلى الجنوب حتى وصل إلى البصرة. وتقول بعض الروايات إن ضحاياه فيها قد زادوا على عدد الضحايا التي جند لها في بغداد بحيث إن الناس في البصرة قد عجزوا عن دفن موتاهم، فصاروا يوارونهم التراب في المحل الذي كانوا يقعون فيه. وفي أواخر سنة ١٧٣٧م تفشى الطاعون في الموصل وبقي مقيماً فيها إلى السنة التي تلتها، فبلغت إصاباته ألف إصابة في اليوم الواحد. ولم تمض سنتان على ذلك حتى ظهر الطاعون في بغداد أيضاً، فقضى على خلق كثير من سكانها.

وفي سنة ١٧٧٢م تسلل الطاعون من استانبول إلى بغداد وظل فيها مدة تناهز الستة أشهر. ومن أجل هذا خرج الكثير من الناس إلى القرى والأرياف فراراً من شره، =

ومع هذا، فحتى في حالة عدم وجود مثل هذا الاتفاق في الأسباب

= ومن جملتهم الوالي عمر باشا الذي خرج إلى ضواحي الأعظمية وخيم فيها مدة تزيد على الشهرين. وفي رحلة أبي طالب أن سبعين ألفاً من الناس قد ماتوا في أول أدوار الإصابة. وبذلك قضى الموت بهذا المرض الوبيل على عدد غير يسير من البيوتات والأسر، وارتبكت أحوال البلاد بتأثيره فانعدم الأمن وتوقفت التجارة وقلت الحركة. ومع هذا فقد سرت عدواه بعد ذلك إلى البصرة وبوشهر أيضاً. وإلى القرى والبوادي.

وقد أمحلت الدنيا وانقطعت الأمطار في شتاء سنة ١٧٨٥م فعم القحط بسرعة. لأن انقطاع الأمطار في هذه السنة كان قد حصل في السنة التي تقدمتها أيضاً. ولذلك ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بلغ فيه سعر الوزنة من الحنطة ثمانية قروش، ومن الشعير ستة قروش. فاضطر الوالي سليمان باشا الكبير إلى توزيع المخزون من الأطعمة على الأهلين بأسعار واطئة. ومع هذا كله لم يكن ينفع هذا التدبير. فهاج البغداديون ، وهاجموا سراي الحكومة فاضطرت إلى ردهم بالسلاح وتأديب المحرضين منهم. وفي نهاية هذه السنة بالذات تفشى الطاعون فكان فتكه بالناس ضغثاً على إبّالة. وقد دام عدة أشهر وقضى على ما لا يحصى من الأرواح.

وفي السنة الأولى من سني القرن التاسع عشر ظهر الطاعون في بغداد أيضاً فقضى على الكثير من معالم الحياة فيها. وقد صادف ظهوره هذا قبيل وفاة الوالي سليمان باشا الكبير. فاضطر إلى الفرار والتوجه إلى بلدة الخالص حيث خيم مع حشمه وحاشيته في مكان يدعى "ميدان السلق" وكان يشكو من داء المفاصل الذي اشتد عليه وفي وقت ظهور الطاعون. ولم تمض سنتان على ظهوره هذا في بغداد حتى داهمها من جديد في سنة ١٨٠٣م، ودام فيها مدة تزيد على الثلاثة أشهر. وقد عاث فتكاً وفساداً في بغداد وما جاورها، فاضطر الوالي علي باشا أن يؤخر عودته إلى عاصمته المنكوبة من حملته التي ذهب على رأسها لتأديب العصاة في سنجار.

وفي سنة ١٨٢٠م وصلت الهيضة (الكوليرا)، أو الهواء الأصفر، من الهند إلى البصرة ففتكت فتكاً ذريعاً فيها وقضت على ما يزيد على الخمسة عشر ألف نسمة من أهاليها. ومن ثم أخذ هذا المرض يزحف إلى الشمال بالتدريج فوصل سوق الشيوخ والعرجة والسماوة، وانتشر بعد ذلك بين عشائر الشامية، ومنها وصل إلى الحلة وكربلاء، ثم إلى بغداد نفسها. وبعد أن قضى على الكثير من الأنفس فيها زحفت =

المؤسفة كان لا بد لوباء مثل هذا أن يحدث في أية مدينة شرقية أخرى تأثيره المعروف الذي لا يمكن أن يحصل في المدن الأوربية، في أيامنا هذه على الأقل، بوجود قوة نظامية من الشرطة. فإن فائدة حجر الناس وعزل البيوت عن العدوى أصبحت حقيقة لا جدال فيها. إذ من النادر أن يصاب أحد من الأوربيين في استانبول أو غيرها حينما تتخذ مثل هذه الحيطة. ولو كان من الممكن إقناع الأهلين هنا باتخاذ تدابير وإجراءات مماثلة لكان من الميسور لتأثيرات هذا المرض المميتة، وربما لمدة بقائه أيضاً، أن تتناقص على وجه التأكيد.

وقد تكلمت بإسهاب عن الطاعون في بغداد على الأخص، لأن تأثيراته ازداد وقعها فيها أكثر من أي مكان آخر نظراً لما شاهدته بنفسي منها. غير أنه من النادر أن تجد مدينة من المدن الإيرانية لم يحصل فيها مثل ما حصل هنا، باستثناء ما حصل من الغرق وفيضان المياه. فقد فقدت كرمنشاه وهمذان وكردستان كلها نسبة أكبر من سكانها، وكذلك فعلت مازندران وأستراباد. كما هبط عدد النفوس في منطقة گيلان كلها إلى خمس العدد الأصلي - ويدّعي الأهلون أن هذا الهبوط في عدد النفوس وصل إلى حد العشر فيها وأقفرت رشت فخلت من سكانها بالكلية، وكذلك فعلت لاهيجان وفومن وتيريگورام وما أشبه. تصوّروا هذا الاكتساح الرهيب للحياة البشرية، وهذا المقدار الهائل من العذاب والمعاناة، أنه يعزى في الدرجة الأولى إلى الجهل وسوء الإدارة! وفكروا بنعم المدينة وبركاتها - فبجهاز حكومي منتظم، وإجراءات مستمدة من الإدراك والخبرة، يمكن بعون الله وتقديره التخفيف من وطأة هذا الوباء المخيف وحدته، إذا لم يمكن تحاشيه بالكلية.

أما بالنسبة لبغداد نفسها، فقد فر الطاعون منها في الأخير أمام حرارة

= عدواه إلى الشمال كذلك، فتفشى في كركوك وقضى على نحو من ألف نسمة فيها. وانتقل من هناك إلى السليمانية وما جاورها، ويروى في هذا الشأن أن الوالي داود باشا طلب من طبيب المقيمية الإنكليزية في بغداد جلب الأدوية اللازمة لمكافحة الهيضة هذه فجيء بها متأخرة من الهند.

الصيف المتزايدة. فبحلول اليوم السادس والعشرين من الشهر انقطع ظهور الإصابات فيها. ففتح المستر غروفز بيته بعد ذلك في الحال، وخرج القلائل من السكان الباقين على قيد الحياة من البيوت ليتفرجوا على حطام مدينتهم المهيضة الجناح. وقد كان المنظر يبعث في النفس قدراً كبيراً من الكآبة وانقباض النفس. فلم يبق قائماً من بنايات بغداد كلها سوى مجموعة صغيرة على ضفاف النهر حيث كان مستوى الأرض مرتفعاً، وجامع واحد أو جامعين كانت جدرانهما وأسسهما قد شيّدت بمزيد من المتانة منذ البداية. وحتى البنايات التي بقيت قائمة بعد كل ما حدث يندر أن توجد واحدة منها لم يحصل فيها شيء من التصدع أو التخريب. وقد استمر سقوط الدور وتداعي الجدران حتى بعد هبوط منسوب المياه في النهر، بالتأثير الذي أحدثه الماء في مواد البناء والانخساف الذي أخذ يحصل في الأرض. وفيما وراء هذه المجموعة من الأبنية كان يمتد إلى جميع الجهات فضاء خالٍ يصل إلى الأسوار نفسها، ويتسم ببقايا الجدران المهدمة وخرائب الدور التي يتكون منها ما يزيد على ثلثي المدينة. وكانت توجد هنا وهناك بحيرات كبيرة تخلفت في البقع المنخفضة من الأرض بعد انحسار المياه الفائضة. ومن بين خطوط الأسواق الطويلة، أصاب الخراب العام عدداً غير يسير منها، وقد مرت مدة طويلة قبل عودة الأسواق التي بقيت غير مهدمة إلى الامتلاء، والدكاكين إلى فتح أبوابها من جديد بمقدار يعتد به. فإن معظم التجار، وجميع الصناع وأرباب الحرف تقريباً، قد أتى عليهم الموت فأزالهم من الوجود. وإنك في هذا اليوم لو أردت أن تحصل على بعض الحاجيات المصنوعة، التي كانت تشتهر بصناعتها هذه البلاد، يقال لك «آه»، إن ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لأن جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا». ولذلك فقد انمحت من هنا صنعات معروفة بأكملها، ومر وقت غير يسير قبل أن يصبح من الميسور للسكان الباقين على قيد الحياة الحصول على ضرورياتهم الاعتيادية، كالأغذية والملابس.

وبعد ذلك جاءت المجاعة الشريرة تكشر عن أنيابها فقضت على قسم من الأحياء الذين بقوا في المدينة بعد الطاعون، لكنني سوف لا أتطرق إليها بشيء. على أن خراب القرى المحيطة بالمدينة، وتأثيرات الحرب وما سببه

الجشع الإنساني من حمل سكان المناطق المجاورة على الالتجاء إلى البلدة، كان من شأنه أن يكسو هيكل بغداد الخاوي بمقدار من السكان الذين كانوا، على قلة عددهم بالنسبة لما كانوا عليه من قبل، كافين ليصبحوا أهدافاً جديدة لهجمتين جديدتين من هجمات الطاعون ويقدموا لهما خمسة آلاف ضحية في الأولى وسبعة آلاف في الثانية(١). وكان السبب في وافدة الطاعون الأخيرة التي انتهى أمرها في شهر أيار الأخير طمع حاكمها الحالي الذي بدلاً من أن يمنع كل اتصال ممكن مع كرمنشاه لتفشي الطاعون فيها في مثل هذا الوقت، عرّض المدينة لوافدة وبائية كان يمكن أن تضاهي وافدة ١٨٣١م بفظاعتها، برغم تحذير المقيم البريطاني وتذكيره بالعواقب الوخيمة، لأنه كان يطمع بالإتاوة التي يقبضها من الزوار الإيرانيين. وسواءٌ أكانت طبيعة الوباء نفسها على جانب أقل من الضراوة في هذه المرة، أم كان الغذاء المتوافر لها قد تناقص مقداره، لأن التربة التي ينهكها الحاصل الزراعي يندر أن تغل في أعقابه حاصلاً وفيراً آخر، فقد كانت الوفيات في هذه المرة أقل من وفيات الطاعون الأول بكثير. ومن أسباب هذا الفرق المقترن بالحظ تيسر الحرية للناس في الهرب إلى الخارج هذه المرة عند أول ظهور المرض. لأنهم لم يصادفوا أية معارضة لا من الإنسان ولا من المياه الفائضة عند خروجهم، فاستغلوا هذه الحرية إلى أقصى حدودها. ولذلك هربت مناطق وجماعات بأسرها إلى الخارج، مع جميع متاعها، عند أول ظهور المرض. فخرج اليهود كلهم على الأخص، وكان من نصيب الخارجين جميعهم أن شملتهم العناية الإلهية برعايتها فلم يمسسهم ضرر. أما في حادثة الطاعون الأولى فإن الباشا نفسه كان قد تدخل في الأمر ومنع الناس من الحركة بأمل الحيلولة دون ما حصل من انتشار الذعر والهلع بين جميع طبقات الناس عند أول ظهور الوباء في المدينة، ثم جاء الفيضان بعد ذلك فحاصرهم حصاراً تاماً. وقد بذلت نفس المحاولة في البصرة كذلك، حيث أُغلقت أبواب المدينة فكانت عواقب ذلك شيئاً على

---

(١) لا بد أن تكون الطواعين الثلاثة هذه هي التي يتحدث عنها جمهور البغداديين اليوم فيضربون المثل بها في شتى المناسبات.

أشد ما يكون من الرزء والنكبة. لأن الخوف والهلع قد أديا إلى اشتداد أمر الوباء على السكان المحاصرين في الداخل، فتجاوزت الوفيات ما حصل منها ببغداد نسبياً. وكان من بين الضحايا الحاكم(١) المخطىء نفسه الذي ذاق جزاء ما صنعت يداه.



(١) جاء في (مختصر تاريخ البصرة) لعلي ظريف الأعظمي أن والي بغداد عين عبد القادر باشا متسلماً للبصرة في سنة ١٢٤٦ للهجرة، وهي سنة الطاعون، بعد عزل عزيز أغا عنه. وقد مات عبد القادر باشا هذا بالطاعون بعد أن تولى الحكم فيها بضعة أشهر فقط.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٦)

عواقب الطاعون السياسية - سخط الباب العالي على الباشا - القبوجيون والفرامين - قتل صادق أفندي بأمر من الباشا - تخوّف الباشا - تعيين علي باشا لبغداد - محاصرة المدينة - الباشا يسلّم نفسه - تسليم المدينة بطريقة الخيانة - ارسال داود إلى استانبول - الإجراءات التي اتخذها علي باشا - قتل المماليك الكرج - طبيعة حكومة علي باشا.

لم تكن عواقب الوباء السياسية أقل أهمية من تأثيراته المهلكة على السكان، ومن الممكن أن يقال إنها كانت شيئاً قاضياً على باشوية بغداد. فقد ذكرت قبل هذا أن داود باشا قد أصيب بكراهية الباب العالي له. لأن روحية الاستقلال الخطرة والتشامخ اللذين كان يبديهما قد أيقظا في السلطان الخشية والحسد منذ أمد طويل، فحملاه على أن يعتزم القضاء على داود عند سنوح أول فرصة مناسبة لذلك. لكن الذنب المباشر الذي أثار السخط عليه في هذا الوقت بالذات لم يكن سوى قتل الموظف الملكي الذي كان قد أوفد من الباب العالي بمهمة رسمية إلى الباشا. ولا ينكر أن الغرض من هذه المهمة كان تدميره هو - وربما موته، لكن العمل الذي اقترفه كان شيئاً لا يقل عن القتل والخيانة إزاء سيده السلطان. لأن الأصول الرسمية في تركيا كانت تقضي أن يقابل الرسول، الذي يبعث به جلالته لتقديم الخلعة أو تدبير القتل، بنفس الاحترام والتقدير وكان من واجبات الوظيفة كذلك أن يحني الموظف رأسه بنفس المقدار من التقبل في كلتا الحالتين.

على أن هذا الإتقان للخضوع لا يمكن أن يتم ما لم يكن للرئيس الأعلى القدم المعلى في السلطة، ولا بد أن ينقطع حينما تكون سلطته قد تضاءلت وقل شأنها. وهذا ما حدث بالذات للسلاطين في هذه الأيام التي اختلت فيها

الأمور، فقد أصبح من أسلوب الباشوات أن تهمل حتى أبسط أوامر السلطان وأسهلها تقبلاً وأن تعامل بمقتٍ وازدراء على الرغم من مظاهر الاحترام التي تقابل بها. ومع هذا فقد كانت العادة أن يحافظ الجميع على المظاهر، لأنه كان لا يزال هناك في أنحاء الامبراطورية كلها شعور مستديم بتوقير اسم السلطان وسلطته، حينما يذكر على الملأ، بحيث يندر أن يجرؤ أي رئيس أو باشا مهما كان قوياً على انتهاك حرمته. وعلى هذا فحينما كان يعلم أن قبوچياً[1] أو رسولاً قد توجه لأداء إحدى المهمات تتخذ الإجراءات لاستقباله تبعاً لطبيعة مهمته التي يُخبر الباشا بالغرض منها قبل أن يصل الوفد بمدة طويلة، من قبل صديق أجير موجود في الباب العالي عادة. وحينما تكون المهمة في صالحه يكون استقبال الرسول ودياً مفعماً بالتكريم، أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك فتتخذ التدابير عادة لتأخير وصوله حتى تسنح الفرصة المناسبة لتنحيته عن مهمته - فيدبر أمر وقوع حادث عرضي له في الغالب، ولا يعد هذا شيئاً صعباً في بلاد تكثر فيها العصابات والعشائر السلابة.

وإذ يكون القبوچيون أنفسهم على علم تام بالخطر الذي يتعرضون له من جراء مهماتهم، يعمدون إلى اتخاذ الاستعدادات الخاصة بهم فينشأ عن ذلك كله عرض منتظم للمناورات التي تصدر من الطرفين. فيحاول الباشا تحاشي النزال والتصادم، بينما يبذل القبوچي كل جهد للوصول إلى مجلس الباشا. لأنه ما إن يكون هناك حتى يكون الاحترام لفرمان السلطان، الذي لا يزال التمسك به قويًا كما ذكرت من قبل، ويستطيع تقديم أوراق اعتماده إلى الباشا حتى إذا كان محاطاً بحرسه، فإن الحرس أنفسهم سيساعدونه على تنفيذ ما جاء من أجله. لكن هذه المحاولة تكون محفوفة بالخطر لأن الفشل فيها يؤدي في الغالب إلى هلاك القبوچي الذي يعد بناءً على هذا نوعين من الفرامين عادة. فإذا وجد الباشا قوياً بحيث يصعب تحديه، وخطره عظيماً بمقتضى ذلك،

(١) القبوجي كلمة تركية تعني «البواب» بالعربية، أما في العرف الاصطلاحي لذلك الزمان فقد كان يراد بها حاجب السلطان أو رسوله الذي يوفده في مهمات رسمية.

يصدر أمراً بالتنصيب والخلعة على سبيل الحيلة حتى تسنح فرصة ملائمة لتنفيذ إرادة سيده الأصلية.

وكان داود باشا قد تمتع بالوزارة مدة سبع عشرة سنة[1]، واستخدم وقته ذلك كله بكد واجتهاد في توطيد سطوته وترسيخ أقدامه. فكان عنده جيش كامل قوامه ثلاثون ألف خيال وراجل، وكان خمسة أو ستة آلاف منهم على درجة غير يسيرة من الضبط والانتظام ومجهزين بمدفعية فعالة. كما كانت وإرداته من الباشوية كثيرة جداً على ما يعرف، ومع ذلك فإنه خلال هذا الوقت كله لم يقدم إلا القليل منها إلى خزينة السلطان. ولذلك كانت حكومة استانبول بطبيعة الحال تعتبر ان داود باشا كان يتبع خطوات محمد علي باشا في مصر، ويستهدف جعل نفسه مستقلاً عنها. فقررت خلعه، وأوفدت رسولاً يسمى دانش[2] أفندي ليحاول تنفيذ هذا القرار، بينما نجحت دسائس علي الذي كان يشغل باشوية حلب يومذاك في أن يحصل لنفسه على الترشيح للشاغر المؤمل حصوله ببغداد.

ومهما كانت الشكوك التي كانت تساور داود باشا، وضروب التحوط السرية التي اتخذها، يبدو أنه لم يكن مستعداً تمام الاستعداد للضربة المنتظرة حينما حان أوانها. فقد نجح دانش أفندي في الوصول إلى بغداد، وكانت الترتيبات التي أعدها للباشا ترتيبات استطاعت تضليله بالنسبة لطبيعة ما كان عنده من تعليمات وأوامر. غير أن القبوجي، لما كان شاعراً بالخطر الذي كان يكتنف موقفه في بغداد، ونظراً أنه كان عديم الثقة بأحد كما هو شأن الغدارين جميعهم، رفض أن تكون إقامته في السراي لاعتقاده بأنه سيصبح تحت رحمة الباشا فيه. ولذلك جُعلت إقامته في دار موظف من الموظفين الذين كانوا يتمتعون بثقة الباشا التامة يسمى محمد أفندي، ويعرف أو يشتهر بلقب «مصرف».

---

(١) لقد شغل الوزارة، أو باشوية بغداد الكبرى، من غشرين شباط ١٨١٧م إلى ١٨٣١م، أي لمدة خمس عشرة سنة.

(٢) إن معظم المصادر التاريخية تورد اسم (صادق أفندي) وليس (دانش أفندي).

ثم أخذ في الوقت نفسه يفتش من حوله عن آلات مسخرة يستعين بها على تنفيذ مهمته الخطرة، فوقع اختياره على موظف آخر من الموظفين الذين يضع فيهم الباشا جل اعتماده وهو المير آخور[1] أو «رئيس الخلية» - فكان هذا رجلاً يتحلّى بمواهب غير قليلة. فأفضى إليه بأمر السلطان، وعرض عليه في الوقت نفسه أن ينصبه هو في الباشوية بشرط أن يكون ملزماً بمساعدته في قتل سيّده الباشا، لكن المير آخور، على كونه من أصحاب المواهب والقابليات، لم تحمل أعصابه تلك المهمة الخطرة التي كلّف بها بهذه الطريقة. على أننا دعنا نأمل كذلك أن تكون للتقدير الخالص لسيد لطيف متسامح حصةٌ في تعيين الموقف الذي اتخذه. فأخبر السيد «المصرف» بالأمر، وذهبا معاً إلى الباشا فأخبراه بالطبيعة الأصلية للمهمة التي جاء بها القبوچي[2].

أما الباشا الذي كانت شجاعته الأدبية على ما يبدو لا تساوي قابلياته الأخرى، فقد ارتبك للخبر وتبين أنه غير قادر على اتخاذ قرار ما حول السبيل الذي كان يترتب عليه أن يسلكه. لكن الأمر كان أخطر من أن يقابل بالتلكؤ والتباطؤ. وما كان من مشاوريه المذكورين إلا أن يقولا له «لا بد أن نقضي على القبوجي، وإلا فسيقضي هو عليك وعلينا. وإذا كنت تشك في مهمته فإنك مقضيٌّ عليك لا محالة. إن هذا هو وقتك فاغتنم الفرصة فيه». . وإذا

---

(١) المير آخور كلمة فارسية الأصل تعني رئيس الخيلية، وكان اسم هذا الشخص سليمان أغا.

(٢) يقول لونكريك في كتابه (أربعة قرون. .) إن داود باشا هو الذي دعاهما للاجتماع والمذاكرة ودعا معهما إسحاق الصراف اليهودي مشاوره الخاص، بعد أن فاتحه صادق أفندي بعزله. أما علي ظريف الأعظمي في (مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث) فيروي الحادث كالآتي: «. . ثم دعا أعوانه ومعتمديه، من جملتهم صالح أغا حاكم المحاويل، ورستم أغا ضابط المكرية، والحاج أحمد أغا متولي المسيب، وسليمان أغا (أحد معتقيه)، ومصرف محمد أغا، والصراف باشي إسحاق اليهودي، وشاورهم فيما جاء صادق أفندي من أجله فقر رأي الجميع على قتل صادق أفندي وأرسلوا من قتله غيلة ودفنوه سراً في رابية الصابونية في القلعة الخارجية». وتقع رابية الصابونية تجاه الدار التي قتل فيها.

كان الباشا مرتبكاً ومتحيراً بالكلية، وغير قادر على إيجاد طريق يسلكه، فقد حُمل على أن يصادق على الإجراء الذي اقترحه عليه محمد مصرف والمير آخور بدلاً من أن يأمر به من عنده. فترك هذان الرجلان حضرته وتوجها لتوِّهما إلى حيث كان يقيم القبوجي بعد أن اصطحبا معهما «چاووشاً» ضخم الجثة. أما الرجل، الذي كان قد أوى إلى مضجعه لينام، فقد تخوّف بطبيعة الحال من الطريقة الخالية من المجاملة التي أوقظ بها من نومه، وبصوت يعبر تعبيراً كافياً عما كان يساوره من خوف وفزع سألهما عما يريدانه. ثم أضاف قائلاً إنه يرجو أن لا تكون زيارتهما له في مثل ذلك الوقت منطوية على شيء من الأذى. فرد عليه السيد المصرف بقوله «إن هذا ما ستعرفه في الحال، وإن اللهجة التي وجدت من المناسب أن تقابلني بها يوم أمس[1]، سوف ترد عليك هذه الليلة». وإذ كان البائس المسكين قد استولى عليه الخوف تمام الاستيلاء، فقد التجأ على ما يقال إلى أخس أنواع التضرع والتوسل، لكن السيد المصرف دعا إلى الدخول «الچاووش» الضخم[2] الذي كان يحل الشال من محزمه بهدوء فألقى بلفة من شاله هذا حول عنق القبوچي وقضى بسرعة على حياته وتوسلاته معاً[3].

ومما يدل على أن الذين اقترفوا جريمة القتل النكراء هذه كانوا أبعد ما

---

(١) إنه يقصد الخشونة التي قابله بها صادق أفندي في طوزخرماتو حينما أرسل المصرف من قبل الباشا للترحيب به من هناك.

(٢) المعروف في كثير من المراجع أن هذا العريف كان يسمى خالد أغا، وقد كان معه عند ارتكاب الجريمة رمضان أغا حاجب داود باشا أيضاً.

(٣) إن رواية لونكريك للحادث فيها اختلاف غير يسير عن هذه الرواية. فهو يشير إلى أن صادق أفندي لم يضلل الباشا وإنما قابل الوفد الذي أرسل مع الهدايا للترحيب به من طوزخرماتو، بخشونة صريحة. وكذلك قابل المستقبلين على أبواب بغداد بنفس الطريقة. وهو لم يقابل الباشا الذي كان ينتظره في السراي، وإنما أجل ذلك إلى اليوم الثاني. وتذكر هذه الرواية كذلك أن صادق أفندي هو الذي فاتح داود باشا بعزله وطلب منه تسليم الحكومة إليه.

يكون عن الارتياح من النتائج التي ستترتب عليها أنهم، لأجل أن يزيلوا الشك ويسكنوا ضجة الناس التي أثيرت بهذه المناسبة، أطافوا بشخصٍ أُريد به أن يمثل القبوجي مرة أو مرتين في الشوارع بعد أن أُلبس ملابسه الخاصة. لكن إشاعات اغتياله تمادى الناس في تصديقها حتى وصلت إلى مسامع المقيم الكولونيل تايلور، الذي ألقى تبعة الجريمة على عاتق الباشا نفسه وصور له عواقبها المحتملة بألوان بارزة. على أن الباشا حاول أن يوري ويورّب بادىء ذي بدءٍ، لكن زمجرة العاصفة من بعيد التي كانت تتجمع غيومها في استانبول سرعان ما أدت ليس إلى اعتراف سموه فقط بل إلى طلب المشورة والمساعدة بصورة جدية أيضاً. ولاعتبارت سياسية، وقناعة بأن الباشا كان مجبراً على اقتراف جريمة يشيع اقترافها في البلاطات الشرقية أو فوجىء باقترافها من قبل فاعليها الأصليين، اقتنع المقيم[1] بأن يعرض الأمر على المسؤولين في استانبول بصورة يدافع فيها عنه. وهناك قليل من الشك بأن القضية كانت، مع شيء من التنازل من جانب الباشا، ستنتهي في صالحه هو - وعند ذاك كان المقيم سيحصل على نفوذٍ ممتاز لدى الباشا ومفيد جداً للباشوية نفسها - لولا أن تحل بالبلاد النكبة التي أتيت على وصفها من قبل فتؤدي إلى حصول تبدل سياسي وطبيعي في شكل الأشياء العامة كلها، وحدوث ثورة كلية في مصائر الباشوية وتبديل حكامها.

فقد أفنى الطاعون قوة داود باشا العسكرية بالكلية. ولأجل ان يكون بوسعنا تكوين فكرة عن التدمير التام الذي أصاب جيشه العتيد يجدر بنا أن نذكر أن قطعة عسكرية عدتها ألف رجل ومدربة تدريباً عسكريًّا على النسق البريطاني، لأن الكولونيل تايلور نفسه كان يقودها في يوم من الأيام، لم يبق منها على قيد الحياة سوى رجل واحد. وقد ترك الباشا بالفعل لوحده في دار

---

(١) يلاحظ القارئ من هذا أن الإنكليز منذ ذلك الحين كان يعرف تدخلهم في شؤون العراق الداخلية وتوجيهها بالشكل الذي يضمن مصالحهم. فقد كتب أحد الرحالة الفرنسيين (أوشيه أيلوي ١٨٣٥م) يقول إن المقيم كان مجبراً على التسامح في أمر الجريمة لرغبته في إبقاء نظام الحكم الذي كان موجوداً يومذاك.

كان قد اضطر للالتجاء إليها حينما تهدم قصره، ومن هناك، كما سيتبين فيما بعد، تسلمه رجل يدعى صالح بك كان يمت بصلة الدم إلى بعض الباشوات السابقين، وتخامره فكرة الحصول على الباشوية لنفسه يومذاك.

وما إن خفت وطأة الطاعون وأدبر شره حتى تقدم أنصار علي[1] باشا نحو بغداد لانتزاع باشويتها له. وكان علي باشا حلب، قد نصبه الباب العالي لها وأمّن على مساعدة باشا الموصل قاسم أغا له كما يعتقد. وكان الأنصار يتألفون من الشيخ صفوك شيخ شمر الجربا، وسليمان غنام[2] الرجل المغامر المتصف ببعض القابليات، الذي استطاع أن يجمع لفيفاً من الغوغاء ويجعلهم من أتباعه. غير أن سكان المدينة، على ما يظهر، لم يكونوا ميالين للترحيب به فرابط الحلفاء حول المدينة التي حاولوا كسبها بالقتال من جهة والمفاوضة من جهة أخرى، وبالخيانة كما تبين فيما بعد من جهة ثالثة. وقد تبين كذلك أن البعض من هؤلاء المتحالفين على الأقل كان يلعب أدواراً مزدوجة، يدس فيها مع داود وربما مع صالح بك أيضاً بينما يتظاهر بكونه يتفانى من أجل علي. وبهذه الاتجاهات المتضاربة دخل الأشخاص الثلاثة، الذين ذكرت أسماؤهم، إلى المدينة التي ادّعى قاسم باشا فيها أنه كهية علي باشا. غير أن السكان وقفوا في وجههم وأُجبر الشيخ صفوك وسليمان غنام على أن يلوذا بالفرار، وكان فرار الشيخ صفوك من دار تقع على النهر الذي عبره سباحة إلى الجانب الآخر. ثم قبض على الآخرين، وحينما تخلى عن قاسم باشم حرسه الخاص اقتاده أحمد أغا التفنكچي باشي العائد لداود إلى بئر قريبة وألقاه فيها[3].

---

(١) هو الحاج محمد علي رضا باشا الذي كانت بعهدته باشوية حلب، وهو من اللاز الذين يمتون للشراكسة بصلة ويقطنون في الساحل الجنوبي الشرقي من البحر الأسود. وقد صدر الفرمان بتعيينه لباشويات بغداد وحلب وديار بكر والموصل في وقت واحد.

(٢) سيأتي تعريفه فيما بعد.

(٣) يقول لونكريك بهذه المناسبة «.. غير أن العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم (المقبل على السكر كما قيل) وسوء سلوك أحلافه الشمريين والعقيل سرعان ما =

على أن هذه الإجراءات المتصفة بالعنف كان من شأنها أن تعزز صداقة صفوك وسليمان غنام لعلي. فحاصروا المدينة لمدة ثلاثة أشهر، وصار مدفع الباشا الجديد الذي وصل إلى معسكره في هذه الأثناء يقصف المدينة من جميع الجهات. وأخيراً، نفد صبر الأهلين وبادر شخص من التجار كان يدعى الحاج خليل إلى الاتصال بعلي الذي سُمح لقواته في إحدى الليالي بالدخول إلى المدينة عن طريق الباب الجنوبية.

وفي أثناء هذه الإجراءات كلها كان داود المنكود الحظ، وهو يعاني ما يعاني من تأثيرات الطاعون الذي أصيب به فنجا منه بأعجوبة، بعد أن تخلى عنه جميع من بقي من أهله ورجاله وحتى نسائه عدا اثنتين منهن تمسكتا به إلى النهاية - يقبع مختفياً في دار رجل بغدادي يعرف بلقب قره بيبر[١] وكان قد فرّ ملتجئاً إليها بعد أن تهدم قصره كما تمت الإشارة إليه من قبل. وقد كان قبل

= استفز همم البغداديين، ولم يكن فيهم شيء ثابت سوى ترددهم. فقاموا بوجه الجائرين. وقد أشيع يومئذ أن قاسم باشا كان ينوي الاحتيال على رئيسه ليحكم بغداد بنفسه... وعندما قرئ فرمان عزل داود باشا على الجميع طلب قاسم تنفيذ ذلك في الحال. غير أن مجلس الشورى. المؤلف من الضباط وأشراف البلد، أصروا على تأجيل التنفيذ... فخفوا إلى الاجتماع في دار صالح بك، وجرى نقاش بينهم.. وتقرر وجوب تنحية قاسم.

وفي صباح اليوم الثالث عشر من حزيران ذهب قاسم إلى ديوانه وطلب إحضار داود، فعاد من بعثوا لإحضاره خائبين. ثم سمعت جلبة وضوضاء في الخارج، فكان ذلك أن قوة من المماليك والأهالي والعقيل قد أحاطت بالبناية وأصبح الحاكم الجديد أسيراً في حوزتها. وعندما حاول أتباعه في الداخل ومريدوه في الخارج الدفاع والهجوم على المتجمهرين توسعت أعمال الفوضى وكثر إطلاق النار فسحبت المدافع من القلعة وسطا المتجمهرون على القنابل والذخيرة.. وبعد ظهر اليوم استسلم قاسم.. أما سليمان غنام الذي بقي مسيطراً على جناح من السراي حتى مغيب الشمس فقد سرق عند حلول الظلام جميع ما تمكن من حمله، ثم أضرم النار في القاعة الكبرى وفر هارباً والسيف بيده ماراً بالأزقة والشوارع الخالية».

(١) أي النيص الأسود بالتركية، وهو محمد أغا من ملتزمي الاحتساب، وزوج حبيبة خانم.

ذلك الوقت يعيش في الدرجة الأولى على خدمات رجل يدعى سيد هندي، كان في يوم من الأيام من أصحاب الزوارق (بلام) لكنه أصبح في الأيام الأخيرة من اللائذين المفيدين بالمقيمية البريطانية. إذ كان هذا الرجل يجلب يوماً إلى سمو الباشا وجبة واحدة من الرز ويأخذ لقاءها قطعة من النقود عادة. وهكذا كان سيد الثلاثين ألف جندي السابق يعتاش في أيام محنته وإهماله على يد رجل فقير من أصحاب الزوارق، وأصبح الآن مديناً بحياته والقيام بأوده خلال العذاب والمرض لشخص متواضع من أصحاب الدكاكين.

على أن مكان اختفاء داود قد أصبح معروفاً لدى صالح[1] بك، الذي شاع في بغداد أنه كان يطمح بكرسي الوزارة نفسه، فبعث أناساً يأتون بالباشا المعزول إلى حضرته، غير أن صاحب البيت والنساء اقترحوا على الباشا، وهم يتخوفون من عواقب تسليمه، أن يفر هارباً من باب في الدار تطل على شارع آخر وعرضوا عليه مساعدتهم في هذا الشأن كذلك. لكن الحياة وقد طالت مرارتها عليه بتأثير المعاناة الشخصية والشعور بالخسارة الجسيمة وضرورة التخفي المستمر، قد أصبحت في نظر داود المنحوس الطالع عديمة القيمة بحيث لا تستحق أي مقدار آخر من النضال والمقاومة. فرد المقترح بقوله: «كلا، إن المقاومة أو الهرب قد فات أوانهما، وسأذهب إلى أي مكان أدعى إليه وإلى أي مصير يكون». فأُركب على حصان لأنه لم يكن يقوى على السير، وأُخذ إلى دار[2] صالح بك التي يشغلها الآن المقيم البريطاني وأقيم فيها أنا

---

(١) إن الحاج صالح بك هو الابن الثالث لسليمان باشا الكبير، أشهر ولاة المماليك في العراق. أما أخواه الآخران فيهما صادق بك وهو الأكبر، وسعيد باشا. وقد ثار صادق بك في أواخر ١٨١٨م على داود باشا بعد أن التجأ إلى عشيرة زبيد بقصد مناصرته، لكن داود باشا صالحه وعفا عنه. بينما كان سعيد باشا والياً في بغداد قبل داود فأساء التصرف في الحكم. وثار عليه داود نفسه فاستولى على بغداد بمساعدة محمود باشا بابان في السليمانية وقتل سعيداً فتسلم الباشوية في مكانه. والمعروف أن داود كان قد تزوج بنتاً من بنات سليمان باشا الكبير أخت الإخوة الثلاثة هؤلاء.

(٢) كانت هذه الدار في مكان مديرية كمرك بغداد الحالية. وقد جاء في (عنوان المجد) =

ضيفاً عليه في الوقت الحاضر. وهناك استقبل باحترام وتقدير لكن مضيفه، أو بالأحرى آسره، سرعان ما أطلعه على محاولته التي يقصد بها أخذ الباشوية إليه هو نفسه وطلب منه أن يساعده في ذلك. وبهذا يستطيع القارىء أن يحصل على فكرة حسنة عن عقلية داود وملكته في الإقناع، حيث إن المؤتمر الذي بدأ بشكل يهدد مصلحة الباشا السابق ويعمل ضدها قد انتهى بترتيب يوافق فيه صالح بك على إعادة داود إلى الوزارة وقيامه هو بإشغال منصب الكهية في معيته.

لكن هذه الترتيبات كلها قضت عليها خيانة الحاج خليل. فقد أصبح علي الآن سيد المدينة. إذ احتلها جنده لكنه لم يجد من يعتمد عليه فيها. ولذلك بعث بإحضار داود باشا إليه في الحال، واستقبله بكل ما يمكن من المجاملة قائلاً له بأن يأمن على حياته، لكنه طلب إليه أن يشد الرحال إلى استانبول التي ستكون حياته مضمونة فيها كذلك. ثم أُخبر الباشا الهابط من عليائه بأنه حر في أن يأخذ ما يريد من ثروته وممتلكاته، ويقابل من يشاء ممن بقي على قيد الحياة من أسرته. ومما لا شك فيه إن هذا الرفق تجاه خصمه الأخير كان متفقاً مع الأوامر التي تلقاها علي باشا في استانبول، لكننا علينا أن لا ننكر ما له من الفضل في هذا الشأن. فقد كان بوسعه ان ينفذ هذه الأوامر بشيء أقل من المجاملة - وكان بوسعه كذلك، حتى من دون أن يورط نفسه بشيء، أن يجعل تلك الأوامر غير نافذة المفعول، إلا فيما يختص بحياة داود نفسها. لكنه أبدى

= للحيدري بشأن هذه الدار: «.. ومنها بيت السيد رحمة الله أغا الجيبه جي، وهو من البيوت القديمة الرفيعة.. لم يبق منهم أحد، ودارهم صارت لصالح بك نجل المرحوم سليمان باشا والي بغداد ثم صارت للقنصل الإنكليزي». وفي رواية أخرى إن قاسم باشا العمري حين دخل بغداد قبل علي رضا باشا وذهب إلى السراي طلب إحضار داود باشا من عند صالح بك فلم يلب طلبه، فركب زورقاً في مساء اليوم الثالث من دخوله وذهب إلى دار صالح بك الكائنة على الشط (وهي الدار التي صارت إلى بيت دلة بعد ذلك وإلى يومنا هذا) وطالب بتسلميه إليه. ولعل الدارين معاً كانتا لصالح بك.

كل ما كان عنده من رفق فحمل داود معه بلا شك مقداراً غير يسير من ثروته التي كان من الممكن لعلي أن يستولي عليها لنفسه باتباع طريقة أخرى. على أنها كانت شيئاً قليلاً من الناحية النسبية، وربما كانت تضحية سياسية منه. فإن اللعبة التي كان عليه أن يلعبها يومذاك كانت تنطوي بالتأكيد على المصالحة والتساهل - لأن المصادرات التي أجراها من بعد ذلك كانت تكفي لتعويضه عما فاته في هذا الشأن.

ولما تربع على دست الحكم بهذه الطريقة اتخذ علي لنفسه أسلوب المصالحة والتوفيق كما قلت، لكن غرضه الأول كان ينطوي على تنحية جميع المعروفين من أنصار الباشا الأخير عن الميدان. فالتجأ في تنفيذ ذلك من دون تورع إلى الطريقة الشرقية الاعتيادية، وهي طريقة الغدر[1] والاغتيال الناجحة باستمرار على ما فيها من اختلاف وتفاوت في الشكل والتطبيق، وبرغم كل الخبرة التي تنطوي عليها والحسد الذي تثيره الاستعانة بها. وكان عدد من الگرج، الذين ظلوا على قيد الحياة وعملوا في قوة الحرس، أو كانوا ضباطاً وموظفين في معية داود باشا، قد توقعوا هبوب العاصفة التي استهدفت رفاقهم بعد ذلك ففروا هاربين من المدينة. لكن عدداً يناهز الثمانية عشر أو العشرين منهم ظل مقيماً في مكانه، ومن جملتهم صالح بك الطامع الأخير بالباشوية. فدُعي هؤلاء في يوم من الأيام معاً بحجة الاستماع لقراءة الفرمان الصادر بإعفائهم الذي وصل مؤخراً من استانبول على ما قيل. وقد حضر كلهم تقريباً إلى ديوان الباشا، ما عدا صالح بك نفسه الذي كان إما مريضاً أو مرتاباً من الدعوة فابتعد عن الحضور. فقوبلوا بأقصى ما يمكن من المجاملة، وتناولوا

---

(١) لم تكن خطة القضاء على المماليك في بغداد من بنات أفكار علي رضا، وإنما كانت خطة رسمية أمرته بتنفيذها المراجع المختصة في الباب العالي لأن الدولة العثمانية كانت قد ضاقت ذرعاً بهم وأرادت أن تضع حداً لاستقلالهم عنها. ويقول لونكريك في هذا الشأن «.. ومن بعد ذلك قرئت الأوامر الرسمية الصادرة من استانبول التي تسوغ هذه الأعمال الوحشية مع ما كان فيها من حكمة، وطلب كل مملوك داخل المدينة وخارجها».

القهوة والچبوق، وبينما كان الفرمان على وشك أن يقرأ دُعي الباشا لتناول الفطور في الخارج، فكان ذلك بمثابة إشارة للبدء بالمجزرة. إذ قام رجل يدعى علي أغا ودعا لفيفاً من الأرناؤوط الذين كانوا قد أُعدّوا لهذا العمل. على ان هؤلاء ظلوا ساكنين مترددين، لأنهم كانوا حسب ما يظهر غير راغبين في هذا العمل أو أن طبيعة هذه الخدمة قد أفزعتهم. فصرخ بهم علي أغا يقول: «ما بالكم؟»، «لماذا ترددون؟ اضربوا - فإما أن تقتلوهم أو تقتلون أنتم»، ثم انتضى سيفه هو نفسه فضرب الگرجي الذي كان يجلس بجانبه. وحينما كان المساكين يهمون بالوقوف ويسلون سيوفهم، بعد أن أدركوا في وقت متأخر طبيعة الدعوة والأمر، ألقى علي أغا بنفسه على الرجل الذي كان قد جرحه قبل أن يتمكن من سل سلاحه، وبادر الأرناؤوط في اللحظة نفسها إلى اطلاق النار من مسدساتهم وانقضوا على الذين لم تصبهم الطلقات. وقد كان النزال قصير الأمد، فقتل الگرج كلهم، ومنهم من قتل في مكانه ومنهم من قتل في أثناء هروبه بعد أن أبدوا مقاومة عنيفة. وهكذا تخلّص علي باشا من آخر غلمان داود.

ويكاد يبدو من الغريب الذي لا يصدق تقريباً أن رجالاً في مثل منزلتهم لا يستطيعون أن يتكهنوا بوقوع محاولة مثل هذه، فيبادروا إلى الفرار والنجاة بأنفسهم كلهم. لكننا يجب أن نتذكر أولاً أن الهرب إلى بلاد بعيدة معادية له أخطاره ومحاذيره، ويبدو من الوجهة الثانية ان تدابير غير اعتيادية كثيرة قد اتخذت لتضليل الضحايا في هذا الشأن. ومن الممكن ان يذكر هنا، على سبيل الحكم على مقدار الغدر والخيانة المنطويين في هذا العمل، إن أول شخص ضرب في مشهد الدم هذا هو رجل[1] كان قد هرب من خدمة داود والتحق بعلي باشا في حلب ثم رافقه من هناك بصفة كونه كهية للباشا الجديد، وقد حضر إلى ديوان الباشا بهذه الصفة - هذه هي أمانة العثمانيين، وجزاء الخدمة في تركيا!

---

(١) يقول صاحب «مرآة الزوراء» إن المماليك المرتدين الذين كانوا بصحبة علي رضا باشا هم رستم وسعدون وأبو بكر، وقد حثوه على قتل داود.

ولم يستقم هرب صالح بك مدة طويلة من الزمن. فإنه بطريقة مماثلة قد جرى تضليله بسيل من الألطاف والإنعامات، فكان يمشي في حلم من الأمانة الوهمية الخداعة حتى حدث ذات يوم، بينما كان يمر في طريقه من مكتب الكهية إلى غرفة الباشا الذي دُعي للمثول بين يديه، أن قُبض عليه فجأة في الممر الضيق وسحب جانباً فأزهقت روحه خنقاً[1].

ومن الغضاضة أن أعمد هنا إلى أن آتي بالتفصيل على وصف السلسلة المتلاحقة من أعمال الغدر والجريمة والجشع التي أعقبت هذه الحوادث، ولا أريد أن أطالب بشرف تدوين تاريخ علي باشا. لكنني أود أن أقول إنه ما كادت تنقضي الفترة التي كانت تسمح بمرورها الفطنة ويحتمها الحذر حتى صودرت[2] جميع ممتلكات الذين كان لهم أدنى اتصال بالباشا السابق،

---

(١) إن رواية لونكريك تختلف عن هذه، فهو يقول إن صالح بك وقع من ظهر حصانه فقتل أمام الدار التي حكم فيها بغداد عدة أسابيع مضطربة. أما سليمان فائق بك فيورد في (تاريخ بغداد) رواية قتله بشكل آخر. فهو يقول: "لقد كان الحاج أبو بكر الكتخدا السابق قد أرسل قبل الحادثة من يستدعي الحاج صالح بك للحضور إلى دار الحكومة من الدار التي كان قد اتخذها مسكناً له أيام العصيان، فلما حضر أخذه إلى مكان آخر، ولما أطلقت المدافع إيذاناً بتنفيذ الخطة المرسومة تقدم نحوه وقطع حبل حياته.
ويقول أحد الذين حضروا هذا المشهد المرعب إنه كان ماراً باتجاه الميدان فشاهد جمعاً من الجنود المدججين بالسلاح يدخلون دار الحاج أبي بكر أغا، فلما اقترب من الباب أبصر الحاج صالح بك يخرج راكباً وبحالة اضطراب ظاهر، ولما وصل إلى خارج الباب احتشد حوله قسم من أولئك الجنود وأنزلوه قسراً ووقعوا به ضرباً وطعناً. وقد سمعه يتلفظ بكلمة آمنت بالله وملائكته إلى آخرها ويرددها باضطراب ثم أعقبها بالشهادتين وخر صريعاً، فتقدموا منه وحزوا رأسه وأخذوه وتركوا جثته في أحد الأزقة مكشوفة ومطروحة على الأرض ولا شيء يستر عورته". ومما يجدر ذكره أن سليمان فائق بك صاحب هذه الرواية عاصر هذا الحادث وكان فتى يافعاً حينما وقع، وكان ينتمي لأوساط الطبقة الحاكمة يومذاك.

(٢) كانت حوادث التعذيب وانتهاك الحرمات التي استعملت في مصادرة الممتلكات سبباً =



باب المعظم من الداخل في بداية هذا القرن

واستمر وضع اليد عليها حتى يومنا هذا. وليست هذه سوى حوادث اعتيادية لا بد أن تحدث عند تبدل الحكام، ولا تلفت النظر إليها كثيراً إلا من جانب الفرقاء الذين يهمهم الأمر. كما لم يكن هذا أسوأ ما حدث. فقد فرضت رسوم باهظة على التجارة، وترك الفلاحون ليكونوا تحت رحمة التعسف الذي كان يمارسه خدام[1] الباشا، ووصلت التأثيرات السيئة لسوء إدارته العامة إلى درجة

= في ثورة عبد الغني جميل مفتي بغداد يومذاك علي باشا (علي رضا)، وقد أيدته في ذلك معظم محلات بغداد وخاصة محلة قنبر علي. وكان السبب المباشر للثورة ما شمل أسرة رضوان أغا، أحد المماليك المقتولين، من تعذيب وإهانة. فقد استجارت زوجة هذا القتيل بالمفتي عبد الغني جميل زادة، فأجارها واصطدم بالباشا نفسه.

(١) تذكر بعض المراجع من هؤلاء حمدي بك المهردار صهر الوالي نفسه، وملا علي الخصي كاتب مقاطعة الخالص، ومحمد الليلاني، وعلي أغا اليسرجي، وعبد القادر ابن زيادة الموصلي، وعثمان سيفي بك، وحاج أفندي أي أسعد ابن النائب كهية علي رضا باشا.

أصبحت فيها البلاد يباباً قفراً، تغشاه القبائل العربية في كل مكان، وتعبث فيه إلى حد أبواب المدينة نفسها. أما ماليته ووارداته فقد هبطت إلى حد العدم نسبياً من حيث اعتمادها على الزراعة، بينما كان الرعب والمقت لشخصه وحكومته يتخللان طبقات الناس كلها باستثناء المخلوقات التي كانت تحيط به.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٧)

مظهر المدينة من داخل الأسوار وخارجها - سياسة علي باشا - شمر جربا - محاصرتهم بغداد - دعوة قبائل عنزة - صرفهم دون أصول - رفضهم الانصراف - محاصرتهم للمدينة - اشتباك جند الباشا وحلفائه من العرب مع عنزة - اندحار جند الباشا وذبح شيخ الجربا - التجاء سكان المناطق المجاورة إلى بغداد - الحمير البيض (المطايا) والعبيد السود - مخادع النساء وعاداتهن - المجوهرات - أشغالهن - زياراتهن - أصواتهن - سلوكهن العام.

ليس بوسعكِ أن تحسبي، بالنسبة للظروف التي أتيت على وصفها في رسالتي السابقة، أن تكون بغداد متشحة بحلل الازدهار القشيبة حينما دخلت إليها. فقد فضحت أول ركبة ركبتها للتجوال فيها الحالة التعسة التي كانت عليها، وكشفت للأنظار الآثار العميقة التي خلفها ذلك الفيض من الكوارث الذي غمرها في السنين الأخيرة. ففي ما وراء المجموعة الصغيرة من الأبنية، التي بقيت قائمة بعد الفيضان والطاعون مباشرة، تمتد بقايا الخراب المتسع، وتقوم فجأة من وسط الأنقاض هنا وهناك بعض الدور الجديدة كما تقوم الأشباح من بين السكان المقبورين. ومن الغريب أن فسحاً كبيرة من الأرض قد انخسفت بتأثير الماء المتراكم وضغطه فكونت تجاويف وأوجار عميقة ما بين البساتين التي تملأ مساحة غير يسيرة من القسم الجنوبي من المدينة. ولذلك فإني أقدر أن ما يقرب من ثلثي المساحة التي يتكوّن منها الجانب الشرقي من النهر قد جرد هذا التجريد من الأبنية القابلة للسكن. وقد أخذت حتى الأبنية التي ظلت قائمة تظهر عليها الآن التأثيرات التي أثر فيها الماء على أساساتها بوجود الكثير من الشقوق الخطرة. بينما تكون الجبهة المواجهة للنهر، على منظرها الحسن المؤثر في النفوس الذي تبدو فيه من بعيد، في حالة شديدة من التضعضع والتصدع في الحقيقة. فقد استولى الخراب بالكلية

على قصر داود باشا الذي كان يشغل موقعاً فسيحاً يمتد إلى ضفة النهر. وقد بدأ الباشا الذي يسكن الآن في دار كان يشغلها ابن من أبناء الباشوات المتأخرين، في الأيام الأخيرة، بإعادة تشييد السور العائد لقصر داود ليجعل منه على ما علمت ثكنة[١] لجنوده.

وليس المنظر في الجانب الآخر من النهر مما يبعث على شيء أكثر من هذا بهجة وانتعاشاً. فإن الجزء الذي يشغله الآن الأعراب في الدرجة الأولى، بعد أن كان يحتوي في السابق على دور الكثيرين من الأتراك الموسرين، لا يزال أكثر تهدماً وخراباً من الجانب الشرقي. إذ لا يمر الراكب هناك إلا من بين جدران متهدمة أو مائلة للانهدام، وأنقاض كان في يوم من الأيام كتلة كثيفة من المساكن. أما سور المدينة في كلا الجانبين فهو متهدم كذلك ومتداع، ولا تزال تظهر فيه الثغرات الكبيرة التي دخل منها ماء الفيضان إلى البلدة على نفس الحالة التي تركها فيها الماء المتدفق يومذاك.

ويعد المنظر خارج الأسوار في حالة فريدة من الوحشة والاكتئاب - فهو يعد في الحقيقة نموذجاً لما تكون عليه الحالة الحاضرة في أنحاء الباشوية كلها. ففيما عدا ضفاف النهر التي تنتشر فيها بساتين النخيل[٢] إلى امتداد أميال ثلاثة من كل جهة، يمتد سهل أجرد من جميع الجهات حتى يصل إلى أبواب السور نفسها من دون أن يحده شيء سوى الأفق البعيد. ولا ينكر أن هذه البادية تنبعث فيها الحياة في الوقت الحاضر بوجود خيام الأعراب ومنازلهم، وقطعان الأغنام والماشية، وجماعات الإبل، وحركة الذهاب والإياب لكثير من الخيالة والراجلين. ولكن حتى مظهر الحياة الوقتي هذا والضجيج الحاصل بنتيجة ذلك يُعزى إلى الضغط الخاص الذي تفرضه الظروف الخارجية على المدينة.

---

(١) قد يفهم من هذا ان قصر داود ربما كان في موقع القشلة التي تضم وزارتي المالية والعدلية في الوقت الحاضر.

(٢) جاء في النص ٤٣٢ من الجزء الرابع من رحلة أوليا جلبي الذي زار بغداد في ١٦٥٦م أن جانب الكرخ كان فيه في تلك السنة حوالي ألفي بستان وحديقة نخيل معمورة. نقلاً عن كتاب النخل لعباس العزاوي.

فقد كنت ذكرت عند وصولي إلى المدينة لأول مرة أني علمت بأن قبيلة من القبائل العربية المعادية كانت تخيم بالقرب منها. على أنني لم أكن أعرف يومذاك كم كنا قريبين من مشاهدة موقعة تحتدم بين الأعراب أنفسهم. فإن فتح سياسة علي باشا، المبنية مثل سياسة أسلافه والكثيرين من الحكام في الشرق والغرب على قاعدة «فرق تسد» الخطرة على الدوام، قد انهارت في هذه الحالة وتركته في وضع حرج جداً. فقد كان يفعل كما أسلافه، الذين كان البعض منهم على جانب من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر جماعياً على القبائل العربية العديدة المحيطة به، أن يزرعوا بذور الشقاق بينها، ويحركوا قبيلة على أخرى حينما كانت تهددهم إحداها أو تضغط بشدة عليهم. وهذه في رأيي سياسة خطرة ما لم تساندها قوة تكفي في الوقت الحرج لجعل السياسي المهيمن في معزل عن الحوادث الفجائية المؤسفة ومسيطراً عليها. وإذا لم تكن في يده قوة فإنه من المحتمل جداً أن يأخذ كل فريق بالاعتداء والتجاوز على غيره، كما هي الحالة في وضع علي باشا اليوم، ويلعب دور الصديق والعدو بصورة دورية حتى ينقلب من كونه خادماً وحليفاً إلى سيد مسيطر.

إذ كانت قبيلة الجربا[1] قد جيء بها إلى القسم الشمالي من الباشوية

---

(١) يلاحظ في هذه الرحلة أن صاحبها يكرر كلمة جربا ليعني بها عشيرة شمر بصورة عامة. وتعد شمر من أكبر عشائر العرب على الإطلاق، وكان موطنها الأصلي في نجد بين جبلي أجأ وسلمى ثم هاجر قسم منها إلى العراق. وهنا سكن بعضهم في الجنوب (في لواءي الكوت وديالى غالباً) وهم شمر طوقة، وسكن القسم الآخر وهو الأكبر في ديرة واسعة تمتد من شمالي بغداد إلى منطقة جبل سنجار حيث يوجد القسم الأعظم منهم في الوقت الحاضر. وقد كانت ولا تزال الرئاسة في هذه القبائل إلى آل محمد، أو الجربا، ولذلك غلب هذا الاسم عليهم في بعض الأدوار ومنها الدور الذي وصل به صاحب هذه الرحلة إلى بغداد على ما يبدو من تسميته. وقد جاء في الجزء الأول من (عشائر العراق) «أن هذه التسمية قديمة ترجع إلى أميرهم الأول الذي يدعون به فيقال (آل محمد)، والجرباء هذه أم سالم بنت محمد المذكور. .» ثم ورد فيه قول المؤلف «والجرباء نبز وصل إليهم من أمهم والعرب لا يزالون يتنابزون بأمثال هذه، يقال إنها أصابها مرض جلدي فتركها أهلها ورحلوا إلى =

لتساعد الباشا الأخير على طرد عشيرة أخرى من عشائر اللصوص وقطاع الطرق. وكانت الخدمات التي قدمها الشيخ صفوگ لعلي باشا قد أهّلته، على ما يرى هو، لأن يحظى بالمزيد من التسامح والامتيازات. لكن علياً كان يفكر تفكيراً يختلف عما كان يفكر به رفيقه السابق في هذا الشأن، فرفض مطاليب صفوگ وهدده بالسخط عليه. وعلى أثر ذلك تراجع أولاً إلى القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، وأخذ يقطع الطرق وينهب القوافل ويسلب السياح والمسافرين. ولأجل أن يعرض على سيده السابق نموذجاً من قوته وسطوته، جاء بعد ذلك بقبيلته كلها وأحدق ببغداد نفسها[١].

فظلت المدينة محاصرة ثلاثة أشهر، وصارت القرى المجاورة تنهب متى شاء وأراد هذا اللص الجلد، من دون أن تبدر أية معارضة له من جانب الباشا - والحقيقة أن الباشا لم يكن يملك الوسائل اللازمة لذلك. وفي نهاية تلك المدة قوّض الأعراب خيامهم على حين غرة واختفوا عن الأنظار، وليس بوسع أحد أن يعلم ما إذا كان السبب في ذلك تناقص العلف وقلة السلب المتيسر، أم ظهور عوامل أخرى في الأفق. وبذلك وجدت بغداد نفسها في صباح يوم من أيامها الجميلة متحررة من زوارها المزعجين. وتراجع صفوگ إلى منازله في شمال العراق. لكنه وعد بأن يعيد الزيارة في السنة التالية، فأخاف الباشا بهذا التهديد بحيث إنه بعث يطلب مساعدة عنزة. وهذه عشيرة

= موطن آخر ثم تعافت فلزمها هذا الاسم...» وقبيلة أمهم على ما هو معروف محفوظة فهي من الفضول من طي (من بني لام). وتتألف أسرة الشيوخ من خمسة عشر ابناً من أبناء فرحان باشا الذي توفي في أواخر القرن الماضي (التاسع عشر). وتنحصر الرئاسة الآن في أبناء عجيل الياور وهو ابن عبد العزيز من أبناء فرحان المذكور.

(١) كان المعروف يومذاك - على ما يذكر بعض المؤرخين - أن صفوقاً اختلف مع علي رضا باشا فاستغل هذه الفرصة يحيى باشا الجليلي والي الموصل وحركه ضد الباشا في بغداد. وقد ثبت ذلك حينما وجد بين الأسلاب التي تركها صفوك، بعد أن دحره جند الباشا بالقرب من الكاظمية، كتاب خاص موجه من يحيى باشا إليه ينطوي على العلاقة التي كانت تربط بينهما.

أخرى قوية جداً، وقد وعدها الباشا بتسليم أراضي الجربا لها إذا عملت على طردها منها. ولم يعتمد على هذه الوسيلة وحدها بل حاول أن يحدث انقساماً في قبيلة الجربا نفسها. وباستعمال السلطة التي كان يدعي بها أسلافه، مهما كانت اسميتها في حالته هو، في خلق من يقع اختياره عليه وتنصيبه للمشيخة أقدم على ترشيح شاب اسمه شلاش لمنصب شيخ عشيرة الجربا. على أن عدداً قليلاً من أفراد العشيرة فقط اهتموا لهذا الترشيح، بينما تمسك القسم الأكبر والأهم منهم بشيخهم القديم صفوگ. لكن عنزة، وقد أسال لعابها في الوقت نفسه مطمح التمتع بمراعي الجربا الممرعة، جاءت ملبية النداء بما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف محارب ليضمنوا القضاء على خصومهم. وما حل هذا الوقت حتى كانت مخاوف الباشا ومحميه شلاش قد زالت بتراجع صفوگ لسببٍ أو آخر إلى مسافةٍ أبعد. فأرسل سموه من يخبر حلفاءه الجدد بأن خدماتهم لم تبق لها حاجة ولا أظنك تعجبين إذا علمت أن عنزة، التي انتعشت فيها الآمال القديمة وجاءت من مناطق بعيدة في البادية يشح فيها الخير والعشب، قد أغضبتها هذه المعاملة التي عوملت بها. فقد رفضوا مغادرة مكانهم رفضاً باتاً حتى يكون الباشا قد نفذ من جانبه الالتزام الذي تلزمه به الاتفاقية، لأنهم قد قاموا من جانبهم بما كان يترتب عليهم أن يفعلوه. واحتلوا موقعاً في جوار المدينة يؤدي إلى أضيق مسافة من الجزيرة التي تحجز بين دجلة والفرات تأكيداً على ما قر رأيهم عليه.

وحينما استثيرت مخاوف الباشا بهذا العمل من جديد دعا محميه شلاشاً لمساعدته في الدفاع عن بغداد وطرد عنزة عنها. بينما قام هو من جانبه بتحشيد جيشه المؤلف من بضع مئات من الخيالة الألبانيين، والجند النظامي، وساقه مع المدفعية ليستعرض أمام عنزة. ثم أطاع شلاش الأوامر وجاء بفريق العشيرة التابع له إلى ما يقرب من بغداد. وبالشعور الذي يتميز به العرب عادةً عمد حتى الشيخ صفوگ نفسه، الشيخ المعادي له، إلى إنفاذ مفرزة تتألف من ألفي رجل لمساعدته في هذه المناسبة. وكتب إلى شلاش يقول: «أنا وأنت عدوان متخاصمان، ويمكننا ان نسوّي النزاع بيننا في موسم مناسب. لكن شرف العشيرة في الوقت الحاضر قد تعرض للخطر، ولا أستطيع السكوت عن ذلك

ما لم أقدم معونتي للمحافظة عليه». على أن المساعدة كان إنفاذها عبثاً، لأن عنزة كانت أقوى من أن تستطيع الجربا مهاجمتها بنجاح حتى لو كانت العشيرة كلها قد عبئت لهذا الغرض. فقد وقعت مناوشات طفيفة باديء ذي بدءٍ من دون أن يكون لها تأثير مهم في كلا الفريقين، ولكن في اليوم الذي سبق وصولي إلى بغداد نفسه أدت مناوشة من هذه المناوشات إلى وقوع اشتباك عام - على حد التعابير التي يستعملها العرب على الأقل - فاندحر الباشا وحلفاؤه في هذا الاشتباك اندحاراً تاماً، وقعت فيه حتى المدافع لمدةٍ ما في أيدي عنزة. لكن ثقل الحرب والخسارة وقع كله على عاتق الجربا التي قُطّع شلاش شيخها الجديد إرباً إرباً فيها وخسرت من الرجال، على ما يقال، أكثر مما وقع في أية حرب عربية منذ عدة سنين خلت. وبدافع من بعض الاحترام الباقي لسلطة السلطان استبقت عنزة جند الباشا والتفتت بانتقامها إلى أعدائها من العرب. وقد كان مضمون الهوسات المتعالية في الموقعة «خل النظام واقتل الجربا» وهذا ما فعلوه في الحقيقة والواقع. أما المدافع فإن بدو البادية الجهال لم يكونوا يفهمون على ما يبدو أي الاشياء كانت هي، وعلى كل حال فقد كانوا يجهلون كيفية استعمالها. ولذلك تركت في ميدان المعركة حتى استعادها جند الباشا، الذي شجعه رفق العدو به، من دون معارضة وتقهقر راجعاً بسرعة إلى حيث صار يحتمي بسور المدينة.

فعلى مثل هذا كانت الحالة العامة في بغداد حينما وصلت إليها. وإن الخوف من عنزة قد دفع كل قروي وبستاني، وجميع القبائل العربية الصغيرة التي كانت متعودة على النزول في الريف المحيط ببغداد، إلى داخل الأسوار. واضطر جميع من كان يملك قطعاناً من الأغنام أو الماشية أو الجمال في المناطق المجاورة إلى أن يلتجيء إلى داخل السور أيضاً فيشغل الفسح الوسيعة التي خلفها الفيضان. وهذا من شأنه ان يضيف بالتأكيد إلى تكاثر الناس وتدفق الحياة في الداخل، لكنه أيضاً يزيد بصورة مزعجة في الضوضاء والفوضى المستحكمة في الشوارع. وهذه القطعان من الحيوانات هي التي كنت من قبل قد ألمحت إلى مرورها في رواحها وغدوها من تحت شباكي في كل صباح. وحينما كنا نحاول في الصباح الباكر أن نمر من بعض الشوارع أو نخرج من

أبواب المدينة كنا نحسد أنفسنا على الصبر والتحمل الذي كنا نبديه قبل أن نستطيع المرور. أليست هذه صورة جميلة لولايةٍ كان يجب أن تكون من أعظم الولايات ازدهاراً وإنتاجاً في الامبراطورية التركية جميعها؟

٢٠ تشرين الثاني

لقد ركبنا وتجولنا كثيراً منذ أن دونت آخر تاريخ يومي إليكم، فقد مررنا بجميع المحلات المسكونة في بغداد، وزرنا معظم المشاهد التي تستحق الزيارة والالتفات. وكان من بين الأماكن التي زرناها مرقد السيدة الظريفة، سريعة الخاطر، زبيدة[1] زوجة هارون الرشيد. على أنني ليس عندي ما أعلق به على هذا المرقد سوى أنه يتألف من برج مستدق فريد في شكله يشبه المسلة، ويحمل على قاعدة طويلة بشعة جداً، ويحتوي الجزء السفلي منها على مكان القبر. لكنني لم أدخل إلى الداخل لأرى ما يوجد فيه. فإنهم هنا يبدون اعتراضات كنت أرغب في تحاشيها، خاصةً وقد كانت رغبتي في استطلاع المراقد الإسلامية قد حيل دونها في مناسبات كثيرة من قبل. وسوف لا أعمد إلى تسليتكم بالأفكار والمشاعر التي ربما تكون قد خطرت في فكري عند زيارتي لقبر هذه الحسناء الشهيرة، التي نقرن كلنا باسمها بعض ذكريات الشباب المفرحة، مع أن الأيام التي كانت تجلس فيها زبيدة وتسلي نفسها بالاستماع إلى القصص والمغامرات كما كان يفعل زوجها وسيدها لم أستطع تخيلها أمامي. لكن قصر الخليفة قد اختفى من الوجود، وأصبح حتى موقعه

---

(١) كان الرحالة نيبور أول من أشار إلى أن هذا القبر هو قبر زبيدة زوجة هارون الرشيد حينما زار بغداد في ١٧٦٦م، وقد أورد نص الكتابة الذي يؤيد قوله هذا. لكن الدكتور مصطفى جواد يرى غير هذا الرأي في كتاب (دليل خارطة بغداد) ص ١٧٠ على أساس أن زبيدة كانت قد دفنت في مقابر قريش أي في مشهد الإمامين الكاظمين. وهو يقول إن القبة المذكورة هي تربة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بالله وأم الخليفة الناصر لدين الله العباسي المتوفاة سنة ١٢٠٢م بتصريح عدد من المؤرخين.

مجهولاً. ورحل المجد عن هذه الأرض، فاختفت الروحية التي كانت توحي لأبنائها وبناتها العزم والقوة لتهيم في مجالات أخرى، وعلى هذا فلنترك تربة زبيدة ونلتفت إلى مناظر أخرى.

ومن الأشياء التي لا بد ان تلفت نظر الغريب في تجوالاته ببغداد، إلى جانب العدد الكبير من الأعراب الذين يلوحون له على الفطرة، كثرة الحمير البيض (المطايا) والعبيد السود القبحاء الذين تعج بهم الشوارع والأسواق جميعها. فإن الناس يقبلون هنا إقبالاً شديداً على الحمير البيض ولا يستبدلون هذا بأي لون آخر. ولذلك فمن النادر أن تجد شخصاً له منزلة محترمة، رجلاً كان أو امرأة، وهو يركب غير هذا الحيوان الأبيض - عدا الطبقات العسكرية التي تحتقر أي شيء يقل عن الجواد العربي الأصيل. ويفضل المثقفون ورجال الدين هذا الحيوان الذي تكثر فيه الوداعة، وكذلك تفعل السيدات كلهن. ولذلك فإن عدد الحمير التي تسخر للركوب هنا كبيرٌ جداً. ولما كان نساء الطبقات الرفيعة في المجتمع نادراً ما يتحركن من دون أن يصحبهن عدد كبير من نساء الحاشية اللواتي يركبن على الشاكلة نفسها، فإنهن حينما يقمن بزيارة البيوت المجاورة يصبح صوت الجوقة النهيقية شيئاً غير محتمل. وهذا النوع من الحمير ينتمي إلى عرق[1] أصيل خاص، ويباع بأثمان عالية جداً - فلا يعد مبلغ الأربعين أو الخمسين پاوناً استرلينياً ثمناً غير شائع بالنسبة لحيوان من هذا النوع كبير الحجم، أصيل العرق، دقيق الخطى، وتُرخّت هذه الحيوانات ترخيتاً بديعاً، ويشق منخر كل منها، كما يصنعون في إيران أيضاً، لأجل ان يصبح أطول نفساً في العادة - أن نفس هذه الحيوانات يعلم الله على جانبٍ كافٍ من الطول حينما تأخذ بالنهيق!

ويشيع الولع بالعبيد السود هنا بقدر الولع باقتناء الحمير البيض، وإذا ما أردنا أن نحكم بالمظاهر نجد أن قيمة هؤلاء تزداد بازدياد القبح الذي يتحلون به

---

(١) وهو عرق الحمير الحساوية المعروف الذي ظل يستعمل للركوب كما تستعمل الخيول إلى ما قبل سنوات في بغداد.

كما هي الحالة في كلاب الترير (Terrier) التي ينطوي حسنها في قبحها الخاص المعروف. ويأتي أولئك الحسان السود، الأنثى والذكر منهم، من مدغشقر وزنجبار غالباً، حيث يجهزهم في الأعم الأغلب أمام[1] مسقط - وهو حليف أمين معتبر من حلفائنا يقبض في يده على جميع الطرق التجارية تقريباً. وكلهم ذوو شفاه غليظة، ووجوه عريضة، وعظام بارزة في الوجه، وأنوف فطس للغاية، وذقون صغيرة مستدقة، وعيون بيضاء محدقة، وجلود سوداء طمطمانية. وإني وإن كنت أبعد ما يكون عن الدعوة إلى اعتبار العبيد بوجه عام عنصراً منحطاً عن البيض في الذكاء لوجود بعض الفروق التشريحية الطفيفة بين الفريقين، لكنني أقول إذا كان هؤلاء قد حباهم الله بالكثير من الذكاء فإن العناية الإلهية لم يكن يسرها مطلقاً ان تودع ملكات الذكاء في هيكلٍ أقل إغراءً من هذا. على أنك تجدهم هنا مفضلين جداً على غيرهم من الخدام في الحرم والأماكن الأخرى. فالشوارع تعج بهم، وجلودهم الصقيلة، وأوجههم الضخمة اللماعة، وملابسهم الزاهية، تقود إلى الاستنتاج في الحال بأنهم ينعمون في حال ميسرة. على أن هذا فيه ما يدعو إلى الاستغراب إذا ما أخذ في ضوء ما يعرف عن الأتراك ومعظم الشرقيين من فوقية تجاه عبيدهم. كما ان التبختر الوقح، واللغة السليطة التي تصدر من أولئك السفهاء السود حينما يمرون بك في الشوارع، لا تدع مجالاً للشك في كونهم محاسيب مدللين لبعض السادة المتطرفين في التساهل. على أن التمتع بهذا النوع من الترف يقتصر على المسلمين فقط، لأن أي مسيحي أو كافر من أي طبقة كانت لا يسمح له القانون بامتلاك أي نوع من العبيد. وليس هذا هو المنع الوحيد الذي يُميز به المسلمون على غيرهم هنا، فإن المسيحي واليهودي يمنع قانوناً من الركوب في الشوارع. ولذلك لم يجرأ اليهود ولا النصارى في أيام داود باشا على الظهور وهم يركبون الخيل أو البغال أو الحمير، غير أن هذه القواعد أخذت تكسر أحياناً في عهد علي باشا الذي يسود فيه التراخي. ولا أراني

---

(١) كان الإمام في مسقط على هذا العهد السيد سعيد.

بحاجة إلى أن أضيف على ذلك فأقول إن الإنكليز، والإفرنج بوجه عام، يعفون من هذه القيود ويستطيعون الركوب بحرية كما يشتهون.

والخصيصة الأخرى التي يتميز بها الجمهور الذي يغشى الأسواق عادةً الأشباح، المتشحة باللون الأزرق[١] الغامق والمقنعة بالأقنعة السوداء، التي تمر محتذية أحذية[٢] صفراء صغيرة خاصة، فيقال لك إنهن نساء. وهن يعلم اللّٰه، حين يظهرن متنكرات بهذا الشكل، أشبه بأي شيء آخر عدا الجنس اللطيف من المخلوقات. فإن لفافاتهن الزرقاء الغامقة، أو القماش الأزرق والأبيض الذي يلفهن من الرأس إلى القدم يخفي الشكل واللباس إخفاءً فعالاً، بينما يقوم البرقع الأسود (البيچة) المصنوع من شعر الخيل المنسوج نسجاً خفيفاً يحجب الوجه عن أعين المارة حجباً تاماً، ولكن المرأة المحجبة به تستطيع في الوقت نفسه أن ترى جميع ما يمر أمامها على الوجه الأكمل. وقد ضحكت مرةً حينما رفع أحد هذه البراقع الداكنة بالصدفة وبان من ورائه وجه أشد سواداً من القناع نفسه. لكنه قد يحدث في بعض الأحيان كذلك أن يتوارى وراء الحجاب الضنين وجه جميل من أوجه الفتيات الگرجيات[٣]، وقد شعرت ذات يوم بدافع قوي يدفعني إلى مد يدٍ دنسة أحول بها لحظةً من الزمن دون انكساف منظر من أجمل المناظر، من النادر أن يوجد في هذه الجهات - منظر جمال أنثوي أخاذ - والحقيقة أن أحداً لم يستطع في يوم من الأيام أن يخترع أقبح وأوحش من الأكفان الفظيعة التي اخترعها الحسد الشرقي ليلتف بها النساء فيشوهن بها أنفسهن عندما يظهرن في الخارج، بغية إفزاع العيون المتلصصة والحيلولة دون روحية الخلاعة والفساد. فبها يظهر الشباب

---

(١) الظاهر أن عباءة النساء، أو الإزار الذي كانت النساء تتبرقع به في تلك الأيام كان لونه أزرق بدلاً من اللون الأسود الذي يشيع في الوقت الحاضر ويعم.

(٢) كان يسمى هذا النوع من الأحذية الجدوك.

(٣) لا شك أن كلمة كرجية تعني امرأة من الكرج الذين كان يؤتى بهم من كرجستان (جورجيا) في قفقاسية، ولا تزال توصف المرأة الجميلة في العراق بكلمة كرجية باللغة الدارجة كما لا يخفى.

والشيخوخة، والجمال والتشويه، بنفس المظهر المضلل، والفكرة التي توحيها كل امرأة تتزيا بهذا الشكل فكرة تنم عن عجوز شمطاء مخيفة، متسربلة بلباس الفقر والضعة.

ومع هذا، فهل يحمي هذا المظهر المنفّر في الحقيقة الثمرة المحرمة عن العيون المشتاقة يا ترى؟ وا أسفاه! إن قصص الحب والمكر التي لا ينضب معينها، والكوارث المفجعة التي تنتهي بها مآسي الحب والجريمة هذه، تحدثنا عن قصة تختلف تمام الاختلاف عن هذه وتثبت بكل تأكيد أن القوة المجننة والعواقب التي تنطوي عليها العواطف المكبوتة في هذه البلاد وجميع البلاد الأخرى هي شيء واحد. فمن المعروف تمام المعرفة أن هذه البراقع الواقية في الحقيقة تحجب عن الأنظار في بعض الأحيان أجمل حسناوات الحريم - نساء شابات جميلات، وسواء أكن جميلات أم لم يكن فهن يرتدين أفخر وأبدع ما يمكن أن تسمح به ثروة الوالد أو الزوج. فالتركي يصرف ثروته التي يحاذر التظاهر بها في الخارج على نسائه وبيته، ويكون صرفه هذا سخياً. فقد تكون غرفة استقباله حقيرة، وقد يكون سجاده قديماً متهرئاً، ووسائده بالية، وقد يكون الشال الذي يلف به رأسه أو محزمه رثاً أو من غير النوع الكشميري الأصلي، لكن غرف الأماكن التي يمنع الدخول إليها لا تكون مؤثثة تأثيثاً مريحاً حسب بل مترفاً أيضاً. ولو تيسر لك الدخول لوجدتها مفروشة بسجاد هراة وكرمنشاه، ويانات قايين وتفت، ولرأيت فيها الجيت من الهند وإنكلترة، والشراشف من يوركشاير وغلوستر شاير، والحراير من الصين أو يزد أو كاشان، تزين غرف نسائه وتجعلها جميلة مريحة. وستجد كذلك رؤوسهن مكللة بالشال الكشميري أو بأغلى كفافي ليون المطرزة، وأجسامهن تكتسي بأبهى أنواع القطيفة وتتدثر بأغلى الفراء. وستلاحظ كذلك آذانهن وجباههن وأعناقهن تتألق بالجواهر، وشعورهن مضفورة باللآلىء، وأصابعهن مغطاة بالخواتم المتلألئة، ومظهرهن كله مع كل شيء من حولهن يدل على الثراء والترف.

وليس هناك في الحقيقة أكثر زهاءً وبهاءً في اللون والمادة من لباس

السيدات التركيات في بغداد. لكنني أخشى أن أكون عاجزاً عن أن أنقل إليكم فكرةً صادقة عن أزيائهن من دون رسوم متقنة. فإن المرأة التركية على ما استطعت التوصل إليه ترتدي أولاً قميصاً يصنع من نسيج حريري رقيق ذي ألوان مختلفة، ويفتح من الأمام إلى ما يقرب من المحزم لكنه يضم حول العنق بحلية من الحلي عادةً. ويكون هذا القميص مطرزاً تطريزاً جميلاً حول العنق وعلى طول الصدر، كما تكون الأردان الطويلة الفضفاضة التي تبدو معلقةً من خنقتي اليد المفتوحتين في السترة معمولة بالذهب والفضة (الكلبدون) والحرير الملون بألوان مختلفة. ويرتدي البعض منهن فوق هذا نوعاً من الصدار المزين بزينة جميلة جذابة، تمتد من العنق إلى الوسط. لكنني أعتقد أن هذه القطعة من الملابس تستعمل في الدرجة الأولى لستر عيب من العيوب في اللباس الذي تغطيه. وتلبس فوق القميص صدرية ذات ذيل طويل تتلبس في الجسم تلبساً تاماً يظهر شكله إلى حد الوسط، مع أردان ضيقة تبقى مفتوحة حتى المرفق تقريباً. وتصنع هذه من جميع أنواع الأقمشة الغالية كالحراير المشجرة أو السادة، والأقمشة الموشاة، والشال، والقطيفة وما أشبه، وتزين بالوشي أو التطريز من جميع الأنواع تبعاً لذوق اللبّاسة. ويرتدي بعضهن سترة قصيرة من قماش مماثل، مبطنةً بشيء من الفرو الناعم، فرو السمور أو القاقم، وموشاة بالكلبدون كذلك. لكن الشائع الآن كما علمت استعمال الكورك، أو رداء الفرو الطويل. أما السراويل الطويلة الواسعة التي تكاد تختفي تحت سائر الألبسة فهي تخاط بالحرير الملون الزاهي. لكن السيدات التركيات يبدين تذوقهن للأناقة والصرف في لباس الرأس والمجوهرات عادةً. فلباس الرأس الذي يسمى هنا «باشلك» يتكون اعتيادياً من منديلٍ واحد أو منديلين، أو شال، تلف حول الفيس (الطربوش) الأحمر الذي يعتبر غطاء الرأس الوطني الذي يلبسه الأتراك جميعهم والنصارى واليهود، رجالاً ونساءً، الداخلون في حكم السلطان. وهو يصنع من اللباد أو القماش الأحمر، وتكون له عذبة أو شرّابة (پسكولة) من الخيوط الزرق. ويطرز الفيس الذي تلبسه السيدات تطريزاً باللؤلؤ ينطوي على الكثير من الذوق. ويبدل في بعض الأحيان لون الشرّابة والفيس بحيث يلائم رغبة

اللابسة. ويلف الشال أو المنديل حول هذا بأشكال تفوق في لفها أي شيء رأيته من هذا القبيل في قبعات أو عمائم السيدات في بلادنا نحن. وأعتقد أن أحسن ما يستعمل من المناديل يصنع في أنوال ليون، مع أن هناك مناديل مطرزة جميلة جداً من صنع استانبول. لكنني ليس بوسعي أن أصف لكم أو أبالغ في وصف الذوق النفيس والرقة المنطوية في القماش. فإنها تنطوي في جميع ألوان القماش ودرجات الألوان، وتطرز أكاليل الأوراد فوقها، تطريزاً كله ذوق وأناقة، بكل درجة من درجات الألوان الرقيقة التي تختلط بكلبدون الذهب والفضة. وحينما تلف المناديل الجميلة هذه حول الرأس يلاحظ في ذلك تعريض هذه الزينة والتطريز إلى الخارج بأجمل شكل، على أن تبقى نهايتها مدلاة بشكل رشيق خاص. ويكون الشال المستعمل على الدوام من أفخر أنواع الشال الكشميري الذي تطرز حواشيه بكلبدون الذهب والفضة، أو باللؤلؤ وسائر المجوهرات. وحينما يلبس لباس الرأس هذا يضفر مع الشعر في العمامة ليكون زينة قائمة بذاتها، وتتدلى من ذلك ضفيرة أو ضفيرتان إلى الخلف تنتهي كل منهما بشرّابة من نقود الذهب أو المجوهرات. ويعلق ملفوفاً بالشعر، من جهة واحدة تحت اللفة أو العمامة، حبل من خيوط اللؤلؤ يعقد بالأحجار الكريمة. وكذلك يعلق مقدار من اللؤلؤ بأشكال مختلفة بجنبه تبعاً لذوق السيدة ورغبتها. أما المجوهرات التي يشيع استعمالها ولبسها، فإنني لا أدري كيف أصفها من حيث شكلها المختلف ومكانها ولونها. فهناك «الجيكة» وهي حلية صنوبرية الشكل توضع في جهة واحدة و«التيته» في الجهة الأخرى، و«عين الگوني» في الأمام متدلية على الجبهة، وتكون هذه الحلي جميعها من الماس، والياقوت، والزمرد. وهناك بعد ذلك ألف شيء من الأشياء الأصغر كالفراشات والبكلات والدبابيس والأعلاق، مما لا يمكن تعدادها أو وصفها. والخلاصة، أن لباس رأس السيدة التركية بكامل زينته من المجوهرات يكوّن كلاً غنياً مذهلاً، ويبدو لك في الحال شيئاً بهياً جميلاً يمتلىء بالذوق ويتحدى الوصف.

وتُزيّن الأذنان بالأقراط، كما تحاط العنق بعدد من قلائد الماس والزمرد واللؤلؤ والسلاسل الذهب. وتشد أنواع «البازبند» على الذراع بين الكتف

والمرفق، وهي ذات قيمة كبيرة. وكذلك تتلألأ المعاصم على الشاكلة نفسها بأساور لا يمكن أن توصف من حيث عددها وتنوعها. كما يحاط المحزم بمنطقة من القطيفة تشد بإبزيم من الذهب المزين بالأحجار الكريمة، ويثبت بالمنطقة نفسها عدد من قطع الماس. أما الفقراء فيكتفون بأحجار أرخص وشغل الذهب الدقيق. وفي النهاية، تغطى الأصابع بعدد لا يحصى من الخواتم والحلق المرصع بأحجار في أدق الحجوم وأندر البريق، وحتى أصابع القدمين تكون لها زينتها من الأحجار. وهكذا تصبح السيدة التركية أثناء وقوفها أو تحركها كتلة من النور الباهر والرونق الأخاذ.

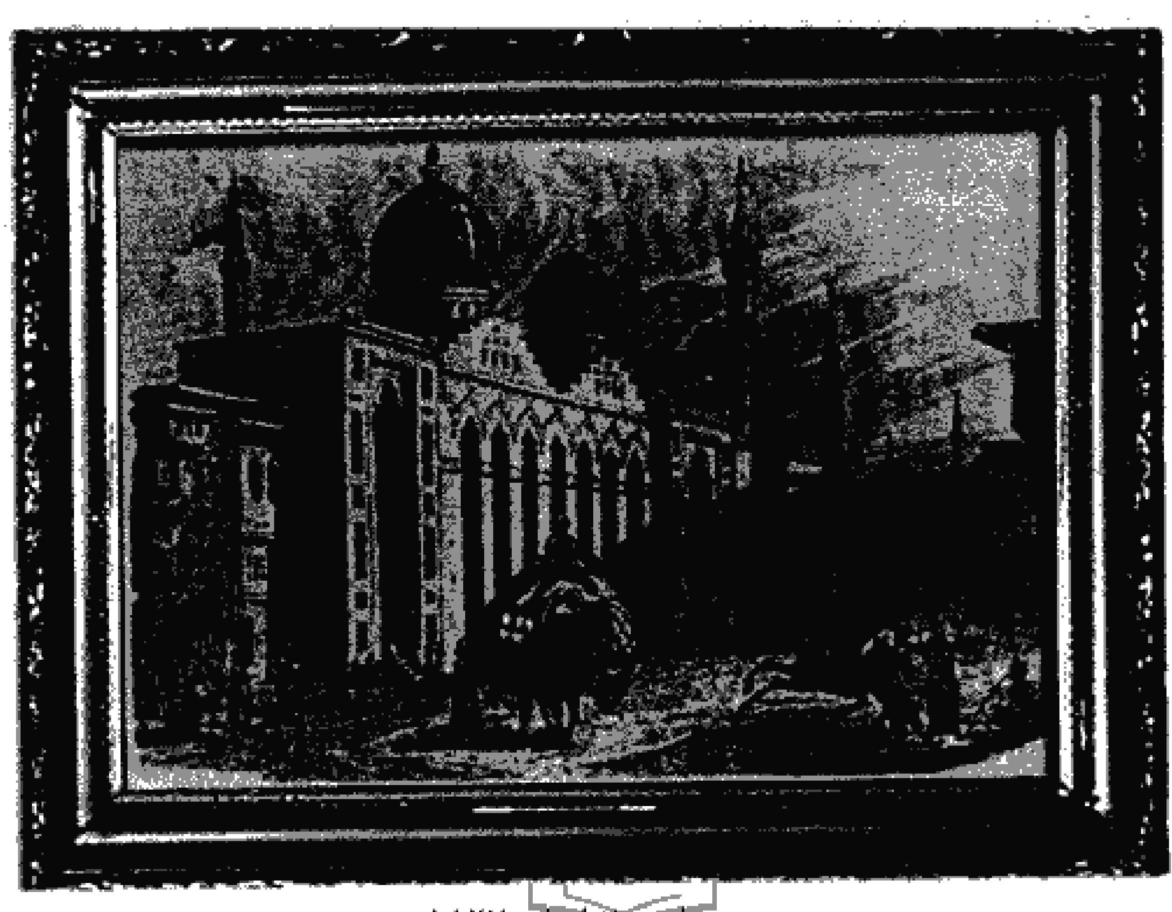
وقد نسيت أن أذكر، بين الحلي التي تزين بها الأيدي والأقدام، نوعاً غريباً من الحلق يلبس بالإبهام وأصبع القدم وهو أشبه بنصف كشتبان، يلبس وجانبه العريض يتجه إلى الأعلى، ويرصع بالزينة اللماعة والمجوهرات. وهناك، عفواً، البوابيج الجميلة التي تحتمل أي نوع من الزينة الملائمة لذوق الحسناء وقابليتها على الصرف. وهذه لا تكاد تحفظ أقدامها الجميلة من السجاد الثمين الذي تمشي عليه، ولكنها لما كانت تستعمل في التنقل من غرفة إلى أخرى فقط فإن خفتها لا تحول دون الاستفادة منها.

وستدركون من هذا بلا شك أن لباس السيدة التركية ليس زاهياً جداً فحسب بل إن ثمنه أيضاً يمكن أن يزداد إلى ما لا نهاية تبعاً لإيراد صاحبتها، لأن طراز زينتها يمكن أن يتغير وفقاً لذوقها. وقد كنت أتمنى أن أقول علاوة على هذا إن عقول اللابسات الحسناوات تزدان بحلي الفكر والمعرفة كما تزدان أجسامهن بالألبسة. غير أنني بالنسبة لجميع ما استطعت التوصل إليه من معلومات يمكن أن أقول إن هذا بعيد جد البعد عن الحقيقة والواقع. فالحقيقة أن جهل، وسخافة، وسماجة نساء الطبقة الراقية في بغداد أشياء تلفت النظر بصورة مؤلمة. وليس من الصعب علينا أن ندرك كيف لا يكنّ على غير هذه الحالة. فأي فرص للتحسن يمكن أن تتوفر لهن في محيطهن، عن طريق القدوة أو الفرض؟ وأي نماذج تتيسر لهن في مكانهن فيقلدنها ويحسّن من وضعهن على منوالها؟ فهن وقد دُربن على تسلية سيد يكون في كثير من

الأحيان شيئاً أحسن من الوحش بقليل، وعلى أن يلبسن ويتزوقن ويتسمن ويقيّدن أنفسهن بحيث يتلاءمن مع مزاج سيدهن الذي لا يستطيع، ولا يريد، أن يقدر إبداء أي مقدار من الذكاء والنشاط العقلي في مملوكته المتزوجة - كيف ينتظر منهن أن لا يكنّ في الأعم الأغلب سوى دمى خالية من الروح والعقل؟

وليست لديهن في البيت، على قدر ما استطعت التأكد منه، أشغال تشغلهن سوى اللبس وترتيب الملابس والمجوهرات، والتدخين، وتناول القهوة، أو القشب والثرثرة مع الخدم والنساء اليهوديات اللواتي يأتين إلى البيوت لبيع الأقمشة واللعب والمجوهرات (الدلالات). وقد يلعبن مع أطفالهن إذا كان لديهن أحد منهم، لكنهن ليست لديهن أية فكرة عن تربيتهم وتثقيفهم الذي يترك أمره عادة إلى «الدايات» والمربيات. ومن أعظم وسائل اللهو والتسلية عندهن التزاور بينهن، وتنطبع زيارتهن هذه بطابع خاص بها. إذ يندر أن تذهب إحداهن في زيارة مثل هذه لوحدها أو تكتفي حتى بأخذ واحد أو اثنتين من الحاشية معها. ولذلك تجد في هذه المناسبات أن بيتاً بكامله يتحرك مرة واحدة كأنه مستعمرة صغيرة، أو رتل صغير من أرتال الجراد، فيحط في بيت صديق من الأصدقاء أو جار من الجيران. وقد يتألف البيت المتحرك من زوجتين أو ثلاث زوجات، مع الأخوات، والعمات والخالات، وبنات العم، وبنات البيت نفسه، والمملوكات، والخدم، والأطفال والمربيات. وعلى المضيفة أن تعد العدة فتضيّف القطيع كله - وليس هذا بالواجب السهل، وخاصة عندما تكون المضيفة على غير علم بقدوم الضيوف أو حينما تكون الضيفة ذات منزلة رفيعة. ولذلك يحصل شيء غير قليل من الهرج والمرج والجري إلى الأسواق والجيران للحصول على الوسائل المطلوبة والمواد للقيام بواجب الضيافة. وكثيراً ما يبلغ عدد الزائرات في زيارة مثل هذه أربعين إلى خمسين شخصاً من أولئك الأشخاص المرحين.

وفي مناسبات مثل هذه لا بد أن تتوقف جميع الأعمال مهما كان نوعها - فعلى المضيفة أو المضيفات ومملوكاتهن أن يعطلن كل عمل ويعلنّ حول عطلة عامة في البيت. وبعد ذلك تبدأ قعقعة الألسنة، وتتعالى الضحكات، وتنطلق



من جوامع بغداد في ۱۸۲۷م

الثرثرة. فلا بد للحسناوات التركيات، وقد خرجن من سآمة بيوتهن وضجرها أو من التقيد بحضور أزواجهن، أن يكن مرحات بمقدار كاف على الأقل. وحينما يكن مرحات لا يوجد أشد صخباً ولغطاً منهم في العالم. ولا أريد في الحقيقة أن أكون غير منصف، أو قاسياً في حكمي، ولا أن أقول غير الصدق. لكن أصوات النساء هنا كلها من وزن واحد على ما يبدو، وهو وزن الصراخ الذي يصدر من بعض الناس هنا حينما يكلم أحدهم صديقه الجالس في طرف آخر من سوق مزدحم. فهن كلهن يزعقن ويصرخن بصوت عال، وحينما يتكلمن كلهن على هذه الشاكلة في وقت واحد، كما هي الحالة عادة، فإن تأثير ذلك يكاد يتفوق على النهيق الذي يصدر من مطاياهن المربوطة في الأسفل وليس هذا بقليل. ولا أقول هذا استناداً إلى معلومات نقلت إليّ، لأنني حينما مررت ذات يوم في أحد الشوارع بدار كانت قد تشرفت بإقامة حفلة نسوية خاصة تسمعت لأصوات الطرفين فيها. لكنهن لا يكتفين بصوتهن فقط،



ساحة الميدان والقلعة قبل مئة عام

ولا بمباهج أحاديثهن وإنما يستنجدون بالمغنيات والراقصات كذلك. وحينما تكون الحفلة في أوجها وتنطلق أصوات المغنيات والراقصات ثم تتصاعد قرقعات التصفيق من الحاضرات كلهن يصل الضجيج والضوضاء إلى القمة.

وقد كنت أتمنى أن يكون تحدث الحسناوات في بغداد بالصوت العالي الذي أتيت على وصفه العيب الوحيد فيهن. ولكنهن، وهن المعروفات بالجهل، ينفّرن الأشخاص المتفوقين عليهن من حيث التهذيب بسماجتهن، ودناءتهن، وفضولهن. ومن الخطر أن يطلق لفيف منهن بين أشياء منتقاة غريبة، لأنهن يتهافتن عليها بالمخلب والناب فيشوشن ترتيبها بالكلية، أو يقطعنها ويفككنها. إذ يتقن لها، بل ويطالبن بها بخشونة بالغة أحياناً - وقد يحصلن على ما يعجبن به حتى عن طريق السرقة أيضاً. أما طريقة حديثهن وتخاطبهن فتتميز بكل شيء عدا التحفظ والرقة، ولا يمكن أن يرتفعن بطبيعة الحال إلى أعلى من نطاق تعلمهن المحدود ومجال عقولهن. على أنهن قد يتحلين في بعض الأحيان بسلوك السيدات المحترمات على ما يقال، وكثير

منهن يكن لطيفات الطوية حسنات الخلق. وإني أتصور أن هذه الصفات هي التي يتكون منها جماع فضائلهن الاجتماعية، عدا بعض الاستثناءات الفردية التي يمكن أن توجد بطبيعة الحال. وقد تكون جرثومة الصفات الحميدة الأخرى قد ولدت معهن، لكنها قد وهنت بالإهمال، أو قضى عليها تفاقم الرياء، والاستهتار بالقيم الذي يشجعه وضع المجتمع الذي ينحصرن فيه بشقاء واكتئاب. ولذلك فإني أهنىء النساء الأوربيات، والإنكليزيات منهن على الأخص لأن العناية الإلهية الرحيمة قد حفظتهن من مثل هذه الحالة المنحطة.

ولم أتطرق حتى الآن إلى ذكر شيء عن طبقات النساء الدنيا لأنهن يكدن يكن الكادحات المسترقات اللواتي يخلفن العوز في جميع البلاد، وبارتقائهن في سلم الثروة والرفاه يقلدن المتفوقات عليهن. فإنك تجدين النساء العربيات يطفن في الشوارع غير محجبات وبملابس رخيصة جداً، وهن يتغطين بالعباءة الأبدية، وقد وشمت جلودهن بعلامات لا عد لها من الوشم. أما المتزوجات منهن فيحملن في أحد منخريهن خزامة من الذهب أو الفضة كأنها زر كبير من أزرار التخريم، ويتزين بخلاخيل وأساور من الفضة أو النحاس الأصفر تبعاً لإيرادهن وحالتهن المالية. وأعتقد أن الأرمنيات والكاثوليكيات يلبسن كالنساء التركيات تقريباً. لكن اليهوديات لهن زي مختلف لا أعرف شيئاً عنه، كما أن أرمنيات الأماكن الأخرى لهن أزياؤهن الخاصة كذلك. وقد قيل لي إن جميع الأزياء النسائية في بغداد تختلف اختلافاً غير يسير عن الأزياء في استانبول.

وبعد هذه النبذة الطويلة عن أزياء النساء وملابسهن فإنكم قد تعذرونني لعدم دخولي في تفصيلات خاصة عن ملابس الرجال. فإن الزيين السائدين في هذا الشأن هما الزي التركي والزي العربي. إذ يرتدي التركي صداراً متسعاً يشد حول المحزم بشال، ويلقى فوقه رداء من القماش العريض الذي يكون مطرزاً في العادة. وفي الطقس البارد يرتدي سترة مبطنة بالفرو، وعمامة كبيرة من الموسلين الأبيض أو الشال على رأسه. أما اللباس العربي فقد أتيت عليه من قبل، وليس عندي ما أضيفه هنا سوى أن أقول إن خليط الملابس والألوان وبريق الأسلحة والنياشين يتكوّن منه منظر بهيج تنبض فيه الحياة لدرجة غير يسيرة.

(٨)

زيارة الباشا - مظهره وأخلاقه - دهاليز الاغتيال - الكهية وضباطه - صخب الخدم ومطالبتهم بالبخشيش - شره الباشا وتشبثه بقلب المعادن إلى ذهب - تجربة ناجحة - الدراويش - طبقاتهم الثلاث - دراويش التكايا - الدراويش المتوطنون - والمتسولون - قصة مأمون المصطفى - زيارة للدراويش - حيلهم وادعاءاتهم - زيارة للشيخ عبدالقادر - النقيب - التربة والجامع - كنيسة الروم الكاثوليك ورئيسها.

فاتني أن أذكر لكم أنني بعد وصولي إلى بغداد بيوم أو يومين ذهبت لزيارة الباشا[1]، الذي كنت قد جلبت له كتاباً من شيخ الإسلام في تبريز. وقد استقبلتُ بما يكفي من المجاملة، لكنني يمكن أن أقول بالتأكيد إنه ليس هناك شيء يمكن تصوره ليكون أقل تعبيراً عن فخامة المقام وأبهته من مقام سموه، ولا أقل اعتباراً من خلقه ومظهره.

فقد كان الدخول إلى مسكنه، الذي يصعب أن يسمى قصراً، على أقل ما يمكن أن يكون، وكان القائمون على خدمته يتناسبون مع المكان الذي يعملون فيه تناسباً تاماً - إذ كان هناك عدد من الألبانيين الرثين في مظهرهم، وقليل من الأتراك المنصرفين إلى التدخين، وجماعة من الموظفين سيئي الهيئة والهندام. ولم يكن الشخص الذي أُدخلنا للمثول بين يديه على حال أحسن بكثير منهم. فقد وجدنا هناك رجلاً بديناً يناهز الخمسين من عمره، عليه رداء من الفرو، وفي رأسه طربوش، يجلس في جناح خارجي مؤثث تأثيثاً اعتيادياً، ومفتوح على الساحة بكليته. وكانت هناك على الأرض سجادة لا بأس بها،

---

(١) إنه علي رضا باشا اللاز كما لا يخفى.

وكان المسند والأفرشة التي جلسنا علينا مغطى بقماش من الحرير القرمزي.

وكان الباشا، على ما ذكرت، رجلاً بديناً فيه شيء كثير من سحنة التتر، ولكن بشكل مقبول. وقد تحدث إليّ كثيراً، راداً على فارسيتي باللغة التركية. فكان حديثه على وجه العموم شيقاً بالنسبة لمقام الباشوية الذي يشغله. غير أن المجلس كان فيه عدد كبير من الأشخاص لا يسمح للباشا بأن يفتح لي قلبه بحضورهم، كما كان من المؤمل أن يفعل لو كان لوحده على ما رُوي لي عنه. فقد كانت الغرفة ملأى بأناس كانوا يرتدون ملابس تركية وعربية وإيرانية وكردية، ولم يكن يخلو المجلس من المحدثين والمتكلمين. ولما كانت الفائدة من مثل هذا التحدث قليلة نهضت بأقرب ما كانت تسمح به اللياقة والحشمة، وبعد أن ترخصت من فخامته ذهبت لزيارة الكهية الذي كان يجلس في غرفة مظلمة تقع في ممر يبدو على درجة كبيرة من الكآبة. وفي مثل هذه الدهاليز المظلمة من سرايات الأمراء والباشوات تقترف حوادث القتل والاغتيال الكثيرة عادةً. فإن الضحية المسكينة التي يراد الإجهاز عليها ما إن يمر منها وهو خلي البال مما يهدد سلامته حتى يجد نفسه وقد لُفّ شال حول عنقه من الخلف قبل أن يصرخ بكلمة «الله»، أو يخرج إليه من باب جانبي ألباني جلواز فيفرغ النار من قربينة (بندقية صغيرة) في بطنه، أو يطلق خرطوشة مسدس في دماغه، فينتهي أمره وسرعان ما يشاهد جذعه الخالي من الرأس معروضاً في «الميدان». وقد حدث شيء من هذا القبيل قبل مدة قصيرة في هذا الممر بالذات، على ما رُوي لي، على أني اجتزته سالماً والحمد لله فوجدت الكهية، الذي كان على رأس الجيش المنكسر[1] جالساً في زاويته وبالقرب منه عقيد في الجيش النظامي، وضابط من ضباط الخيالة الألبانيين، وعدد من أناس غير معروفين، مسطرين في جوانب الغرفة الثلاثة وقد جاءوا يهنئونه على

---

(١) المنكسر في اشتباكه مع عنزة في جانب الكرخ، كما مر في الرسالة السابقة. وكان علي رضا باشا قد عين في منصب الكهية وكالة، بعد أن قضى على المماليك، الحاج يوسف أغا من وجهاء حلب الذين رافقوه في الحملة. ومع ذلك عين لهذا المنصب أصالة الحاج محمد أسعد أفندي آل النائب، والأرجح أنه هو المقصود بهذه النبذة.

مآثره الأخيرة على ما أحسب. لأنهم على ما يقولون قد قاموا بأعمال باهرة برغم هزيمتهم المنكرة! فقد أقسم قائد المدفعية أيماناً مغلظة بأنه أطلق خمسمئة قذيفة من مدافعه، فقتلت كل قذيفة خمسة عشر رجلاً من رجال العدو. وهو لا يذكر رقماً «أكبر» من هذا لأنه يود أن يبقى في ضمن الحدود المعقولة القابلة للتصديق! ومع كل هذا فقد أجبروا على التقهقر بطريقة من الطرق، إنه يعترف بهذا على كل حال.

وقد اكتفينا هنا بزيارة قصيرة: إذ تناولنا القهوة ودخّنا شطباً أو شطبين[١] - هذا ما فعلوه هم على الأقل - ثم عدت من السراي محفوفاً بلفيف من خدام فخامته وهم يطالبونني، وليس يرجونني، بالهدايا مطالبة ملأى باللجاجة والإلحاف. وهذا إزعاج ممجوج للغاية تشاهده هنا وفي استانبول، لكنه أشد إزعاجاً هنا. فإن «جميع» الخدم الذين يقفون في خدمة أي رجل كبير تزوره هنا ينتظرون من الغريب أن يطعمهم أو يقدم لهم هدية من الهدايا، وقد أصبحت هذه العادة الممقوتة جزءاً من الوضع العام بحيث إن الخدم يعدون هذه الإكراميات قسماً من أجورهم أو رواتبهم، ولذلك لا يمكن لأي شخص أن يتحاشى الإذعان لها. فكل فرد أو مراجع لا بد ان يستفيد من المراجعة فيدفع لهم تبعاً للفائدة التي يحصل عليها. إذ يدفع الموظفون والمستخدمون هذه «الرسوم» لخدام الرجل الكبير من أجل تكوين أصدقاء في الديوان، بينما يدفع لهم هم بدورهم من يروّجون له أشغاله. وهكذا أصبح هذا التعامل عادة شائعة بحيث إن المرء لا يمكنه القيام حتى بزيارة اعتيادية بسيطة دون أن يدفع شيئاً للجميع. وقد أصبحت هذه في السراي على الأخص عادة ممقوتة للغاية، إذ يحدق الأتباع والخدام الذين لا حصر لهم بالمرء كاللصوص، وينفذ الاجبار على الدفع إلى حد قيام الجنود الذين يقفون للتحية بمد بنادقهم لقطع الطريق عليك حتى تدفع «الرسم» المطلوب.

---

(١) لقد أشرت في حاشية متقدمة أن الشطب هو الجبوق، ويقدم للزائر أو الضيف كما تقدم النارجيلة (الشيشة) أو السيكارة. وقد كان في ديوان الباشا يومذاك عادة، رجل موكل بهذه الخدمة يسمى (جبوق باشي).

ولا أدري إذا كان لا بد لي أن أعود إلى موضوع الباشا نفسه، على أن رسم صورة تقريبية لبغداد لا يمكن أن يتم من دون تكريس عدد من جرات القلم لوصف سيدها الحالي. فقد سبق لي أن أتيت على وصف علي باشا ومظهره الخارجي. أما عقله فليس أكثر جاذبية من الوعاء الذي يحل فيه. فهو ضعيف الرأي، واهن العزيمة، متردد في العمل، فظ في قابلياته وشهواته، أناني جشع. والمقول عنه إنه غير ميال في طبيعته إلى القسوة أو الظلم ولكنه يكره ازعاج نفسه بالإجهاد من أي نوع كان بحيث إنه يفضل تعذيب الآخرين من دون رحمة على الخضوع لمثل هذا الإزعاج ولو أدى به الأمر إلى ارتكاب أفظع الجرائم. ولذلك استغل خدامه نقطة ضعفه هذه، والطمع الذي يساوره، في الجور على الناس لأنهم مطمئنون بأنه لا يمكن أن يشاجر أحداً يأتي له بالمال ولا يعمل على إقلاق راحته. وهو على ما يقال دمث الأخلاق، مطلع على شيء غير يسير من الأدب التركي، وقد سمعت من مصدر ثقة أن أبيات الشعر التي ينظمها بالتركية لا بأس بها. لكنه بمجموعه رجل ذو ميول خسيسة، وغير لائق أبداً للمنصب العالي الذي يشغله بمسؤوليته الكبيرة[1].

---

(١) جاء في كتاب لونكريك عن علي رضا باشا «.. وقد أبدى خلال اشتغاله في هذه المدة شيئاً من حرية الفكر. وكان كرمه مضرب الأمثال، كما كان قسم كبير من سماجته مختفياً وراء اعتداله.. يضاف إلى ذلك أنه كان ذا أخلاق سامية، وله رغبة في عمل الخير زيادة على ميوله الأدبية والعلمية. على أنه كان حاكماً فاشلاً حقاً، فقد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل أن يحرك قبيلة على أخرى. وكان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن إجهاد نفسه في العمل.. ولم يكن قادراً على ضبط المدن ولا القبائل، ولا قواته الخاصة غير النظامية.. أما في الأمور المالية فقد وجد على عهده العسف في الجباية وفراغ الخزينة في صعيد واحد. وعلى هذا يمكن القول إنه لم يفز بالذكر الحسن إلا بنجاحه في خلع داود باشا، وبسخائه في منح الأراضي. وقد تزوج في بغداد ثم انتقل إلى سورية في ١٨٤٢م». هذا وقد تزوج في بغداد بنتاً من بنات المماليك هي سلمى خانم شقيقة والي بغداد الأسبق سليمان باشا الصغير. أما زوجته الأولى التي تركها في حلب فقد كان كريمة يوسف باشا الصدر الأعظم في أيام السلطان عبد الحميد خان.

وللباشا ولع شديد بالكيمياء القديمة (السيمياء) من بين جميع الصنعات الأخرى، وهو يصرف على ما يقال مبالغ غير قليلة على الدراويش والقلندرية والمغامرين الذي يدعون المهارة بها. ولو أردنا تصديق الأخبار التي ترددها الأفواه نجد أن هذا المال لا يصرف كله عبثاً، إن هناك الآن رجل في هذه المدينة قد نجح بالفعل، كما يؤكد البعض، في قلب النحاس الأصفر إلى ذهب والرصاص إلى فضة. ويمكنكم بأن تطمئنوا هذا الخبر كان كافياً ليوقظ فيّ حب الاستطلاع، فقررت أن أرى إن أمكن هذا الكيميائي أو بعض الناس الذين شاهدوا بأنفسهم هذه العملية على الأقل. فتبين بعد البحث أن التجربة قد أُجريت بحضور الباشا نفسه ورجل إيطالي يدعى المسيو دي ماركي[1]، كان يشرف في زمن الباشا السابق (أي داود) على المسلح (دار الأسلحة) ودار سك النقود (السكة خانة) معاً، واستمر على ذلك حتى الوقت الحاضر. وهو فوق هذا كله رجل بارع. وقد حصلت منه على قصة هذه التجربة كلها، وهي إذا لم تؤيد بالتمام جميع ما أُخبرت به في هذا الشأن فإنها على الأقل تثبت أن الباشا كان يتعامل مع رجل غير دجال. فقد أعلن هذا الرجل، وهو عربي، في الأخير انه على استعداد ليجرب فنه بعد أن ظل عدة شهور يشتغل في مختبره في تحضير أكاسيره ومركباته، وتسلم كثيراً من المال لمتابعة العمل. وإذ كان المسيو دي ماركي مشككاً في الموضوع وغير مؤمن بدجل هذا الفنان الماهر، فقد قرر أن يراقب العملية بدقة ليكتشف الادعاء الفارغ، ويزن بيديه هو نفسه النحاس الأصفر، الذي جاء به هو أيضاً ليقلب إلى ذهب، ويضعه في البودقة. وقد أُجريت العملية في مختبر «السكة خانة»[2] واستعملت أجهزته فيها. وفي

---

(١) يبدو أن هذا الرجل ظل مقيماً مع أسرته التي لا يزال نسلها موجوداً فيها.

(٢) بدأ الباشوات المحليون بسك النقود - بكميات محدودة - في «القلعة» منذ أن استعاد السلطان مراد بغداد من الصفويين سنة ١٦٣٨م، ثم أخذت تسك أو تضرب في خان من الخانات يقع في سوق (السكة خانة) الكائن تجاه الباب القديمة لخان الأورتمة أو خان مرجان (المتخذ متحفاً من المتاحف في الوقت الحاضر). ومما جاء في كتاب الرحالة فيلكس جونز (١٨٤٦م) أن (عقد السكة خانة) من العقود =

أثناء العملية طلب الرجل شيئاً قليلاً جداً من الزرنيخ الأبيض والأصفر، ولأجل أن يحول المسيو ماركي دون استخدام أية حيلة بعث يجلب هذا المركب من مخزن كان بوسعه أن يعتمد عليه في كونه يبيع أشياء أصلية غير مغشوشة. وقد وضع هو بنفسه حتى الزرنيخ في البودقة، ولم يتقرب الكيميائي الممتحن منه مطلقاً سوى لإضافة كمية قليلة جداً من مسحوق معين أخرجه بملعقة صغيرة من احدى العلب. وسكب المسيو دي ماركي بنفسه المعدن المتميع حينما أصبح جاهزاً من البودقة وحفظه عنده. فوجد عندما فحصه أن قسماً منه قد استحال إلى ذهب بالفعل، وحينما وزن الكتلة كلها وجدها أثقل قليلاً من النحاس الذي كان قد وضعه في البودقة. فاستفسر من الكيميائي العربي كيف يمكنه أن يعلل هذا الفرق في الوزن، فذكّره هذا في الحال بالزرنيخ المضاف الذي يؤلف بمجموعه نفس المقدار إذا ما أضيف إليه النحاس. وقد أجرى المسيو دي ماركي بعد ذلك التجربة نفسها فوجد النتيجة على مثل ما قال عنها رجل الكيمياء الماهر.

ثم عمد المسيو دي ماركي بعد ذلك إلى مفاعلة الكتلة كلها مع ماء الفضة (حامض النتريك) فأذاب ما تبقى من النحاس الأصفر وترك الذهب وكأن لم يمسسه شيء، وحينما وزن هذا تبين أنه يقدر بثلث الكتلة كلها. وعندما طُلب إليه أن يبين لمَ لم ينقلب النحاس كله إلى ذهب أجاب إن العملية كلها عبارة عن عملية تجريبية وهي لا بد أن تكون غير تامة من جميع النواحي، أي أنها كانت على ما أعتقد ثاني تجربة أجراها مع هذه المواد. وقد فُحص الذهب وأُخضع لتأثير حجر الحك (محك الذهب) في السوق فوجد أنه على أحسن ما يكون، وأنه ذهبٌ يمكن تسويقه.

= التابعة لمحلة الصفافير. وقد ظلت الحكومة مخولة بذلك حتى سنة (١٢٦٢هـ ١٨٤٥م حين أسست الدولة العثمانية في استانبول (سكة خانة) حديثة جُلبت آلاتها من إنكلترة فصار في مقدروها سك النقود لجميع الولايات التابعة لها. ومن عرف في بغداد من المشرفين على سك النقود عدا المسيو دي ماركي أحمد أغا الجيبه جي، الذي كان يشغل منصب (سكة أميني).

ولم يكن المسيو ماركي سخيفاً بحيث يمكن أن يتواطأ في عملية تزييف يمكن أن تصدر من هذا الرجل العربي، ولذلك أجد نفسي ملزماً بتصديق قصته ومعتقداً بها ضمنياً. وقد كان المسيو دي ماركي حذراً في إعطاء رأي ثابت في الموضوع، وإنما أعلن فقط عن عزمه على مراقبة حركات الرجل وخاصة خلال قيامه بإجراء تجربة أكبر من التجربة السابقة في خلال الأيام القليلة التالية. فأبديت رغبة قوية في الحضور أثناء القيام بإجرائها، غير أن المحاولة صرف النظر عنها، لأنها لم يكن من الممكن إجراؤها من دون المجازفة باستثارة حسد الباشا في أمر يكون شديد الحساسية فيه على الأخص. وقد علمت بعد ذلك أن المحاولة قد تمت فكان الإخفاق حليفها، وطلب الرجل السماح له بالذهاب إلى جبال كردستان على ما أعتقد ليجمع منها بعض ما كان يحتاجه من المواد. لكن الباشا رفض أن يسمح له بمغادرة المدينة خوفاً من عدم عودته بطبيعة الحال. فما أغرب هذا الخليط المتكون من الإيمان بالشيء وعدم الثقة به في الوقت نفسه!! فالباشا يؤمل ويعتقد اعتقاداً جازماً بنجاح محاولات هذا الرجل، ومع ذلك فهو على تغاضيه عن نفس الأشياء التي يجب أن تفتح له عينيه وتقضي على آماله يتمسك بها برغم ما تدل عليه قدرته في التمييز والحكم على الأشياء. وقد ذهبنا ذات يوم لزيارة الكيميائي المذكور في معمله، فكان رجلاً اعتيادي المظهر ميالاً إلى البدانة، من دون أن تبدو عليه أمارات العبقرية والجرأة في الحديث. وكان عند دخولنا قد أخرج لتوه من الفرن شيئاً مسخناً إلى حد البياض، وهو جرعة لأمير المناطق الجنوبية ذات رائحة كريهة. وقد كان الرجل وقتذاك في حالة أشبه بحالة الاعتقال المبجل، وإني أرى أنه إذا لم يعمل في الحال على اعادة شيء من مال الباشا بشكل سبائك ذهب فما عليه إلا أن ينصرف إلى البحث عن اكتشاف يجعله منيعاً ضد الشنق أو الإعدام، لأن تطاول صبر الباشا وانتظاره سيؤديان به إلى الموت إذا امتد إلى أكثر مما امتد إليه حتى الآن.

وقد أخبرنا دي ماركي بأن عدة أشخاص من مثل هذا الرجل قد أقنعتهم سلامة نية الباشا الممزوجة بالطمع إلى محاولة هذه العملية. ومن هؤلاء أناس وقعوا في الشرك الذي كانوا قد نصبوه لفخامته، بينما نجح آخرون في غشه

وابتزاز مبالغ غير يسيرة منه. فرثى لسلامة النية الموجودة عنده، بينما كان يستنكر الضعف المؤدي إليها. وكان من الواضح أنه كان يعتقد بأن المغامر الذي كنت أسهب في التحدث عنه لا بد أن يظهر دَجَلُه في النهاية، ويكتشف احتياله، كذلك.

أما الدراويش والفقراء والقلندرية والمتسولون والمتشردون من جميع الأنواع فليسوا قلة في بغداد، إنها في الحقيقة موطنهم الملائم. ومع أنهم لا يدعون كلهم بقدرتهم على صنع الذهب فإنهم يجدون الوسائل المناسبة للتمتع بعيش مريح بكفاية من تصدق المسلمين عليهم واعتقادهم بالخرافة هنا. فهناك عدا الإخوان المتولين عدة تكيات لهؤلاء الناس هنا، كما في استانبول، وهي تنعم بمقدار غير يسير من الخيرات والهبات. ولا يقوم أعضاء هذه الربط بالاستجداء بصخب وعلانية، لكنهم لا يردون هبات الميالين إلى التصدق من الناس وهداياتهم. ويحصلون على المال بوسائل مختلفة، وخاصة وسيلة القيام بمعجزات مزعومة. فلا يعطون الرقى والتعاويذ ضد المرض والجروح والشرور من جميع الأنواع فقط، وإنما يوجد أيضاً صنف منهم يزعمون أنهم لا يؤثر فيهم الحديد ولا يمكن حرقهم بالنار. ويجتمع هؤلاء في أيام الجمع حول قبر من قبور الأولياء الذين ينتمون إلى صنفهم ويعرضون معجزاتهم على الناس المندهشين الذين يأتون للتفرج على حلقاتهم القدسية. لكنني قبل أن أروي لكم قصة زيارة قمت بها لهؤلاء المتعصبين أراني ميالاً إلى أن أسجل لغرض تثقيفكم بعض التفصيلات المختصة بدراويش بغداد، التي اقتبستها من أوراق أحد الأصدقاء حول الموضوع.

فهناك على ما يبدو في بغداد ثلاث طبقات كبيرة من الدراويش:

أولاً دراويش التكايا الموقوف لهم، وثانياً المتسولون المتفرقون الذين يمكن أن نسميهم بالمتوطنين، وثالثاً القلندرية أو الأولياء المتجوّلون.

ويعيش دراويش التكايا من واردات خاصة يحترمها حتى أسوأ الحكام. والحقيقة أن بعضهم رجال منصرفون إلى الدراسة والتأمل، وبعضهم الآخر متعصب متحمس، والعدد الأكبر منهم ينهمك في الشهوات ويدمن على

المسكرات وهؤلاء مجانين غريبو الأطوار. وهم يلبسون في رأسهم قبعة مخروطية الشكل تصنع من اللباد أو القطن المنسوج وتزين حاشيتها أحياناً بالمرجان أو شغل الابرة المشغول بخيوط ملونة، كما يلبسون سترة غامقة اللون ويحتذون نعلاً خفيفاً. ويحملون أحياناً صولجاناً من الحديد أو بلطة خاصة، وإناء أسود مجوفاً يصنع من ثمر بعض النخيل ويعلقونه بسير من الجلد في أيديهم. وتُعلَم أجسامهم بعلامات خاصة تدل على طبقة الواحد منهم ومرتبته.

وعلى دراويش التكايا المختلفة أن يجتمعوا مساء كل جمعة بحلقة كبيرة وبين يديهم شيخهم المريد، في مكان معرض للمتعبدين العديدين والمتفرجين المستطلعين من المدينة. فتوضع في الوسط مناقل من الفحم المشغول مع السيوف والخناجر وحربات الحديد الطويلة الحادة المثبتة في قبضات خشبية سميكة مزودة بعدد كبير من حلق الحديد المتحرك الذي يحدث جلجلة خاصة عند التحريك. ثم ينبري أخ من إخوان الحلقة إلى ترنيم بعض الأدوار بنغمة محزنة في ذكر الله وتمجيده، وتعابير إلهية بعيدة الفهم، أو إلقاء مرثاة عن وفاة شهيد من الشهداء ومعاناته، تصحبه في ذلك وتسيطر على نغماته نقرات طبلة يقوم بالنقر عليها شخص آخر منها. وبعد أن يخيم السكون والخشوع على كل شيء مدة من الزمن ينهض في الأخير أخ أو أكثر من الإخوان ببطء، وإذ يأخذ بالاهتزاز القليل طرداً وعكساً يشرع بترديد الكلمات «حق، حق، هو، هو، هو الحق» ويتأمل بكلمات الذات الإلهية في الوقت نفسه. وفي هذه الأثناء تزداد حركاته سرعة واستمراراً فتنقلب إلى دوران وتدويم بالتدريج وتصبح شفتاه بفعل حركاته وسرعة ترديده للكلمات مغمورتين بالزبد، وعيناه مسدودتين جاحظتين، وتشكل خصل شعره الطويلة شيئاً أشبه بالهالة من حول رأسه، ويزرق من الإجهاد، فيسقط في النهاية منهكاً لا حراك له وهو يسبح في عرقه.

وإذ يستفز هذا المنظر إخوانه الآخرين يحذون حذوه في هذا العشق الإلهي حتى يهجم المشاهدون الدنيويون، وقد سيطر عليهم الهياج لحد الجنون، إلى استنشاق النفس والتمتع ببركات شيخ الحلقة. ثم يأخذون

السيوف والخناجر والحربات الباردة أو المسخنة فوق النار وبعربدة وحركات تشبه عربدة السكارى وحركاتهم يضربون أنفسهم بالأسلحة، أو يضعون الحدائد المشتعلة فوق وجوههم، وهم يقدمون التضرعات والابتهالات لولي من الأولياء أو شهيد من الشهداء، أو يصرخون بكلمة هو! وأخيراً يسقطون على الأرض ومنهم من هو جريح مضرج بالدماء، أو سالم من الأذى لكنه يتمرغ على الأرض كالمأخوذ، أو هامد الجثة لا حراك فيه. والمعروف أن الذي يجرح في معركة المكر والخداع هذه مع الحماسة والتورع يكون قد أدى حساباً عن ذنوب قديمة لم يكفر عنها من قبل، بينما يخرج الظاهر منها سالماً من دون أذى تحميه بركات الشيخ وأنفاسه. وقد تنشأ حوادث خطيرة عن مثل هذه الاستعراضات المؤلمة، التي تعاد برغبة أي سيد مغرض من السادة في أي وقت يختاره لتجربة أتباعه والوقوف على مقدار إخلاصهم وورعهم، أو لنشر نفوذه وسلطته الروحية.

ويندر الاستجداء بين هذه الطبقة من الدراويش، ولكنهم جميعاً حينما يتنزلون لالتماس الصدقة والإحسان يرددون كلمة **«حق» أو «هو»** بنغمة عميقة وصوت جهوري طنان، وقليل من الناس من يرفض مثل هذا الطلب المتصف بالقدسية لأن المفروض أن مثل هذا الرفض لا بد أن تعقبه إصابة أحد أفراد الأسرة بمصيبة أو نكبة. وهم وحدهم يستطيعون الدخول إلى أي ديوان أو بيت من دون أن يحاذروا من شيء وبصرف النظر عن أي عائق، ولهذا السبب يكون هؤلاء قادرين على أخذ ما يريدون وعلى استحصال المعلومات التي تبدو من قبيل المعجزة في بعض الأحيان. وقد شذ بعض المنتمين لهذه الطبقة شذوذاً كليًّا بدافع من خيالهم البعيد، وانتحالهم المتكرر للقيام بالأعمال الخارقة، بحيث صاروا ينتحلون الألوهية نفسها ويرددون على الدوام «أنا الحق». لكن هذه القحة، على استعصاء أمرها، كانت السلطات الزمنية في الإسلام تعاقب عليها بالموت على الدوام. والملاحظ أن هذه النقاط تشمل أنواعاً عدة من دراويش التكايا - أي الدراويش الراقصون والدوامون الذين يطلق عليهم أحياناً **«الدراويش المولولون»** في استانبول حيث يوجد منهم عدد غير يسير كذلك،

والدراويش الذين يدعون بعدم تأثير النار فيهم ممن ألمعت إليهم آنفاً.

أما الصنف الثاني من الدراويش الذين أطلق عليهم اسم المتوطنين - أي المنتشرين بين الناس بكثرة فهم موجودون في معظم المدن الشرقية. وهؤلاء يظهرون بمختلف المظاهر والألبسة التي تناسب زيهم، وأحوالهم، وطلاقتهم في الكلام، وحركاتهم التي تتطلبها الأغراض المختلفة التي يحصلون على الصدقة والإحسان بواسطتها. ولذلك يختلف مظهرهم، والهيئة التي يظهرون بها، اختلافاً كبيراً على قدر الإمكان. فقد يكون أحدهم مثلاً رجلاً أنيقاً نحيل الجسم، ذا بشرة سمراء داكنة، ولحية سوداء، وشاربين مشذبين بترتيب ولطف، يلبس في رأسه عمة قطنية بيضاء، وسترة من الوبر البني اللون، حافي القدمين، يتوكأ على عكاز في يده، وله عينان لا تريان النور لكنهما غائرتان في وجه لا يزال معبراً، يتقدّم بطلعة منتصبة ومشية حذرة، وبصوت عذب يرتل قائلاً «أنتم أيها المدينون لله! أعطوني من نعمته يفك لكم ديونكم! أنتم أيها المثقلون بالغم والكدر أدخلوا السرور على عبده يخفف الله من أحزانكم». فيخلط مستمعوه صدقاتهم بالهزء والسخرية، ويتسلمها الدرويش بصبر وتحمل ويعود بها إلى زاويته الخاصة في المسجد التي تعد مكانه ومأواه الذي يجري فيه تأملاته ويؤدي صلواته، ويستعيد استعمال عينيه حتى تستدعي الضرورة من جديد أن يستدر عطف المسلمين عليه.

وقد يكون الثاني رجلاً بديناً قصير القامة مرتب الهندام، له لحية كثة قصيرة قد تطرق الشيب إليها، ووجه ممتلىء، وعينان صغيرتان رماديتان زائغتان يحجبهما حاجبان كثان، وفم بشفيتن ضخمتين، وأنياب كبيرة عارية تصلح لأكل الأشياء جميعها. ويرتدي ملابس قطنية بيضاء تغطيها عباءة عربية من الصوف الأبيض، فيقف على دار يبدو عليها أثر النعمة والثراء فينفخ من رئتيه العميقتين أقوالاً في مدح النبي تختلط بوصايا تأمر بالبر والإحسان والتصدّق على العاري والجائع والمحتاج. فلا يخطىء المرمى، إذ يخف إلى الباب اثنان من العبيد السود، ذكر وأنثى، لغرضين مختلفين - أولهما لطرد المتطفل وإبعاده عن الباب وثانيهما لتقديم المساعدة اللازمة إليه، فيختلط

صخب العبدين المتنازعين بولولة المتسوّل، لكن الأنثى سرعان ما تتغلب فتنهال على الشحاذ القوي صدقات أهل البيت.

وقد يكون الثالث شخصاً نحيلاً غامضاً، ذا أطراف مرتخية قليلة العضلات - أي عبارة عن هيكل كامل يدل على مقدار تقرب الأحياء من الموتى. وبهذه الدرجة من الهزال ربما يكون عديم الأسنان والشعر، كليل العينين، يكتسي مجموعة من الأسمال البالية، ولا يحمل عكازاً تتوكأ عليه أطرافه المرتجفة فيسحب هيكله نصف الحي من باب إلى أخرى. وحينما يتمدد على الأرض يعرض مناظر من جسمه تستدر الرحمة والعطف عليه. وبعد أن يرق له الناس فيتصدقون عليه يُحمل في زنبيل ويبعث إلى مخبئه ليعود في اليوم الثاني إلى وضعه السابق، فيستدر عطف الناس من جديد.

ويتألف الصنف الثالث، أي صنف القلندرية، بوجه عام من خيار الدراويش وأنشطهم، وأصغرهم سناً. وهؤلاء هم المشتغلون بالكيمياء القديمة والمنجمون والعرافون والمنشقون في عالم الصعاليك. ويكون توفيق هؤلاء وجدهم في تبدل مستمر، لكن حضور ذهنهم يكون مساوياً على الدوام للحالات المفاجئة التي يجدون أنفسهم قد تورطت فيها. وهم بوجه عام صوفيون في ديانتهم، أصحاب مرونة في سلوكهم وتصرفهم، سريعو الإدراك، حاضرو البديهة، شديدو العزم، أقوياء البنية. وقد تعودوا أن يلقوا على أكتافهم بجلود الأسود أو الفهود أو الوعول غير المدبوغة. ويسمحون لخصل شعرهم بأن تنمو حسب الإرادة، أو يضفرونها بأشكال مختلفة غريبة. وقلما يوجدون وهم من دون سلاح، وإذ يكونون معتمدين دائماً على استعداد المسلمين المتعصبين للاعتقاد بالأشياء الخارقة، فهم دوماً مزودون تزويداً حسناً بالوسائل التي يستخدمونها في صنع بعض الظاهرات الكيميائية التي تلفت النظر، وبمعاجين العشق وأشربة المحبة والرقى والتعاويذ ومختلف وسائل فتح البخت وعلم الغيب لتساعد انتحالهم للمهارة في شؤون الكهانة والعرافة.

ويقدم لنا تأريخ السيد مأمون المصطفى، وهو رجل شاب ولد في واد من أودية آشور، نموذجا حسناً لروحية هذه الطبقة من الدراويش. فهو حينما

كان يمر في دور الدراسة والتعلم ليتبوأ مكاناً مناسباً في عالم الملالي استولت عليه الرغبة في السفر والتطويح في أرض الله الواسعة، فترك بيته وأهله برغم توسلاتهم في العدول عن ذلك. وقد كان شاباً طويل القامة قوي البنية جميل المحيا، ذا بشرة بيضاء وعينين سوداوين، فشرع في رحلاته مؤملاً نفسه بالآمال المعسولة والمستقبل المملوء بالمسرات والعجائب. وبعد تجوالات طويلة أجراها بين المغاربة، سحرة العالم الإسلامي المعروفين، وبينما كان في طريقه إلى بلاد الجوغي والبراهميين في الهند، دخل بغداد فنزل في المستنصرية، وهناك حضر المحاضرات الدينية التي كانت تلقى بوجه خاص على طلاب المذاهب المختلفة، على أن عقله ظل غير مكتف وذهنه غير مقتنع. وقد شعر في قرارة نفسه بأنه متفوق على من كان يحيط به من الناس، وأخيراً تراجع وهو قلق لا هدف له إلا الاعتكاف في مسجد مجاور كان يقضي فيه أياماً عديدة متوالية من دون أن يتذوق طعم الأكل أو يتناول شيئاً منه.

فحاول إمام المسجد، وهو متأثر بهذا التدين الفريد، أن يحثه على الخروج والسعي وراء القوت الذي يقوم به أوده. لكن نتيجة المقابلة أدت به إلى الاعتقاد بأنه أمام ولي من أولياء الله، وأعلن نفسه من أتباع هذا الناسك المتعبد الذي عمل على تزويده بالقوت والطعام، واجتذاب الناس إليه.

وقد دبر مأمون أمر الحفاظ على خداع الناس بطبيعة وجوده المحاط بالمعجزات، بتناول شيء قليل جداً من الذخائر الوفيرة التي صارت تتيسر له، فكانت شهرته تزداد يوماً بعد يوم. وأخذ النساء العقيمات يتوسلن ببركاته وتعاويذه، وصار العميان يقصدونه ليرد لهم بصرهم، والعُرج ليعيد إليهم قابلية استعمالهم أطرافهم. كما أخذ الكيميائي الفاشل يستجدي عونه في الحصول على أكسير فعال مفيد، وراحت النساء المهجورات يقبلن أقدامه ليزودهن بأشربة الحب الجذابة، وصار الراكضون وراء الخوارق العجيبة ينتظرون منه المعجزات التي تعزى إلى السحر عادة، كالركوب في الهواء، والقدرة على كشف الأشياء غير المرئية، وتنفس النار، وقلب الإنسان إلى طير أو حيوان من ذوات الأربع، والتراب إلى رمل من الذهب، والحصى إلى نقود. لكن أغرب

جزء من عملية الخداع كلها كان الاعتقاد الذي يساور كل واحد من أصحاب المطالب هذه بأن ما كان يريد هو نفسه قد حصل بالفعل، فضاعت شكوك القلة المرتابة في لجج الكثرة الكاثرة من المصدقين.

وبينما كانت الأمور تسير على هذه الحالة جاء أحد التجار يطلب مساعدة مأمون في الكشف عن سرقة أموال تعود له ومعرفة اللص الفاعل. فكان شيءٌ من الخشية المتواضعة التي أبداها مأمون كافياً لإقناع التاجر بقدرة الرجل القديس على ذلك، وبالتعهد بتقديم هدايا كبيرة لمساعدته في توسلاته الأصلية. لكن القديس ظل حيياً متمنعاً، فازدادت معروضات التاجر حتى انتهت بتسليم الدار والمؤسسة والطفل إلى الرجل الذي يملك مثل هذه القدسية والحكمة الأصيلة. وبعد أن أقام مأمون في مسكن التاجر واستحكم فيه، شرع بإجراء تحقيقات دقيقة في ظروف الأشخاص الذين يمكن أن تكون لهم علاقة بالسرقة، وأشار على التاجر بأن يجمع في يوم معين جميع خدمه ليختبر فيهم تأثير بعض الرقى والتعزيمات التي خرج بعد ذلك لاستحضارها.

وبعد أن عزل نفسه عن الأسرة بأجمعها خلال الفترة التي أعقبت ذلك ظهر في الوقت المعين أمام الخدم الذين قرر اجراء تعزيماته عليهم، وهو يرتدي ملابس من الحرير الأسود وينثر خصل شعره الفاحم الأشعث بحيث ينحجب وجهه وراءها، ويحمل في إحدى يديه مبخرة ممتلئة بالنار وفي الأخرى كيساً صغيراً أسود يحتوي على التمائم والعقاقير. ثم أخذ شيئاً قليلاً من العقاقير ورماه بصمت وهدوء فوق النار في المبخرة التي كان يتصاعد منها دخان كثيف ورائحة نفاذة للغاية، وبتأثير هذه الرائحة القوية والتهيج الذي كان يوحيه المنظر العام في نفس الحضّار، الذين كانوا جالسين في ذلك الوقت، نهضوا كلهم مرة واحدة وهم يرددون «الله، الله». وقد انحنى إلى الأمام حتى التاجر المسروق، الذي تصور المصير الرهيب الذي كان من المنتظر ان يصيب اللص المجهول، وكأنه يريد أن يوقف إن أمكن سير التعزيمة وتقدمها. ولكن الرهبة أخرسته وتمادى الساحر في عمله.

ثم أخذ من الكيس عدة حبيبات داكنة اللون وصار يعرضها للرائحة التي

كانت تتصاعد من المبخرة، **وقد قرأ بلهجة غائرة الابتهال والدعاء التالي**: «إلهي يا رب العالمين أجمع، يا مدبر الطبيعة والأكوان الذي يخترق عبيره المادة كلها امنحني الآن شيئاً من طاقتك وقدرتك». وبهذه الكلمات تقدم نحو الأشخاص المشتبه بهم الذين أصبحوا في هذه المرحلة فريسة لعاطفة جامحة. وقد كانت الاعراض البادية على كل منهم تختلف اختلافاً بيناً، لكنها كانت تلفت النظر. فقد ظل أحدهم واقفاً بانتصاب تام، لكن ذراعيه المتيبستين الملتصقتين بتشنج إلى جنبيه، وفمه المغلق المزموم بشدة، وعينيه الجامدتين، وجلده الناشف، والدائرة الزرقاء المحيطة بشفتيه المضغوطتين اللتين لا لون لهما، كانت كلها تدل على نزعه العقلي المرير. وكان الآخر يتلوى كالحية، وتتحرك كل عضلة فيه بتشنج غير يسير، بينما كانت تتساقط قطرات العرق من جسمه. وكان كل طرف ونهاية في جسم الثالث يتحرك حركة غير مسيطر عليها، فكانت شفتاه تتحركان بحركة لا إرادية وعضلات جلدة رأسه تتلوى كأنها كانت تسحب بعنف. أما الرابع فقد خر ساقطاً على الأرض والزبد يملأ فمه، وراح يتمرغ بحركات مخيفة، ويبذل جهوداً غير مثمرة على ما كان يبدو للتكلم بوضوح.

وقد كان من شأن النزع الذي أُصيب به الفاعلون، والشعور المسيطر على المشاهدين الآخرين، أن ينذر مأموناً بأن ينهي المشهد ويختمه. ولذلك أخذ التاجر جانباً وقال له: «الق حجاباً محسناً على الجريمة التي ثبت وقوعها بمثل هذا الوضوح وعوقب مقترفوها بهذه الشدة. ودع كل رجل يرمي في منتصف الليل ملء حجر واحد من التراب في زاوية باحة الدار تحت النجم القطبي، وعند طلوع الشمس ابحث هناك عن المال المسروق منك».

ومن المحتمل أن يكون ذلك البحث عن المال قد اقترن بالنجاح، لأن شهرة الولي القديس، والاعتقاد بقدرة تعزيماته وتعاويذه، قد ازدادت ازدياداً عظيما بحيث إن الرجال المرموقين في حكومة الولاية كانوا في عداد أتباعه المخلصين. وصارت أسرار السمياء، والتعاويذ ضد الجروح أو التعرض للكوارث والنكبات، أو خسارة العطف الملكي أو وظيفة من الوظائف، تطلب منه بشوق وحماسة مع الثقة التامة بتأثيرها وشدة مفعولها، وكانت تقدم له

مكافآت سخية من أناس آخرين للاشتراك في مثل هذا النوع من القدرة والسيطرة. ولكن ذلك لم يكن من شأن هذا الولي المكار، فقد كان يصرح أن قدرته هذه ليست من النوع الذي يمكن البوح بأسرارها ولا يمكن أن ينالها كل أحد إلا الذين تشملهم العناية الإلهية بعطفها وتوفيقها. على أن مثل هذا الاعتذار والتملص لم يكن مقنعاً للجميع، ولذلك صار بعض الناس بدافع من حسدهم وخيبة أملهم يراقبون أعماله عن كثب ويتسقطون حركاته وسكناته. ومن سوء حظه أن يجعله نجاحه المطرد على جانب أكبر من الجرأة والتجاسر، فأدى به ذلك إلى أن يمارس خدعه وأحابيله بأقل ما يمكن من الحذر. وسرعان ما ازداد الشك وكثرت الريبة، وانكشفت ظروف كانت نتيجتها شؤماً على نفسه وشخصيته. وأدى به تعطشه إلى الربح والمحصول إلى أن يقترف أعمالاً تنطوي على النصب والاحتيال لابتزاز الأموال بمقياس واسع، يساعده في ذلك المجال المتسع الذي هيأته له الثقة المتناهية التي كان يضعها فيه مريدوه والمخدوعون به. لكن سحره قد بطل وقل تأثيره، وانكشفت أعماله في النهاية، فأعقب ذلك بسرعة فائقة الخزي والعار والعقوبة والدمار.

وهنا أكتفي بهذا المقدار مما كتبه صديقي في مذكراته وأعود إلى ملاحظاتي. فقد أشرت في السابق إلى الزيارة التي قمت بها مع بعض الأصدقاء في المقيمية إلى مرقد يغشاه الدراويش الذين يدعون بالمناعة الخاصة ضد الأذى من أي نوع كان.

فبعد أن اجتمع عدد من الدراويش، وعدد لا بأس به من الحضار والمشاهدين جلس الدراويش بشكل دائري وظلوا هادئين ردحاً من الزمن كأنهم يغطون في تأمل عميق. وإذ ذاك قام أحدهم فتعرّى من ملابسه إلى حد المحزم، ثم ذهب إلى ما يقرب من القبر حيث كانت تحفظ السيوف والخناجر والحراب، وأخذ خنجرين منها فراح يعرض نفسه ذهاباً وإياباً في داخل الفسحة الصغيرة المحاطة بإخوانه وجمهور المتفرجين. وقد كانت حركاته بادىء ذي بدء حركات بطيئة تكاد تدل على أنه كان منغمساً في التأمل، لكنه أخذ يسرع الخطى والحركات بعد قليل من الوقت ويلوّح بأسلحته حتى

استحالت بالتدريج إلى قفزات ونطات، وظل الخنجران يلوح بهما بسرعة فائقة تكاد تضلل النظر. على أن المتفرج كان بوسعه حينما ينظر إليهما أن يلاحظ بأنهما كانا في كل حركة من الحركات يرفعان وينزلان في جسمه هو كما لو كان يقصد بها أن تجرح رأسه وكتفيه وبطنه. لكن الخنجرين كانا معقوفين بحيث إن رأسيهما لم يكونا يضربان الجسم مباشرة، وكان هو يحرك الخنجرين بخفة ومهارة بحيث يضرب جوانبه بهما من دون أن ينزلهما على المكان الذي يوجهان إليه مباشرة. يضاف إلى ذلك أن الخنجرين لم يفحصهما أحد، وهما لا بد أن يكونا غير حادين على الوجه المطلوب اعتيادياً. على أن الجسم مع جميع هذه الاحتياطات لا بد أن يصاب ببعض الجروح عرضاً أو بالتقصد، وحينما أمعنت النظر وجدت أحد هؤلاء الدراويش ينزف دماً من ظاهر بطنه.

ثم أخذ سيفاً، أو سيفين بعد ذلك فأعاد نفس الحركات الجنونية وهو يتصنع ضرب نفسه بهما في مختلف الأماكن من جسمه. وعمد علاوة على ذلك إلى وضع حد السيف على بطنه ثم سمح لدرويش آخر أن يتقدم من خلفه فيمسك السيف من القبضة والرأس بكلتا يديه اللتين كانتا تلتفان حول محزمه، وبعد أن ضغط على السيف وهو بهذه الوضعية وشد عليه بقوة رفعه قليلاً إلى أعلى وأخذ يدور به مرات عديدة بحيث كانت قوته المركزية كلها تضغط ببطنه على مشفر السيف نفسه. ويزعم كذلك أن الدرويش في بعض الأحيان يستلقي على الأرض فيوضع حد السيف على بطنه وهو في تلك الحالة، ثم يأتي أحد إخوانه فيدوس على ظهر السيف بكل قوته، ومع ذلك لا يؤدي كل هذا إلى حصول أي جرح في جسمه. لكنني لم أرَ هذا بنفسي. ولم أرهم كذلك يغرزون حربات الحديد، الساخنة أو الباردة، في عيونهم وسائر المواضع الرقيقة في أجسامهم من دون أن يصابوا بأي نوع من الأذى على ما يظهر، ولذلك لا يسعني أن أقول كيف يجري تدبير هذا العمل. كما أنني لم أرَ مطلقاً معجزات المناعة ضد النار، مثل مسك الحراب حينما تكون ساخنة إلى حد الاحمرار وحكها بوجوههم وأجسامهم. لكنني شاهدت ما يكفي ليحملني على الاعتقاد بأن القضية كلها لم تكن سوى مهزلة سليطة تعد لتؤثر في جمهور من المشاهدين حسن النية سهل الانخداع. وأن العار الذي يصيب من يظهر بمظهر

غير المعتقد لا بد أن يعمل على حماية هؤلاء الغشاشين المتطفلين على القدسية من أخطار الشك بهم والتدقيق الجريء الذي قد يتعرضون له.

وقد زرنا في فرصة أخرى مرقد ولي مشهور من أولياء السنة، يسمى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي شيد تخليداً له هنا ضريح وجامع من أفخم الأضرحة والجوامع الموجودة في هذه الجهات. ويتقاطر الزوار على تربته هذه من الهند وأفغانستان وبخارى وبلاد التركستان. ولم يكن حصولنا على الرخصة اللازمة لذلك يخلو من صعوبة، أو استجواب على الأقل، وخاصة حينما طلبنا مشاهدة داخلية هذا الصرح المقدس الذي يشرف عليه موظف ديني يسمى «النقيب»، ويعتقد بأنه سليل مباشر من سلالة القديس الأصلي نفسه. لأن الوضع هنا كان على جانب أكبر من الأهمية قبل أن يحدث الغرق الكبير ويتبوأ علي باشا منصب الباشوية. فقد كانت هذه المحلة قبل وقوع الحوادث المشار إليها يسكنها جميع السفلة والمتشردين الموجودين في البلد. إذ كان الناس الذين يشعرون بخطر الوقوع حتى في قبضة العدالة المرتخية في بغداد، يحتمون في ظل هذا الولي الكبير. ولذلك كان يمكن العثور هنا على جميع اللصوص والمحتالين، وجميع القتلة و«البلطچية». فكانت «ألزاشية[1]» بغداد هذه، وسكانها المختلطون، يمارس فيها صديقنا النقيب بوجه عام شيئاً لا بأس به من النفوذ والسيطرة، كما كان السكان يكافئونه على حمايته لهم بمقدار بسيط من الطاعة، وبحماية تخوم ممتلكاته ضد الفضوليين والمتطفلين. وكان قليل من الباشوات في الحقيقة من يجرأ على التدخل في ترتيبات عش الزعانف والأوباش هذا وحاميهم الديني، أو يقدم على سوق الضباط أو الجنود ضدهم. وحتى داود باشا نفسه لم يستطع فرض إرادته على المحلة مع أنه برهن في مرات عديدة على كونه رجلاً لا يستهان به فعزل النقيب وضربها بالمدافع أحياناً للقضاء على روحية الشغب المسيطرة فيها. كما لم يجد من المناسب أن يثير روحية التعصب الديني إلى حد بعيد باتخاذ إجراءات ذات طابع متطرف في الشدة. والخلاصة، أنه لم

(١) Alsatia، الظاهر انها منطقة كان يلجأ إليها الأشرار في لندن على ذلك العهد.

يكن هناك من يجرأ على الدخول إلى المحلة إلا أولئك الذين يستطيعون جعل «الأشقياء» المقيمين فيها يرحبون به. أما بالنسبة لنا نحن الذين كنا عبارة عن لفيف من الكفار فقد كان لا بد لنا أن نتقدم ضد قطيع من الثيران الهائجة لو أردنا أن نقوم بزيارتها هذه في ذلك العهد والزمن.

اما المستر ريج[1] فالحقيقة أنه لم يقم بزيارة النقيب فقط بل سمح له أيضاً بأن يدخل المقام ويزوره. لكن طريقه إلى ذلك كانت قد ذللت صعوباته بالهدايا الثمينة التي كان يقدمها إلى ذلك الرجل المرموق، ولقد طُمنا نحن بأنه لم يدخل إليه منذ ذلك الوقت سوى جماعة واحدة من الافرنج. لكن ذلك المشهد قد تبدل اليوم إلى حد كبير - فقد أتى الطاعون على جميع السكان الأوباش في هذه المحلة، وأثر الغرق في كل بيت من بيوتها تقريباً عدا المرقد، وملحقاتها المباشرة، الذي ازدادت شهرته وقدسيته بمناعته هذه التي تُعزى بلا شك إلى عمق الأسس التي يستند عليها ومتنانتها - إذ لم يبق من المحلة سوى جدران متهدمة وبضعة بيوت جديدة شيدت بعد النكبة. ولم يعد أحد من المدافعين الأشقياء الذين كانوا يدافعون عنها، ولذلك تجدها اليوم مفتوحة لكل من يرغب في زيارتها.

وقد كنا الجماعة الثالثة التي أبدت رغبتها في مشاهدة المكان، فطالب النقيب في بادىء الأمر بالهدايا التي أثبت لنا أنه قد تسلمها من المستر ريج. على أنني حينما أخبرته بأننا لم نكن سوى سياح بسيطين لم نكن نعلم بأننا يجب أن ندفع مثل هذه الأجور الباهظة عن الزيارة، برغم رغبتنا في إشباع حب الاستطلاع الذي يساورنا، أجابنا بجواب لطيف، فذهبنا إليه. وقد استقبلنا برقة المتفضل علينا في غرفة صغيرة حقيرة كانت جدرانها مبنية من الطابوق غير

---

(١) Claudius Rich المقيم البريطاني المشهور الذي شغل مقيمية بغداد في ١٨٠٨-١٨٢١م وتجول في شمال العراق خلال مدة وجوده وزار بابل فكتب عن ذلك رحلته المشهورة. وقد انتهت أيامه ببغداد بالنزاع الذي نشب بينه وبين داود باشا في ١٨٢٠-١٨٢١م.

الميض. وإذا كان هذا يُعزى إلى الظهور بمظهر متواضع فإن ملابسه الشخصية لم تكن تؤيد ذلك. لأنه كان يرتدي ألبسة حريرية فاخرة وفرواً ثميناً، وكان يضع فوق رأسه عمامة بديعة من الشال الكشميري - التي تكاد لا تتفق مع المظهر الذي يظهر به الدراويش. غير أن الأولياء والقديسين في هذه الأيام يتمتعون بامتيازات غير يسيرة، ويقال إن هذا الرجل بالذات يتمتع بثراء فاحش. وقد كان حديثه متحفظاً نوعاً ما، فأظهر لنا ما يعبر عن نكران للذات من العواطف التي لم تكن بالتأكيد خارجة من القلب لأنه في قرارة نفسه كان من الخارجين المشهورين على القانون، وخاصة للمشروبات القوية التي كان يضمر إعجاباً شديداً بها. فإنني أعتقد في الحقيقة أن هذه المحلة كانت في أيام عزها تستهلك مقداراً من الخمر والعرق يزيد على ما كان يستهلك منهما في المدينة كلها. وكان النقيب شخصياً رجلاً جسيماً، طويل القامة، أبيض البشرة، له أنف أقنى وعينان زرقاوان كبيرتان، وشكل رقيق الشمائل.

وبعد تقديم الشطب للتدخين وتناول القهوة، التي لا بد أن تقدم في كل زيارة تركية، توجهنا إلى المرقد والجامع اللذين كانا يستحقان تحمل الإزعاج والمشقة من أجلهما. إذ يوجد القبر في الداخل تحت قبة في جناح مثمن الجوانب (أو مربع)، مزين كالمعتاد بالآجر القاشاني، الذي كتبت عليه آيات من القرآن الكريم، ومفروش فرشاً لا بأس به بالسجاد. ويقوم من فوقه سرادق من الحرير الأخضر، كما تحيط به شبابيك عالية من الفضة الصلبة. والغريب في الأمر أن هذه الشبابيك كانت هدية من أحد اليهود لهذا المرقد. وقد كان هذا الشخص[1] صرافاً لأحد الباشوات، وفي أحد الأيام اصطحبه سيده في زيارة تعبدية لهذا المرقد فأخبر هناك بأن من عادة الغرباء أن يقدموا هدية من

---

(١) ربما كان هذا الصراف اليهودي إسحاق الذي كان مقرباً عند داود باشا ومن مشاوريه الخاصين على ما تقول بعض الروايات، حتى أنه استشاره في قضية مقتل صادق أفندي القبوجي المار ذكره في هذه الرحلة. أو قد يكون الخوجة يعقوب الصراف اليهودي الذي كان مقرباً عند سليمان باشا الكبير الذي حكم قبل داود بمدة طويلة، أي في أواخر القرن الثامن عشر، وعلى كل فنحن لا نعلم مقدار الصحة في هذا الخبر.

الهدايا في أثناء الزيارة، وسئل عن الشيء الذي كان مستعداً لتقديمه. فأجاب يقول «ان العادة إذا كانت كذلك فلا بد لي أن أتقيد بها بطبيعة الحال. دعوني أفكر قليلاً، إن هذه الشبابيك مصنوعة من النحاس في الوقت الحاضر، نعم إنني مستعد للصرف على استبدالها بالفضة.. فقوبل سخاء اليهودي بالترحيب الكثير، وربما لم يخسر كثيراً في النهاية على كل حال.

أما الجامع فهو بناية كبيرة جداً تشغل قسماً غير يسير منها شرفات ومصليات جانبية، على أنه يوجد في وسطه تحت القبة مباشرة فسحة يشغلها جناح واسع عال جداً. وهذه الغرفة، المربعة التي يتراوح طول الضلع الواحد منها بين السبعين والثمانين قدماً، تضاء إضاءة حسنة بشبابيك موجودة في أعلاه، ومجهزة من أجل الليل بعدد من المصابيح المدلاة من السقف. وقد زين القسم الأسفل من الجدران الجانبية والمكتب، أو مكان القراءة، بالآجر القاشاني وفرش فرشاً بديعاً بالسجاد بحيث يبدو الوضع العام فيه وكأنه غرفة استقبال مريحة وليس محل عبادة عارٍ عن كل شيء كما هي العادة في كثير من الأحيان. والمقول ان هذا الجامع يمكن أن يتسع لثلاثة آلاف شخص في وقت واحد في أثناء الصلاة. ويحاط الجامع بمربع من الأجنحة التي تحتوي على حجر تشبه حجر الخانات، وهذه يمكن أن يسكن فيها الزوار القادمون من مختلف البلاد ويطعمون من واردات المؤسسة التي يقال إنها كثيرة جداً. وقد فتشت بين الهنود الذين كانوا هنا على أناس من جهات الهند التي أعرفها، وخاصة من دلهي، لكنني لم أجد غير رجل واحد فقط كان قد ترك البلاد منذ أيام أوكترلوني.

وقد قادتنا جولة أخرى من جولاتنا في المدينة إلى ارتقاء المنارة القديمة التي ألمع إليها بكنغهام في رحلته، فشاهدنا من قمتها منظراً عاماً لسطوح البيوت في بغداد وبعض الأسواق القريبة منا، التي كانت مكتظة بالناس. غير أنه لما كان مثل هذا المنظر العام في بلدة شرقية لا يمكن أن يكون طريفاً جداً، عدا في الصباح الباكر أحياناً، فإننا لم نبق كثيراً فوق القمة. فذهبنا من هناك إلى دار رجل من رجال الدين الفرنسيين، وهو القسيس العام لجميع الكاثوليك

الموجودين في هذا الجزء من العالم. والحقيقة أن طائفته هنا صغيرة، لا تتجاوز في عددها الألف نسمة في بغداد من جميع الأنواع والأعمار. وليس من المحتمل على ما يظهر أن يحصل تحسن في ظروف وأحوال كنيسة روما في الشرق، حيث إنه يقول إنه ليس هناك من بين الأديرة الخمسة الموجودة في أصفهان سوى دير واحد لم يتهدم، وهذا على ما أعتقد يشغله خادمان فقط. وقد كان في الكنيسة هنا، وهي بناية واهية جدًّا، شيء واحد فقط يستحق المشاهدة وهو صورة كان قد جيء بها قبل مدة طويلة من البصرة، وهي جميلة جداً على ما أرى. فهي تمثل العذراء وطفلاً واقفاً وفي يده بعض الأزهار أو طير من الطيور كما أظن. وقد علمت أن الهولانديين جاءوا بها إلى البصرة قبل مئة سنة تقريباً.

وكان صديقنا القس على درجة كافية من اللطف، لكنه كان كثير الكلام والتحسر على نفسه لأنه بقي مدة طويلة في هذه البلاد المتوحشة، التي لا يعمل فيها رئيساً لكنيسة روما فحسب، وإنما يتولى أيضاً وكالة البابا والحكومة الفرنسية كذلك. لكن هذه الجهات كلها لا تدفع له شيئاً كافياً من المال لأنه يضطر لإعاشة نفسه بوسائل أخرى. ومن أجل هذا تراه يتشدد مع أفراد طائفته، ولا يخرج أحد من الاعتراف دون أن يدفع شيئاً غير يسير من المال لهذا الوكيل الأرضي. وهناك أسرة من الأسر جعل مكانها حرجاً في هذا العالم لكونه يأبى السماح لرئيسها الذي مات مؤخراً بالخروج من سجن المطهر ما لم يدفعوا له مبلغاً محترماً من المال - إنه يقول إن الرجل كان كثير الذنوب، وإن ضميره لا يطاوعه في إطلاق سراح روحه المسكينة من دون تعويض أو ترضية فريدة في بابها.

(٩)

محاصرة عنزة للمدينة - الحالة في العتبات - أسبابها - تجاوزات اليرماز - وفاة شاه إيران - النزاع مع عقيل - تاريخ القبيلة - توطنهم في بغداد - طلب الباشا إليهم مغادرة بغداد - رفضهم لذلك - عصيان القبيلة وتجمعها - قطع الجسر وبداية المعركة - رفضهم لذلك - عصيان القبيلة وتجمعها - قطع الجسر وبداية المعركة - أخبار مختلفة - استخدام زورق المقيمية - عبوره - إنزال الجند - هجوم على الجسر - النهب والهرج - شائعات وأخبار - السلب - عقيل تغادر بغداد - خسائر الجيش - فظاعات الجند.

الأربعاء: ٢٨ تشرين الثاني ١٨٣٤م

إن الدور الذي لعبه الشيخ صفوگ وقبيلته الجربا من قبل تقوم بدورٍ مثله الآن قبيلة عنزة. فقد كانت بغداد منذ أن وصلنا إليها في حالة حصار فعلي. إذ لم يكن بوسع أحد أن يخرج إلى مسافة مهما كانت قريبة من الأسوار من دون أن يتعرض إلى السلب على أغلب الاحتمال، ولا سيما في الجانب الغربي من النهر. وقد كنت أتوق للذهاب إلى عقرقوف[1]، موقع الخرائب الأثرية

---

(١) جاء في الصفحة ٣ من نشرة مديرية الآثار العامة عن عقرقوف أن هذا الموقع عرف «.. باسم عقرقوف منذ أزمان بعيدة. وقد زاره منذ منتصف القرن السادس عشر سياح كثيرون من مختلف الأمم، وقد ظن بعضهم خطأً أن «البرج المدرج» هو برج بابل المذكور في التوراة. ثم عين بوجه صحيح منذ منتصف القرن الماضي بأنه موضع المدينة الكشية (القصبية) المهمة المعروفة باسم «دوركوريكالزو». هذا وقد أيدت التقنيات التي قامت بها مديرية الآثار العامة حديثاً هذا التعيين، وإن زمن تأسيس المدينة يعود إلى عهد الملك كوريكالزو الأول في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد وأنه ظل مأهولاً إلى العصور المتأخرة مثل العهد البابلي المتأخر =

المعروف، المعاصر لخرائب بابل والذي يعتقد الكولونيل تايلور أنه موقع أكد الوارد ذكرها في الكتاب المقدس. لكن أصدقاءنا رجال عنزة قد جعلوه مركزاً لتجمعهم، فلم نجرأ على الخروج إلى هناك. وقد مدّوا رواق سيطرتهم الآن عبر الجزيرة الواقعة ما بين دجلة والفرات، واستولوا على طريق الحلة بحيث لا يمكن لأي أحد أن يذهب في ذلك الاتجاه - والحقيقة ان كل شيء غير آمن هنا، لأنهم ليسوا وحدهم، بل كل وغد من الناس وكل لص في بغداد أو فيما حولها قد خرج للسلب باسمهم أيضاً. فعاد الكثيرون من المساكين وقد سلبت حتى ملابسهم، ولم يعد بوسع أية قافلة ليست معها قوة كبيرة أن تسير في ذلك الاتجاه. ويقال إن الپاشا يقوم بمفاوضة قبيلة عنزة، ويحاول جرياً على خطته السابقة أن يزرع بذور الخلاف بين عدد من أجزاء العشيرة. وقد دعي كالمعتاد عشيرة أخرى لمساعدته كذلك، وهي عشيرة زبيد. ولا شك أن هذا يعود بالوبال عليه وعلى البلاد بوجه عام، ولكن هذه هي سياسته السقيمة. على أن رجال عنزة، أو الذين ينتحلون اسمهم، لا يعبأون إلا قليلاً على ما يبدو بهذه المفاوضات. فقد سُلب عدد من رجال الپاشا نفسه في أماكن قريبة من أبواب المدينة، وكان من بينهم يوسف بك الذي يحمل لقب «باب العرب[1]» أي الموظف الرسمي الذي يتوسط بين الپاشا وبينهم، بعد أن كان من مصاحبي الپاشا نفسه. فأغاظ هذا سموه بحيث صار يقول الآن إنه سوف لا يتعامل معهم مطلقاً. وقبل يومين فقط سُمع كذلك صوت إطلاق النار في الجانب الغربي من النهر، بالقرب من تربة زبيدة، فتبين أن فريقاً سلاباً من عنزة هاجم المنطقة إلى حد الأسوار نفسها فاستولى على جميع ما فيها من إبل وأغنام وما أشبه.

= (١١٠٠-٥٣٨ق م) والعهد الفارسي الإخميني (٥٣٨-٣٣١ ق م). ووجدت آثار سكنى مهمة من العهود العربية الإسلامية. والمعروف من الكتابة الموجودة في باب خان مرجان ان عقرقوف كان من جملة الأوقاف التي أوقفت على جامع مرجان وخان مرجان.

(١) هو الموظف العربي في ديوان الباشا الذي تراجعه القبائل العربية في شؤونها مع الحاكم. وقد شغل هذه الوظيفة البعض من أبناء أسرة الشاوي المعروفة.

ويصعب هذا كله على السياح من مثلي الذين يعد التأخير بالنسبة لهم شيئاً متعباً وخطراً. هو خطر على الأخص بالنسبة للعدد الكبير من الزوار الإيرانيين كذلك، الذين يأتون من بلاد بعيدة لزيارة العتبات المقدسة في كربلاء والنجف الأشرف، فقد عاد أولئك الذين دفعتهم حماستهم منهم إلى التجاسر على سلطة الأعراب وقد سلبوا إلى حد العري، ومن دون أن يروا العتبات بأعينهم. ومن الحقائق التي تدل على ضعف الحكومة التركية التام في هذه الولاية أن جميع العتبات التي لها قدسية خاصة تقريباً قد جعلت ملاذاً لشر الناس في المجتمع وأكثرهم تفاهة، ولا تزال في وضعها هذا حتى الآن. ومن المحتمل أن يكون هذا قد نشأ عن طبيعة الحماية التي تقدمها هذه الأماكن للناس من دون تفريق بينهم، ولأن هذه الحماية يستغلها في الدرجة الأولى أسوأ الخارجين على القانون من الناس بطبيعة الحال. لكنه على كل امتياز لا يسمح «المتولي»، ورجال الدين أو خدام الحضرة، للسلطات الزمنية أن تتعرض له. وهكذا يتجمع أصحاب السوء - وقد يدفعون الكثير من المال من أجل الحصول على الحماية - حتى يكون في مقدورهم الهيمنة عليها كما هي الحال في محلة[1] الشيخ عبد القادر ببغداد نفسها. وقد حصل مثل هذا الوضع كذلك في النجف وكربلاء معاً، ولكن بمقياس أوسع وحالة أسوأ بكثير. إذ ازداد عدد المتمردين المتجمعين هناك بحيث لم يعد من الممكن لحاكم المنطقة ولا لسلطة الپاشا أن تسيطر عليهم. وهؤلاء لا يفعلون ما يريدون فحسب، بل كانوا أيضاً يطلبون من الزوار الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة الإذعان لأوحش الطلبات وأبعدها عن المألوف والمعقول، وفي حالة عدم الانصياع كانوا ينهبون أمتعتهم ويجردونهم حتى من ألبستهم، كما يسلبونهم زوجاتهم وبناتهم في بعض الأحايين. وقد استفحل هذا الشر لدرجة اضطر فيها داود پاشا نفسه إلى تجريد قوة ضد هؤلاء في النجف، فنجح في إخضاعهم للطاعة.

---

(١) باب الشيخ

ولا تزال كربلاء في حالة ثورة[1]. فلم يستطع اليرماز والقتلة والسفهاء الذين يكوّنون عدداً كبيراً فيها، من صد الجيش الذي جرده الپاشا عليهم فقط بل أصبحوا أيضاً يهيمنون هيمنة تامة على البلدة كلها بحيث لم يكن بوسع أحد أن يعصي لهم أمراً أو يتحداهم من دون أن ينال جزاءه. فقد ابتدعوا طريقة سرية للاتصال والتفاهم فيما بينهم لا يحيط بها غير الداخلين في زمرتهم، وبواسطتها يستطيعون أن يجمعوا في أي مكان كان قوة غير يسيرة بأسرع ما يمكن. ولذلك كان الناس المحترمون يخشونهم بحيث لا يجرأون على بذل أي مجهود أو اتخاذ أي إجراء من الإجراءات لمعارضتهم وحتى لحماية أنفسهم منهم. فقد حدث قبل مدة غير طويلة أن غضب هؤلاء على نواب[2] هندي كان

---

(١) جاء في إحدى المخطوطات التاريخية (مجهولة المؤلف) التي ينقل نصها كتاب (تاريخ العراق بين احتلالين ج٧) ذكر مفصل لحالة كربلاء في هذا الدور، وللثورة المشار إليها. فيقول صاحب المخطوطة: «بلدة كربلاء كانت عاصية على وزراء بغداد، فسير نجيب باشا إليها، وحاصرها وكان بها السيد الزعفراني.. ترأس على أوباشها وسفهائها، وأطاعه أراذل البلد وعامتها من أيام داود كانوا عاصين، إلا أنهم يؤدون شيئاً قليلاً عوض خراجها، وكل من يعمل مفسدة من العراق، أو يأكل أموال الناس، يذهب إلى كربلاء ويجار بهؤلاء الأراذل حتى اجتمع عندهم مقدار عشرة آلاف مقاتل من اجلاف الناس وعصمت أيام داود باشا، وزمان علي باشا أيضاً.. في كربلاء حتى أنهم أمسكوا مرة أحد مجتهديهم السيد إبراهيم القزويني ليلاع ولم يطلقوه حتى أدى لهم أربعة آلاف قران من سكة محمد شاه... وكانوا مفسدين ذوي جرأة على أعراض الناس، وأهل البلد يهابونهم، ويخافون على أنفسهم، لأنهم متى أرادوا هجموا على بيت أحدهم ونهبوه. والحاكم هو من أهل البلد طوع أيديهم.. وفي أيام علي باشا حاصرها وخرج إليه سادات البلد، وعلماؤهم، وتكفلوا له بزيادة الإيراد، فارتحل عنهم. وكان لا يبالي بعصيانهم ومرامه الدراهم فقط، وقد أدوا له سبعين ألف قران المثل اثنين عما يؤدونه إلى داود باشا، فرضي وتركهم.»

(٢) لا تزال أسر النوابين التي استوطنت كربلاء وبغداد بعد هجرتها من الهند موجودة في المدينتين حتى الآن.

قد أقام في كربلاء منذ عدة سنوات، فهاجموا بيته ونهبوه ثم أخذوا البيت منه ودمروا ممتلكاته من دون أن يكون بوسع أي أحد منعهم أو التصدي لهم بشيء، فاضطر النواب المسكين إلى الهزيمة والنجاة بنفسه إلى بغداد التي لم يزل يقيم فيها على ما أعلم. وهم يذهبون في فسادهم وخلاعتهم حتى إلى حد أنهم، حينما يعلمن أن أحد الزوار يصطحب معه زوجة جميلة أو أختاً حسناء، يبعثون ليأتون بها إليهم. وحينما يرفض ذلك يعمدون إلى سرقتها منه بحيلة من الحيل أو إلى اغتصابها بالقوة. وكثيراً ما كان يحدث هناك أن تفقد زوجات بعض الناس على هذه الشاكلة لمدة أسبوع أو أكثر، فيعدن إلى أهلهن بعد ذلك بحالة يرثى لها، فقد سمعت أحد الإيرانيين أنا بنفسي يتذمر من معاملة زوجته بهذه الطريقة. وبعد، أليست هذه حالة وتدعو بصراحة إلى الاقتصاص والإصلاح؟ إنها واحدة من ألف حالة من حالات سوء الحكم والفوضوية التي تلفت نظر أولئك الذين يمرون بالبلاد، وتدل على تعاسة سكانها وشقائهم.

أول كانون الثاني

لا يزال الأعراب مرابطين في عقرقوف وعلى الطريق الموصل إلى الحلة بحيث تستحيل السفرات إلى تلك الجهات الآن. غير أنه قد تأكد لدى الناس أنهم أخذوا يتنازعون فيهم بينهم، ولا أدري إذا كان ذلك يعزى إلى تأثيرات سياسة الپاشا فيهم أو إلى قلة ما يتيسر من العنف والسلب. ومع كل هذا فإنهم ما زالوا يسيطرون على الريف من دون معارضة إلى حد أبواب المدينة نفسها.

لقد وردت رسائل من ششتر تدل على أن إيران تعاني أشد حالات الفوضى والاضطراب في الوقت الحاضر، وأن عدة قوافل قد نهبت حتى استحال خروج أحد في الطريق. وتتفق الروايات الواردة من همذان وكرمنشاه مع هذه الأخبار أيضاً، ولم يتأيد غير ذلك سوى وفاة الشاه[1] في أصفهان.

---

(١) المعروف في التاريخ الإيراني أن فتح علي شاه القاجاري توفي سنة ١٨٣٤م في الثامنة والستين من عمره بعد أن ظل متربعاً على دست الحكم في إيران سبعاً وثلاثين سنة. فأعقب ذلك نزاع عائلي على الحكم بين الأبناء. بدأه فرمان فرما حاكم فارس =



من مقاهي الشط في بغداد - ١٨٢٧م

٣ كانون الأول

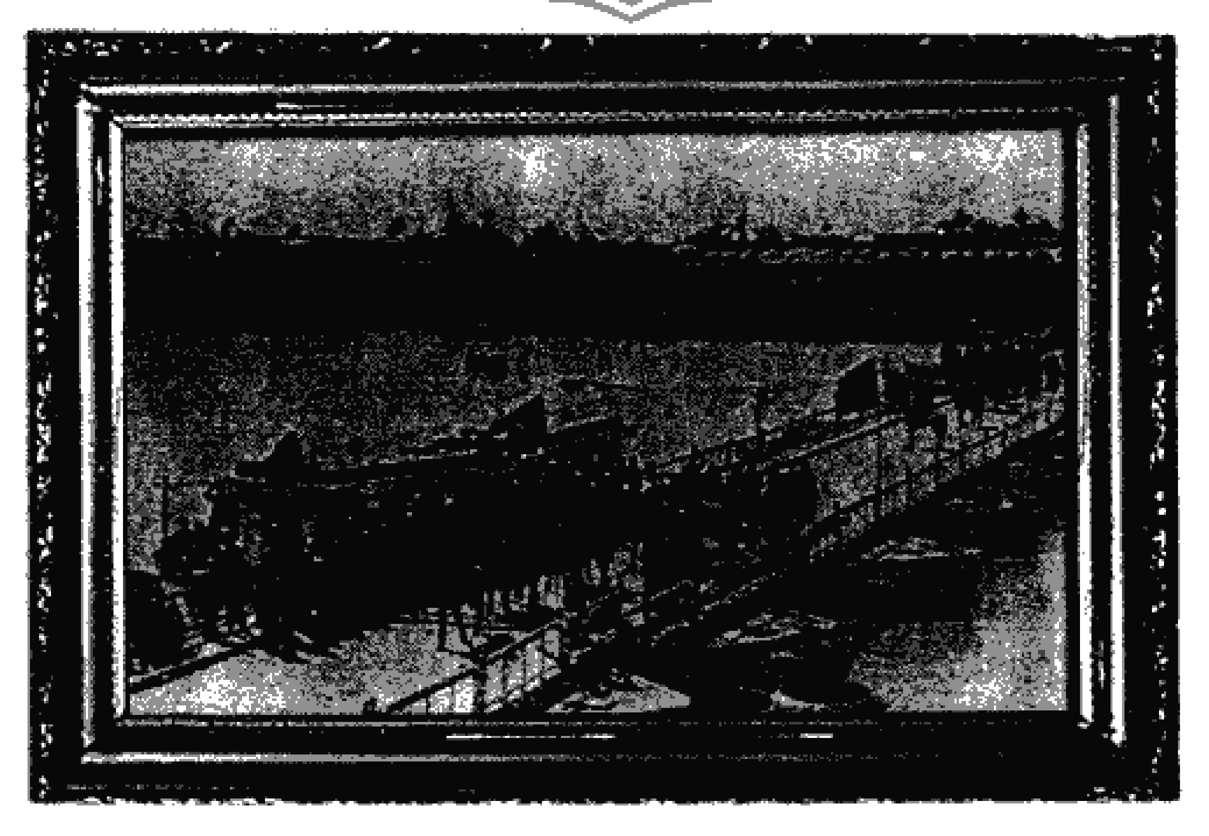
يبدو من أخبار إيران الواردة إلى هنا كلها أنها تؤيد خبر توجه حسين علي ميرزا على طهران وإعلان نفسه ملكاً فيها، وتشير إلى أن أخاه حسن مرزا قد انضم إليه وسل سيفه بعد ذلك فقطع رؤوس عدد من الأمراء الذين كانوا قد رفضوا الاعتراف بأخيه أو كان يشك بأن لهم آراء خاصة به، وأن أمين الدولة قد انضم إليه أيضاً مع بعض النبلاء الأقوياء، واستولى على القصر في طهران مع الخزينة، وأنه لم يسمع شيئاً عن ولي العهد محمد علي مرزا، وأن الحالة

= وظل السلطان حاكم طهران، اللذان أعلنا مطالبتهما بالعرش. غير أن تدخل الإنكليز والروس في الأمر أدى في النهاية إلى أن يسير ولي العهد على رأس قوة غير يسيرة، بقيادة السر هنري لندزي بيثون، فيحتل طهران وينصب ملكاً فيها باسم محمد شاه. وقد كان يصحب الحملة أيضاً الوزير المفوض الروسي في إيران. (عن تاريخ إيران ج٢ للسر بيرسي سايكس).

في كرمنشاه لا تزال هادئة، لكن القبائل قد خرجت عن الطوق وأخذت تنهب يميناً وشمالاً بحيث لم يعد المسافرون يأمنون على أنفسهم. وكان أحد الرسل الذين جاءوا بهذا الخبر قد التقى بالقرب من بغداد بقافلة كانت فيها بنت من بنات الشاه السابق، وهي عائدة من الزيارة في كربلاء. فأمرت بجدع أنفه وقطع أصبع من أصابعه للأخبار السيئة التي كان يحملها، فوصل إلى بغداد بهذه الحالة.

٤ كانون الأول

لقد انقطعت وتيرة السأم والاطراد في هذا اليوم بحدوث حادث لم يكن من المنتظر أن يحدث - وهو حصول قتال بين الأعراب في داخل أسوار بغداد. ولكن قبل أن آتي على وصف المعركة يجب أن أشرح الأسباب التي أدت إلى وقوعها.



جسر بغداد قبل مئة عام

فقد كانت الأحوال بين الپاشا وقبيلة عنزة تزداد سوءاً على سوء في كل ساعة منذ مدة غير يسيرة، وظل إقلاق البلاد والعبث بها يزداد شدة واتساعاً بحيث إن أشخاصاً محترمين قد سلبوا في أبواب المدينة نفسها. وانقسمت العشيرة على نفسها إلى عدة جماعات، حتى صار من الممكن أن تشترك القبائل العربية الأخرى في النزاع أيضاً فتشتعل عند ذلك بلاد ما بين النهرين كلها. وقد حدث في الأخير أن سلب عدد من ضباط الپاشا نفسه بالقرب من المدينة، ودلت التحريات على أن هذا الانتهاك قد أقدمت عليه جماعة من قبيلة عقيل، التي كانت تعيش في القسم الغربي[1] من المدينة، فقرر الپاشا وقد ثارت ثائرته لهذه الإهانة الصادرة منهم أن ينتقم انتقاماً عاجلاً من الفاعلين.

وهؤلاء الأعراب هم جزء من عشيرة كبيرة قوية تقيم في نجد، وبنتيجة اتفاق عقد قبل ستين سنة مع سليمان پاشا احتكروا حراسة القوافل ودلالتها ما بين هذا المكان وحلب ودمشق. ولأجل أن يتسنى لهذه العشيرة أن تزود القوافل بالعدد الكافي من الأدلاء المطلوبين اعتادت أن تبقي على الدوام عدداً معيناً من أفرادها في بغداد برعاية شيخ منهم، لكنهم لم يسمح لهم إلا مؤخراً بالإقامة في داخل الأسوار. على أن نزاعاً قد نشب في هاتين السنتين أو الثلاث، بسبب خصومة قديمة كانت موجودة بينهم وبين جماعة أخرى. وإذ كان العقيل غير مكتفين بطرد خصومهم تصدوا لقافلة غنية كان خصومهم هؤلاء يشرفون على حراستها من حلب إلى ما يقرب من بغداد، وأعلنوا أنهم ما لم تلب مطاليبهم جميعاً فإنهم سينهبون القافلة ويتركون البلاد. ولما كان الپاشا أضعف من أن يستطيع حماية القافلة، التي كان ينتظر وصولها إلى بغداد بصبر نافذ لأنه كان يعلم بأن الرسوم التي سوف تجبى منها فتذهب إلى جيبه تؤلف مبلغاً لا يستهان به، فقد أذعن لطلباتهم جميعاً. وقد كان من بين الأشياء الكثيرة التي تساهل بها معهم السماح لفريق من القبيلة بالإقامة في بغداد بشرط أن يظلوا بالكلية مقيمين في الجانب الغربي من النهر.

---

(١) أي في جانب الكرخ بطبيعة الحال.

وهكذا شرع العقيل يقيمون في الداخل، وأصبحوا منذ ذلك الوقت سادة لا ينازعهم أحد في ذلك النصف من بغداد. فكانوا، كاليرماز[١] في كربلاء ومحلة الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد نفسها، يتحدون القانون فيحمون جميع المشردين والأشرار المنبوذين الذين يلتجئون إليهم، ولم يكن بوسع أحد أن يقيم في ذلك الجانب من النهر إلا بعد الحصول على السماح اللازم منهم[٢]. والخلاصة، أنهم كانوا هم حكام محلتهم ومنطقتهم وليس الپاشا بالذات. وقد ظل الپاشا ردحاً من الزمن برماً بعتوّهم وتجبرهم وعازماً على تأديبهم وإيقافهم عند حدهم ولكن من دون أن يجرؤ على تنفيذ ما كان يريد في هذا الشأن، حتى حصل الحادث الأخير فأثار حفيظته عليهم كما ذكرت من قبل وأقدم على استعمال سلطته بهياج وحنق. إذ بعث من يخبرهم بمغادرة المدينة في الحال، وإلا فسيضطر إلى طردهم عنوة. غير أنه لم يكن من المعتاد في باشوية بغداد أن تطاع أوامر الپاشا وتنفذ مطاليبه. ولذلك رفض العقيل أن يتحركوا من مكانهم إلا بشروط لم ير الپاشا من المناسب تنفيذها. وقد حدث هذا في صباح يوم أمس، فذهب شيخ القبيلة الذي ربما أخافه هذا الإظهار غير المعتاد للقوة في السراي بنفسه لمعاتبة سموه والاعتراض على أوامره. وأخذت القبيلة في الوقت نفسه تتجمع معاً، وتستعد لحدوث الأسوء، وحينما اجتمعنا في المقيمية اليوم لتناول الفطور لاحظنا من شبابيكها درجة غير معتادة من الاضطراب والهياج في الجانب المقابل من النهر. إذ كان الناس يركضون هنا وهناك ويتجمعون معاً على شكل جماعات صغيرة وكبيرة، وقد لاحظنا بنواظيرنا إنهم كانوا مسلحين.

---

(١) لا يخفى أن كلمة يرماز كلمة تركية تعني بالعربية، الذين لا ينفعون لشيء، ويقصد بهم هنا الأشرار من طبقات المجتمع.

(٢) كان الناس وما يزالون في بغداد يطلقون على جانب الكرخ اسم «صوب عكيل». ولم يزل قسم غير يسير من سكان المحلات القديمة في الكرخ ينتسبون لهذه القبيلة، التي تشتهر منها بعض البيوتات المعروفة اليوم مثل بيت الخنيني وبيت الكحيمي وبيت سليمان الصالح وبيت اللاحم، ولا تزال هناك «قهاوي عكيل» وجامع الخنيني وجامع غنام وما أشبه.

وما إن انتهينا من تناول الفطور حتى رأينا الجسر يصبح مزدحماً بالناس، وكانت القفف تعبر النهر بسرعة ذهاباً وإياباً. فقد كان هناك على ما اتضح كثير من الهرج والمرج، واستبان أن بعض الأشخاص كانوا يحاولون قطع الجسر من الجانب الغربي. فتوقع الكولونيل تايلور والدكتور روص أن تحصل معركة في القريب العاجل. «ستراهم يبدأون هناك، على الجسر في أغلب الاحتمال»، هذا ما قاله الكولونيل، ثم أردف يقول «لقد فعلوا مثل هذا تماماً في السنة الماضية حينما هاجم الشيخ صفوك المكان». وما كاد ينطق بكلماته حتى انقطع الجسر ودل إطلاق رصاصة من الجانب المقابل على المعركة قد بدأت. فأعقبت ذلك ست إطلاقات أخرى، وسرعان ما خلا الجسر من الناس عندما أجيب على النار في الحال من الجانب الذي نقيم فيه. وبعد ذلك خفت ثلة من المشاة النظاميين عبر القسم الباقي من الجسر، وبعد أن أخذت مواقعها في زوارقه الكبيرة للحماية وجهت وابلاً من نارها إلى مقهى في الجهة المقابلة كان الأعراب يطلقون النار منه. وقد استمر إطلاق النار لمدة ساعتين تقريباً، لم يقع خلالها سوى ضحية واحدة أخبرنا بها وهي امرأة عجوز مسكينة أصابتها رصاصة طائشة حينما كانت تمر راكضة فوق الجسر بأقصى ما تستطيع من السرعة.

وقد اختلفت الروايات التي صارت تتداولها الأفواه: فقال بعضهم إن الباشا قبض على شيخ العقيل ومعه «الكمركچي» التابع له، وهو وغد معروف، فأمر بإعدامهما. وادعى آخرون أن الشيخ ما زال سالماً في بيته الواقع في الجانب الآخر، وأن الأعراب هناك ينتظرون أن يتم تجمعهم ليهاجموا جند الحكومة بقوة كبيرة. وقد تناهى إلينا قبل الظهيرة أن الباشا أعاد الشيخ إلى منصبه، وسوف لا يحدث شيء أكثر من هذا سوى السلم والصفاء. وقد توقف إطلاق النار تقريباً، بعد أن كانت تخمد وتعود بين آونة وأخرى. ولكن بينما كان أغا ميناس[1]، أحد موظفي المقيمية، يخبرنا بهذه الأنباء السارة سمعت

(١) المترجم الأول في المقيمية، ومن نسله ميناس الأرمني الذي كان معروفاً ببغداد حتى توفي سنة ١٩٤٨م.

إطلاقات المدافع وهي تدوي في الجو. فصاح الدكتور روص قائلاً «آه لقد أطلقت المدافع، إنها تعلن الانتهاء السار للمناوشات» لكن القرقعة السريعة المنطلقة من البنادق واستمرارالنار المنطلقة من المدافع في إثر ذلك كانت تقص لنا قصة أخرى، فاندفعنا كلنا إلى سطح الدار للوقوف على الخبر اليقين. على أن أشجار النخيل كانت تخفي المتحاربين عن أنظارنا، مع أن دخان المدافع وانطلاق الرصاص السريع قد أقنعانا بأن قتالاً جديًّا كان يقوم على قدم وساق.

وقد علمنا بعد ذلك أن القتال كان قد بدأ أولاً على إثر خبر تناهى إلى أسماع عقيل بأن شيخهم قد أعدم بأمرٍ من الپاشا. فقسموا أنفسهم إلى جماعتين، جاءت إحداهما لتقطع الجسر وتطلق النار على البلدة، بينما اندفعت الأخرى من الباب الشمالية لتهاجم الجند الذين كانوا يرابطون هناك وتفاجىء مدفعيتهم. وفي الوقت نفسه عمد الپاشا، مهما كانت نيته بادىء ذي بدء، بعد أن أخافه الانفجار إلى الإنعام على الشيخ بخلعة الشرف وإعادته لتهدئة أتباعه، بينما بعث سرًّا إلى قائد جيشه الموجود في الجانب الغربي يأمره بأن يهاجم الأعراب من الخلف - وقد رأينا في الحقيقة مرور الزوارق وهي تحمل الضباط إلى المعسكر هناك. لكن الأعراب قد توقعوا حدوث هذا بحيث إن الرسول حينما جاء بالأوامر وجد الجند مشتبكين في قتال معهم. فقد كان اندفاعهم مفاجئاً بحيث استطاعوا الاستيلاء على أحد المدافع قبل أن يعرف الجند وقائدهم ما إذا كان المتقدمون نحوهم بتلك السرعة من الأصدقاء أم من الأعداء. وعند ذاك قفز الجند إلى سلاحهم فردوا الأعراب على أعقابهم بفعل النار السريعة المنطلقة من المدافع الأخرى، ومن بنادق الجيش النظامي. ودارت بعد ذلك معركة متنقلة حول الأسوار[1] على مقربة من باب الحلة. وكان هذا هو السبب في تجدد إطلاق النار الذي سمعناه.

---

(١) المعروف أن جانب الكرخ ظل من دون سور يحميه مدة من الزمن حتى جاء سليمان باشا الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢م) فبنى له السور المشار إليه.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر، وبينما كانت هذه المعركة قائمة على قدم وساق، وصوت المدافع يدوي في الجو بانتظام بالقرب من باب الحلة في الجانب الغربي، ومن مدفعين كانا منصوبين في الجانب الشرقي لإطلاق النار على الطرف المقابل من الجسر والمقاهي الملأى بالأعراب، إذ حضر إلى المقيمية ضابط مرسل من الپاشا ليطلب من المقيم أن يعيره يخته الكبير المصنوع في إنكلترة، لنقل قوة نظامية منجدة ومقداراً من الذخيرة لرجاله الذين كانوا مشتبكين في حرب مع الأعراب في الجانب الآخر. فلم يكن هذا مطلباً مستحسناً على الإطلاق لأنه إذا ما تمت تلبيته فإنه قد يعتبر تدخلاً في نزاعات البلد الداخلية. غير أنه لما كانت عقيل في حالة ثورة علنية ضد الپاشا فقد استبان من الأصوب، بصفتنا أصدقاء، أن نساعد السلطات الشرعية على قدر الإمكان. وبذلك أعد الزورق ليكون جاهزاً للعمل.

والأتراك مخلوقات بطيئة. فقد استغرقوا وقتاً طويلاً في إدخال رجالهم إلى الزورق، وحينما تم ذلك وجد أنه مرتطم بالأرض ولا يمكن تحريكه، غير أنه لما كان مرسى الزورق يقع تحت شبابيك المقيمية مباشرةً، ولما كان الأعراب قد لاحظوا تجمع الجند هناك من الجانب المقابل، فقد أمطروا الساحل والبنايات المطلة عليه بوابل شديد من نارهم وظلوا يطلقون النار من الجانب المقابل على الزورق وكل شيء من حوله. ولا ينكر أن عرض النهر هنا كان يبلغ مائتين وخمسين ياردة على الأقل، غير أن القذائف كانت تأتي بخفة عبر الماء، وتقفز أحياناً، وتصيب المقيمية أحياناً أخرى. والحقيقة أن واحدة منها قد أصابت جداراً كان يبعد عدة بوصات فقط عن رأس الكولونيل تايلور حينما كان يقف وراء الحاجز ليشاهد المعركة بمنظاره. وكذلك قتل عدة جنود أو جرحوا في الزورق. ولهذا فرحنا جدًّا حينما تسنى لنا أن نحتمي وراء الأجزاء البارزة من جدار السطح. وقد كنا على كل حال غير معرضين كثيراً للخطر، لأننا كان بوسعنا ملاحظة وميض القذيفة قبل أن ننسحب لنتقي خطرها.

وقد استمر هذا النوع من التسلية أكثر من ساعتين، إذ أمكن في الأخير

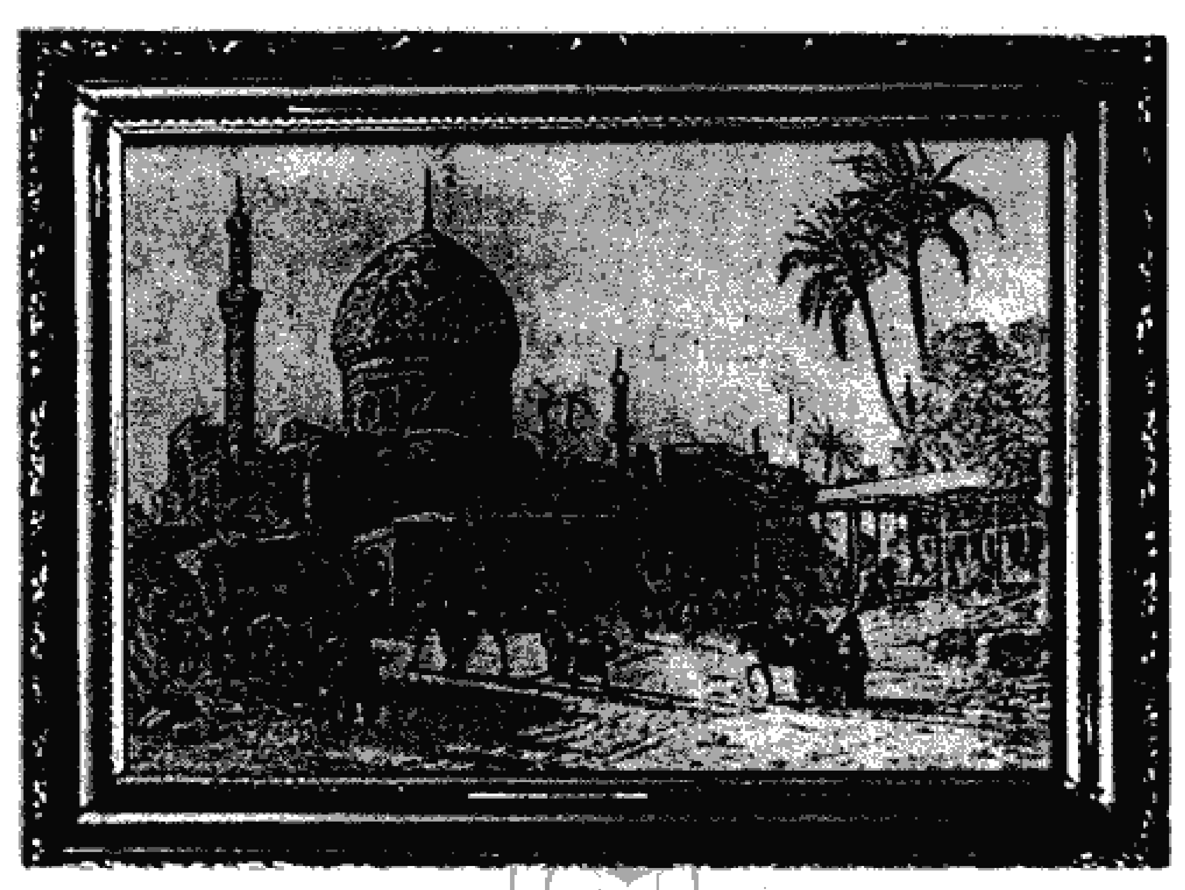


جسر الموصل في ١٨٢٧م

تطويق أو تعويم اليخت وحدره مع التيار فأنقذنا بذلك من القصف الذي كان يصبه علينا أصدقاؤنا من الجانب المقابل. ولا بد أن أشير هنا إلى أن الجنود الأتراك، على ما فيهم من خرق وغلظة بالنسبة للزورق، لم يبد عليهم أي إجفال أو تخوف حتى حينما كانت تنهال عليهم القذائف بكثرة فتصيب عدداً منهم. ويمكنني أن أقول الشيء نفسه بالنسبة لما حدث فوق الجسر، فقد جرت محاولات عدة لنصب الجسر من جديد وربط أجزائه لغرض العبور بينما كان الجند يطلق النار على الأعراب خلال النهار كله، من الزوارق التي لم تكن تحميهم حماية كافية.

وأخيراً استطاع اليخت العبور إلى الجانب المقابل، بعد أن ارتطم بالأرض عدة مرات وانحدر إلى مسافة غير يسيرة. ومن الغريب أنه لم يجد أية مقاومة هناك، فنزل الجند البالغ عددهم حوالي مئة وخمسين إلى البر واختفوا في بساتين النخيل الكائنة في ذلك الجانب بأسرع ما يمكن. غير أن اطلاق

النار من المدافع والبنادق، الذي كان قائماً على قدم وساق في الجانب الغربي من المدينة ومن الجانب الشرقي عبر النهر، قد بدأ يخف الآن. ومن المحتمل أن يكون الأعراب قد ضويقوا كثيراً من مدفع كبير في القلعة، كان قد جيء به ليكون أكثر تسلطاً على مواقعهم فأصبحوا أكثر حذراً في تعريض أنفسهم. وكانت الشمس كذلك قد مالت إلى المغيب قبل أن ينزل الجنود من اليخت إلى البر، فحصلت فترة توقف كانت تعكر سكونها فقط بعض الإطلاقات المنطلقة هنا وهناك وطبول الجند النظامي وأبواقه، على أن قرقعة إطلاق البنادق العالية وهدير المدافع قد بدأت من جديد بصورة مفاجئة - وسمع صوت عال يعلن التحاق النجدة التي عبرت بالجيش المحارب. ووصل الصوت كذلك إلى النهر، وحينما تطلعنا إلى الجسر وجدنا الجنود محتشدين فوقه أيضاً. وبعد دقيقة اندفعوا إلى الأمام وهم يطلقون النار بسرعة، فقوبلوا من الجانب الآخر بنار حامية استمرت عدة دقائق فقط ثم خمد أوارها. ولكن بالنظر لأن أعمدة الجسر لم تكن على مسافة عشرين ياردة عن بعضها فإن ربطه كان لا بد أن يتطلب عملاً كثيراً. وقد شاهدنا قفةً صغيرة تعبر الثغرة المتبقية في الجسر فأعيد نصبه كله بعد ذلك بقليل. ولا بد أن يكون القسم الأكبر من الرجال قد عبروا على ما يتضح، لكن الظلام في ذلك الوقت كان قد خيّم بحيث لم نستطع أن نشاهد أكثر مما رأينا، وقد حلت كذلك فترة من التوقف العميق للأصوات. على أن هذه لم تدم طويلاً. فقد توقف إطلاق النار، لكن صراخاً وحشياً قد تعالى بدلاً منه - صياح الرجال المختلط بصراخ النساء، وجميع أصوات الرعب والفوضى واليأس. وفي خلال دقيقة أخرى تغطى وجه الماء بعدد كبير من القفف التي كانت قد التجأت إلى الساحل في بداية المعركة. فكان من الواضح أن الجند قد استولوا على البلدة في الجانب الثاني وأخذوا ينهبون ويسلبون في جميع الجهات. وقد استمر إطلاق النار، لكن هذا لم يكن سوى إطلاق عابث كان يطلقه الجنود المعربدون لفتح باب مقفلة، أو قتل يائس كان يقاوم مقاومة غير مجدية. ثم اقترب الضجيج شيئاً فشيئاً نحو النهر فحسبنا في الحال أكثر من ثلاثين قفة وهي تعبر محملة باللاجئين الهاربين في كل مرة. وسرعان ما ازداد تكاثف الظلام، لكن الصخب ظل مستمرًا ثلاث



ساحة الميدان وجامع الأحمدية في منتصف القرن التاسع عشر

ساعات من دون أن ينقطع مختلطاً بالصراخ. وبعد ذلك خيم الصمت على كل شيء وأصبحت المدينة هادئة، وكأن الموقعة التي شهدناها لم تحدث فتعكر عليها سكونها وهدوءها.

وقد سمعنا أن «التفكنجي باشي[١]» هو الذي حثّ رجاله للقيام بالحركة الهجومية فوق الجسر التي كانت حرية بالجند المنتظم. وحينما وجد الأعراب عزمهم هذا تخلوا عن مكانهم فعبر الجيش. فنهب السوق الكائن بالقرب من الجسر في الحال، وبدأت أعمال السلب وجمع الغنائم. والمقول إن الشيخ بعث شروطاً للپاشا يعرض فيها أنه سيغادر المدينة في اليوم الثاني على أن تتم حماية البعض من العرب، فوافق على ذلك كما قالوا. ويقول آخرون إنه اتصل

---

(١) التفكنجي اسم تركي للجندي من حملة البنادق التابعين لأفواج الجيش النظامي المحلي، والتفكنجي باشي هو رئيس أولئك الجند أو قائدهم.

بقبيلة عنزة لتساعده على الاحتفاظ بمكانه في البلدة، وما أشبه هذه الحركة بسياسة المماطلة الغربية التي اتبعها. لكننا سنرى ما يأتي به الغد.

٥ كانون الأول

كانت الشوارع في ساعة مبكرة من هذا الصباح مكتظة باللاجئين، الذين كان الكثيرون منهم عراة تقريباً. وكان الآخرون وهم أسعد حظاً من هؤلاء يحملون معهم ما استطاعوا حمله من لوازمهم عند أول وقوع الحادث. وكان النسوة يضربن بأيديهن ويولولن، كما كان الرجال وهم بين عابس مكتئب، أو صخاب سباب، يحملون بنادقهم وسائر أسلحتهم. وازداد عدد الحيوانات والماشية في المدينة حتى ازدحم بها كل زقاق ودرب. وقد اختلفت الروايات حول مصير عقيل، لكنه من المحتمل جدًّا أنهم حينما وقع الهجوم فوق الجسر وجدوا أنفسهم بين نارين ففروا هاربين إلى جميع الجهات، وعادوا وبنادقهم بأيديهم إلى بيوتهم لحماية ممتلكاتهم. وحينما اكتشف الجنود ذلك، وهم على علم بأنه لم يعد هناك ما يمكن أن يخشوا منه، تخلوا عن تعقيب العدو وولو وجوههم شطر الأسواق وبيوت الأغنياء التي نظفوها من كل ما كان فيها وأشلعوا النار في الأسواق. وهكذا وقع ثقل الضربة على سكان البلدة، ولم يكن ذلك ناتجاً عن سلامة نية كما يقال لأنهم جميعهم كما هو معروف تمام المعرفة قد اشتركوا مع العقيل في أعمالهم وأطلقوا النار على جند الپاشا.

الساعة التاسعة صباحاً

لا تزال الجماعات من بابنا وهي عارية تماماً، ومعظمها يعول ويولول وقد ازدحمت الشوارع بالعرب اللاجئين من الجانب الآخر، رجالاً ونساء، لكننا لم يتأكد لنا ما حصل بعقيل. فيقول البعض إنهم ما زالوا في بيوتهم والبنادق بأيديهم، بينما يستمر الجنود على نهب بيوت سكان البلدة الأصليين – ويعتقد الآخرون أنهم فروا جميعهم. ويقال كذلك إن الپاشا أصدر أوامره للجنود بالامتناع عن النهب، وأنه هو نفسه وقف في نقطة ما على باب الجسر

ليمنعهم من نقل غنائمهم إلى الجانب الآخر. لكنه كان يحاول المستحيل بذلك - إنهم يضحكون عليه، فهو لا حول له ولا قوة.

الساعة الثانية بعد الظهر

سمعنا أن العقيل قد فروا بالتأكيد - إذ تركوا البلدة مع أسرهم وممتلكاتهم، ويقال علاوةً على ذلك إنهم قصدوا عنزة في خروجهم هذا. لكن شيخهم تخلف عنهم والتجأ للاحتماء بباب حرم الپاشا، وهو ملجأ حصين لا تنتهك حرمته، فسمح له بالإقامة في بغداد كرجل عادي بشرط أن يحافظ على الهدوء والسكينة. وقد كنا نرى خلال فترة الصباح والنهار كله أن الناس كانوا يمرون حاملين أسلابهم - فكان أحدهم يسحب خروفاً وراءه، وآخر يحمل شدة من الدجاج المشدود إلى بعضه بالأرجل، وثالث يحمل كثيراً من القدور والأواني والفراش أو السجاد، وكان الرابع قد وجد طريقه إلى مخادع النساء في البيوت المنهوبة وجاء يمسك بيده حزمةً من لوازم النساء وملابسهن. وجاء أحد جنود النظام بفرس للبيع وهو يقول إنه غنمها في المعركة، فتعجب لامتناعنا عن شراء مثل هذه الصفقة. وكان الآخر يسوق أمامه حمارين أو ثلاثة محملةً بأكياس كبيرة تحتوي على خليط من كل شيء. ولا يزال النهر مكتظًّا بالقفف.

والظاهر أن الپاشا قد جعل مقره في المقهى الكائن في الطرف الآخر من الجسر، الذي كان الأعراب يطلقون النار منه في أثناء المعركة، لغرض إيقاف السلب والنهب عند حدهما على الأقل على ما قيل لنا في الصباح. لكن هذا يعد خطأً منه على ما يقال، لأنه المزعوم الآن أنه كان يشجع الجنود على التمادي في تجاوزاتهم بتصرفاته هذه وقوله مثلاً للسكان المنهوبة بيوتهم على سبيل التقريع وهو يهز كتفيه «هل ترون ماذا فعلتم بأنفسكم؟ إنها غلطتكم وليست غلطتي».

وما زالت أخبار الخسائر مشوشة بحيث لا يمكن الاعتماد عليها. لكن المعركة لا بد أن تكون قد أخذت مأخذها من «النظام» والألبانيين، لأن أحد

موظفي المقيمية كان في ديوان الپاشا يوم أمس أثناء احتدام المعركة، فجاء رجل من الجانب الآخر يطالب بقماش قطني لتكفين أربع وعشرين جثة، وهو عدد القتلى العائد لمفرزة واحدة فقط. وقد تناهى إلينا أن قائد الهجوم الجريء على الجسر قد أصيب برأسه فقتل، كما قتل وجرح بجروح بليغة عددٌ من رجاله. ولا بد أن تكون الخسارة في الجنود باهظة بالنسبة لِما وقع في باب الحلة، لأنهم وقفوا هناك معرضين لنيران الأعراب الذين كانوا يقاتلون من وراء أسوار حجرية. فلم يحاول أحد تقدير خسائرهم هذه، على أن أشد الضرر قد وقع في البلدة نفسها. فإن فظاعات الجنود، على كونها لا يمكن أن تكون أعظم مما يقترفه الجنود الأوربيون حينما يستولون على بلدة من البلدان بهجوم صاعق، كانت مفجعة بمقدار غير يسير. فقد أُسيئت معاملة النساء بشكل مرعب، وجيء في هذا اليوم بجثة امرأة أقدم على قتلها وحش ألباني بينما كانت تقاوم تجاوزه عليها بشدة. وقد ألقيت على عتبة مرقد الشيخ، فأمر النقيب بأن تدفن كما يدفن الشهداء. وبينما كان شرير آخر من هؤلاء الأشرار ينهب حرم أحد بيوت العرب أزعجه صراخ طفل من الأطفال فيه فحمله من مكانه وألقى به في البئر على ما كان يعتقد. وراح يتبجح بفعلته الشنيعة هذه في الخارج، فوصل الخبر إلى أسماع أمه المسكينة وتجرأت على العودة إلى البيت علها تعثر على جثة طفلها. فنزحوا البئر من أجل ذلك ولكن من دون جدوى، وبينما كانوا يهمون بالخروج بعد أن يئسوا من العثور على شيء سمعوا صراخاً خافتاً تعقبوا أثره في كل مكان، فعثروا على الطفل ملقى في التنور. والظاهر أن الوغد اللئيم قد توهم بالتنور فحسبه بئراً فألقاه فيه. فأُخرج الطفل من دون أن يكون قد تضرر بشيء يذكر. وهنا يمكنكم أن تتصوروا مقدار الفرح الذي استولى على الأم المسكينة!

وليس بوسع المرء أن يتصور مقدار النفوس التي كانت تحتشد في الجانب الغربي خلال الأيام الاعتيادية. فإن الأسواق يكاد يستحيل المرور فيها من جراء البغال والحمير الكثيرة التي تمر مع سائقيها محملة بالأثاث، مع أن الدكاكين ما زالت مغلقة من الرعب والفزع المستولي على أصحابها. أما الجسر فيكوّن من أوله إلى آخره منظراً بالغ الروعة، إذ تراه مكتظًا بالناس من

جميع الأنواع والأشكال وهم يستعجلون في رواحهم وغدوهم. وقد كان ساحل الضفة الشرقية بأجمعه مغطى بجماعات الناس الذين كانوا يصلون إليه من الجانب المقابل. ويعد الهايتة سواقاً سباحين للبغال والحمير التي تساق لتعبر النهر سباحة عند الضرورة، ولذلك نراهم الآن وهم لا يزالون يسوقون هذه الحيوانات إلى ضفافه في الجانب الآخر. والمنظر في الساحل على جانبي النهر خيط عجيب غريب، إنه منظر يمكن أن يكون مضحكاً إلى آخر حد لولا الشقاء والبؤس المقترنين به. إذ يرى الرائي هنا رجلاً ينقض على خروف فيأخذه بينما يكون صاحب الخروف المسكين قد هرب مع الحَمَل إلى الجانب الآخر. وقد تسمع امرأةً في زاوية من الزوايا وهي تمزق الهواء بصراخها وعويلها من أجل طفلها أو زوجها الذي قتل أو أغرق في النهر - لأن كثيراً من القفف قد غرقت فابتلعها النهر بأحمالها. وقد تجد كذلك امرأةً أخرى وهي تندب حظها بلهجة لا تقل إيلاماً عن صاحبتها الأولى وتتحسر على ضياع ممتلكاتها وأثاث بيتها على يد وغد لئيم سرق بيتها على منظرٍ منها، وربما يكون واقفاً على مقربة منها. والخلاصة، أن السلب والانتهاك هما اللذان يستوليان على المدينة بأجمعها الآن، ولا يعاني من ذلك إلا الضعيف في كل مكان.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١٠)

وصول الشيخ وادي وسليمان غنام - زيارة لحومة المعركة - المنظر هناك - مخيم شيخ زبيد - اللباس - سلاح الأعراب - سرقة الخيول وعواقبها - معسكر الهايتة - رحيل عنزة - ترتيبات الباشا - شرطة بغداد وعدالتها - شيخ وادي - الكاظمية.

٦ كانون الأول

وصل في صباح هذا اليوم إلى ضواحي المدينة وادي[١] شيخ زبيد، مع لفيف من رجال قبيلته، وسليمان غنام بناء على استدعائهما بمناسبة الحوادث الأخيرة. وسليمان غنام، الذي كنت قد أشرت من قبل إلى كونه حليفاً من حلفاء علي باشا، وغد عربي يرجع إلى قبيلة الجربا في أصله. وكان قبل مدة غير يسيرة قد استخدم لحراسة القوافل وتوصيلها عبر البادية إلى دمشق في أثناء شجار حصل مع عقيل. لكن هؤلاء الذين كانوا قد ذاقوا حلاوة هذا الاحتكار

---

(١) هو وادي ابن الشيخ شفلح الشلال شيخ زبيد المعروف. وقد ذكر عنه صاحب (عنوان المجد) انه «.. كان أميراً كريماً جواداً له من مكارم الأخلاق والأفعال والأقوال ما لا يسعه المقام وكانت عطاياه كعطايا البرامكة، وهو من حسنات الزمان..» قارن هذا بما يقوله صاحب هذه الرحلة عن وادي نفسه في رسالة ١٧ كانون الأول. ثم يقول صاحب (عنوان المجد) عن العشيرة أيضاً «..وهم بنو منبه ابن صعب بن سعد العشيرة بن مالك، وهو مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان من القحطانية.. وبنو زبيد بطن من زبيد الأكبر من سعد العشيرة المذكورة.. وعشيرة زبيد التي في نواحي بغداد من زبيد الأصغر، أما العبيد والجبور والدليم فهم من زبيد الأكبر وكلهم من جمير من القحطانية». وقد كتب هذا الكتاب في ١٢٨٦ للهجرة.

وفوائده اتخذوا الإجراء الذي ذكرته في الرسالة السابقة، وهو التصدي لقافلة كان مسؤولاً عن توصيلها هو والاشتراط على الپاشا بإعادة إشرافهم على توصيل القوافل وحراستها - جرياً على القاعدة القديمة، على ما أحسب، وهي **«كلف اللص بالقبض على اللص»**. أما زبيد فهم عشيرة عربية تملك قسماً من البلاد الكائنة في أسفل الطريق الذاهب إلى الحلة. وقد كانوا في يوم من الأيام أقوياء الشكيمة لكنهم أخذوا بالانحطاط والتأخر في الوقت الحاضر لمختلف الأسباب. ولما كان كلا هذين الشيخين من خصوم العقيل فقد لبيا عن طيب خاطر نداء الپاشا الذي صدر إليهما جرياً على السياسة التي يتبعها في مثل هذه الظروف عادة - والآن بعد أن انتفت الحاجة إلى خدماتهما فإن الجميع باتوا ينتظرون نتيجة التدبير الذي سيتخذه في هذا الشأن.

وقد عبرنا النهر قبل الظهر لنشاهد المنظر الذي خلفه النزاع الأخير. فكانت التأثيرات لأول وهلة أقل ألفاتاً للنظر مما كنت أتوقعه، لأن القسم الغربي من المدينة (الكرخ) كان في الحقيقة قذراً خرباً بحيث يندر أن يوجد شيء يمكن أن يجعله على أسوأ مما هو عليه. لكنك حينما تأتي إلى الأسواق والأزقة - المناطق المأهولة - تجد فيها العبث والضرر الذي حصل في الحقيقة. فقد كسرت كل باب من الأبواب وفتحت، وخلعت بصورة عامة عن مصاريعها. وكان يجلس على الكثير من هذه الأبواب قليل من العجائز اللواتي كن يضربن على صدورهن وهن ينظرن إلى بيوتهن المنهوبة - التي كان منظرها المظلم الخاوي، يعلم الله، باعثاً على ما يكفي من الانقباض في النفس. كما كان الرجال الذين ظلوا يحومون حول بيوتهم يجلسون على جانبي الطريق من دون حركة وهم يحدقون فيها بفتور وهمة خائرة. وكانت بعض المقاهي، التي أفرغت مما كان فيها، يشغلها أناس تمكنت من الحكم عليهم من مظهرهم بأنهم تجار وأصحاب دكاكين خسروا جميع ما كانوا يملكون. وكانت البغال والحمير المحملة لا تزال تمر في الشوارع، يسوقها الهايتة في الغالب، كما كانت الشوارع والأزقة نفسها ملأى بالأثاث المتكسر، وريش المخاد والوسائد التي انتزعت أوجهها المطرزة، وبقطن وصوف الحشايا التي يصعب حملها، وبمقادير غير يسيرة من الحبوب والمؤونة التي رميت في عرض الطريق.

وكانت الأسواق تنم على أكثر أمارات العنف إيلاماً وإثارةً للحزن. فقد سقطت السقوف المحروقة واختلط رمادها بالحبوب والتمور والعطاريات والرقي والقرع وسائر الخضراوات - أي جميع الأشياء غير الثمينة التي لا تستحق الأخذ. وديس حطام ما أتلف خلال النهب بالأقدام أو ترك مع قطع وكسر الأواني والأوعية التي كان يحفظ فيها فأصبح ذلك كله كتلة كريهة واحدة من الوساخة والقذارة التي كان ينبش فيها ويتسكع بينها عشرات من الأطفال العرايا تقريباً، للعثور على شيء يأكلونه بلا شك. أما الحجر والدكاكين فقد كانت كلها مفتوحة خاوية، وقد خلعت أبوابها وشبابيكها - ومن حسن حظ المدينة أن القسم الأعظم من هذه مبني بالطين والآجر، ولو لم يكن الأمر كذلك لأتت النار التي أضرمها الجنون الطائش على كل شيء.

ثم ذهبنا لمشاهدة الأماكن المهمة التي وقعت فيها المعارك. فكان التخريب الحاصل في رأس الجسر أقل مما كنت أتوقعه لأن مدفعين كانا يصبان نيرانهما على تلك النقطة طوال النهار. وقد كان باب الحلة يمكن أن تشاهد فيه آثار القتال جميعها، لأن القتال معظمه كان قد حصل هنا، وهنا كذلك اختلط الحابل بالنابل ودخل الجنود في قتال مرير مع الأعراب المتقهقرين. إذ توجد هنا فسحة مكشوفة في داخل السور، فاتخذ الجند مواقعهم فيها مع المدافع بينما هرب الأعراب إلى المنازل والبساتين المحيطة بها، ومن وراء جدرانها كانوا يمطرون الجنود بنيرانهم الحامية - وهو عمل يجيدونه تمام الإجادة. هذا في الوقت الذي كان الجنود قد أطلقوا فيه على ما يقال من مدفعيتهم خمسمئة قذيفة على عدوهم غير المنظور. ولذلك تجد الأسوار والبيوت ملأى بآثار هذه القذائف، كما امتلأت الباب بآثار الرصاص الذي كانت تمطره عليها البنادق. لكن الجنود هم الذين كابدوا ويلات المعركة في الغالب، وكانوا على وشك أن يتقهقروا بعد أن استنفدوا ذخيرتهم لولا أن تصلهم في الوقت المناسب الذخيرة التي نقلها عبر النهر زورق المقيمية مع النجدة من الرجال فزودتهم بوسائل جديدة وشجاعة متجددة.

ومن منظر الخراب هذا ذهبنا لزيارة مخيم زبيد، الذي كان منظره شيئاً

يستحق المشاهدة بالتأكيد. ففي خلال خبرتي كلها مع التركمان والأكراد أو العشائر المتنقلة معظمها لم أجد أناساً متوحشين تبدو عليهم مثل هذه الهيئة الهمجية. إذ يتدلى شعرهم السبط الأسود منتشراً من حول أوجههم الداكنة، والنقاط الوحيدة التي يمكن أن يرتاح لها المرء في تقاسيمهم الوحشية التي تتجهم عابسة من تحت لباس رأسهم الغريب هي العيون السود النفاذة والأسنان البيض. وقد كان هناك في المخيم ألف من الجياد على الأقل ومثل هذا العدد من الرجال الذين يختلطون كلهم معاً لتتكون منهم كتلة هائلة، من ذوات الأربع وذوات الرجلين، تبرز من بينها غابة كثة من الرماح. أما لباس هؤلاء الأعراب، إذا كان من الممكن أن يسمى لباساً، فقد كان لباس البدو الاعتيادي المألوف في البادية - أي الغترة الحمراء أو الصفراء المشدودة حول قمة الرأس بحبلٍ سميك من الوبر - و«الدشداشة» المصنوعة من الشعر الخشن أو الخيش (البشت) - والعباءة التي تكون عادة من كل جنس ونوعية. وقد كان معظمهم قذراً رثًّا. ولم يكن البعض منهم يرتدي «اللباس»، وبعضهم الآخر لم يكن يملك ما يغطي به نفسه على ما يظهر سوى العباءة الخلقة المشدودة حول المحزم بقطعة من حبل الشعر وكان شعر البعض منهم سبطاً منثوراً على طبيعته، وشعر البعض الآخر مضفوراً بضفائر طويلة، كما كانت سيماء الجميع حادة تنم عن كثير من الشموخ. وكانوا كلهم عجفاً طوالاً، يبدون وكأنهم جياع للفريسة. لكنه لم يسمح لأي شيء يشتم منه رائحة هذا الاستعداد بالظهور أمامنا، مع أنهم في لحظةٍ واحدة تجمعوا حولنا بالمئات حالما ظهرنا بينهم. ومع أنهم أبدوا كثيراً من حب الاستطلاع، فإن ذلك لم يكن مشوباً بالخشونة. لا بل كان الأمر بالعكس، فحينما كان بعضهم يقترب منا اقتراباً زائداً كان الآخرون يعتذرون عنه فيتراجع الجميع ليفسحوا لنا المجال بمشاهدة الشيء الذي كنا نتظاهر بالنظر إليه. وهنا كان يظهر الفرق بين عربي البلدة أو الفلاح وعربي البادية أو البدوي.

فالأول جلف فظ والثاني «جنتلمن». والحقيقة، انهم على جميع ما في مظهرهم من وحشية وشراسة كان في عملهم وتصرفهم نوع من الأدب

الفطري. ولا شك أن أبرز ما في هذه المقارنة ينشأ عن روحية الاستقلال الجموحة التي تولد نفس التأثير في الهنود الحمر الذين يقطنون أمريكا الشمالية.

وقد تحدثنا حديثاً وديًّا للغاية ما بيننا لوقتٍ ما، وسألناهم عن المعاملة التي قد يعاملوننا بها إذا ما شاءت الصدفة أن يعثروا علينا في طريقهم، وهل يعمدون إلى سلبنا أم لا. فأظهروا أنهم قد صدموا لمجرد الفكرة نفسها، وصرحوا وهم يضعون أيديهم على رؤوسهم وأعينهم بأننا أعزاء عليهم بقدر أهمية هذه الأعضاء للإنسان.

ومع أن الجو كان بارداً، ولا سيما في الليل، فقد كان هؤلاء الرجال مخيمين كلهم على الأرض الجرداء من دون غطاء سوى العباءة التي كانوا يرتدونها. ولم تكن هناك أية خيمة سوى خيمة الشيخ، وهذه كانت صغيرة جدًّا. ولذلك كان كل منهم ينام، أينما اتفق، فيبدون وكأنهم حزم من الخرق القذرة سوّدت وجه الأرض. وقد كان معظمهم مسلحاً بسيوف من نوع السيوف العربية الحدباء والخناجر المعقوفة المعلقة من المحزم. وكان عند بعضهم صوالج حديد ثقيلة، كما كانت عند الكثيرين منهم حراب يبلغ طولها خمسة أو ستة أقدام للرمي. وهناك الجريد، أو الحراب الأصغر منه، المصنوع من الحديد والمعلق بالكثير من السروج بمقدار يصل أحياناً إلى ستة في كل جانب، وهذا يرمونه عند الحاجة بخفة وقوة عظيمة. وقد كان بعضهم يحمل مطارق صغيرة، كما كان لقليل منهم أعواد يبلغ طول الواحدة منها ياردة واحدة، وتجهز بكلاليب من الحديد، يستطيعون أن يلتقطوا بواسطتها أي شيء يقع على الأرض أو أن ينتزعوا رجلاً من سرجه حينما يغيرون بسرعة تامة. وقد كان هناك أيضاً عدد قليل من البنادق البالية. لكن سلاحهم الأعظم على كل حال هو الرمح الذي قلت من قبل إنه كانت توجد غابة كثيفة منه تغطي الأرض، والذي لا يشعر أي أعرابي أنه رجل كامل بدونه. إذ كان كل منهم يغرز رمحه بالقرب من جواده بوجه عام.

أما خيولهم فقد خيبت أملي كثيراً، فإنني لم أر إلاّ في النادر جواداً ذا

منظر أصيل بين جميعها. ولا شك أن أحسنها كان قد ركبها أناس اصطحبهم الشيخ معه حينما ذهب في خدمة الباشا، لكنني كنت أتوقع أن أرى مزيداً من الخيول التي تستحق أن ينظر إليها.

فلم تكن هزيلة وصغيرة فحسب، بل كانت قبيحة الشكل وتنقصها جميع الصفات المهمة التي يتميز بها الجواد العربي. والحقيقة أن قبيلة زبيد لم تكن على ما يبدو مشتهرة بالخيول الأصيلة. وإذا سألتهم عن سبب ذلك يردون عليك بقولهم «إننا إذا أردنا أن نحصل على الأصائل من الخيول نذهب إلى عنزة فننهب منها ما نريد». وقد فعلوا هذا في الحقيقة ذات يوم، لكنه كاد يكلفهم وجودهم كقبيلة محترمة بين القبائل.

فقد أرادوا في يوم من الأيام على ما يبدو أن يحصلوا على عطف مير آخور الباشا، أو رئيس الخيلية التابع للباشا، بأن يقدموا له هدية محترمة. لكنهم وقد كانوا لا يملكون أنفسهم الجياد الأصيلة اللائقة، عمدوا إلى سرقة دزينة من أحسن خيول عنزة التي كانوا على وفاق تام معها في ذلك الوقت. على أن هؤلاء سرعان ما اكتشفوا السرقة، ولم يفتهم أن يعينوا السراق أنفسهم. فبعثوا إلى زبيد يحملونها وزر الجريمة، وهم يقولون «لقد كنا إخواناً لكم وهكذا نرغب أن نكون. وقد سرقت خيولنا وأنتم سراقها - نحن نعلم ذلك ولا يجديكم الإنكار شيئاً، بل أرجعوها لتكونوا إخواناً لنا كما كنتم من قبل، وإلا فنحن أعداء لكم منذ الآن». فحلفت زبيد بكل ما هو مقدس بأنهم واهمون فيما ذهبوا إليه - وأنها لا تعلم شيئاً عن الموضوع، ودعت عنزة أن تأتي فتفتش عن خيولها عندهم. ولا شك أن العرب لا يجاريهم أحد في إخفاء الخيل المسروقة، وقد نجحوا نجاحاً غير يسير في هذا الحادث بحيث لم تستطع عنزة تمييز خيولها من بين الخيول الأخرى. لكن رجال عنزة ظلوا غير مقتنعين بالنتيجة، وقال «إن هذا لا يدل على شيء في الحقيقة، أنتم السراق وليس غيركم. ولما كنتم قد اخترتم أن تؤذوننا وتهينوننا ولا تلتفتون إلينا، فليكن الأمر كذلك، ونحن أعداؤكم».

وقد برت عنزة بوعدها هذا. ولما كانت على جانب أكبر من القوة

والمنعة بين القبائل فقد دبرت في الحال أن تضايق زبيداً وتؤذيها حتى أضجرتها ونغصت عليها عيشها، فقررت أن تحسم المشكل مع عنزة بقدر الإمكان. ولذلك بعثت زبيد إلى المير آخور ترجوه ان يعيد لها الخيول بأي شرط كان. فتم لها ما أرادت وأعيدت إلى عنزة خيولها المسروقة مع اعتراف متواضع بالخطأ، ورجاء بإعادة الصداقة إلى ما كانت عليه من قبل بين العشيرتين. فأبت عنزة ذلك قائلاً «كلا، لقد أثبتم أنفسكم بأنكم أناس لا عقيدة لهم - أيها الأوغاد والمساكين الذين يعدمن الخزى والعار الاتصال بهم. لقد وجدتم من المناسب أن تعيدوا ما نهبتموه، لكنكم هيهات أن تستعيدوا تقديرنا لكم - سنبقى على عدائنا لكم». والحق أن هذا النزاع مع عنزة قد عجل بالقضاء على مكانة زبيد بين العشائر.

ومن مخيم زبيد العاري ذهبنا إلى معسكر الهايته[1] الكائن على بعد غير يسير منه، فكان هذا منظر طريف آخر، فقد كان ممتلئاً بالمنهوبات التي كان ناهبوها يرزمونها ويؤمنون عليها بقدر ما يمكن. إذ كانت كل خيمة ممتلئة بكميات من الحاجات والأشياء غير المتجانسة، فالأسرة المصنوعة من جريد النخل والأفرشة والقدور وأواني الطبخ والطسوت والأباريق، وألبسة النساء

---

(١) يقول المرحوم الأب انستاس الكرملي في بعض تعليقاته على كتاب نشره في ١٩٣٦بعنوان (شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي بغداد) «.. والمشهور على الألسن الهايتة بإسكان الياء.. وهم بمنزلة الضبطية في المئة التاسعة عشرة للميلاد. وكانوا من العساكر الفرسان يخرجون لتحصيل الضرائب أو (الويركو) من سكان القرى، وكانوا من قساة القلوب يستخرجون الأموال بعنف وشدة فوق المطلوب من الأهالي وكان لا يردعهم رادع. ولهذا جاء في الكلام «صارت الدنيا هايتة» أي أصبحت الناس بلا رادع يردعها. وانقرضت الهايتة في بغداد في أيام مدحت باشا. ويقال إن الهايتة ترقيق الهايطة التركية ومعناها الخارج على الحكومة وقاطع الطريق... وإذا قال قائل إن الهايتة تصحيف العربية (الهيثة) بمعنى الجماعة المختلطة من الناس المؤلفة من عناصر شتى فلا يكون من المخطئين. ويقال في الهيثة الهيشمة أيضاً بشين مثلثة بعد الياء المثناة التحتية».

والرجال وغير ذلك، كانت كلها مكدسة في كل زاوية ومكان ومجموعة بأكوام في أماكن استراحة الرجال بينما كانت قطع الأشياء المكسورة تغطي الأرض. وكذلك كان عدد كبير من الحيوانات المسروقة يتمرغ في أكداس التبن المنهوب، الذي كانت تصف إلى جانبه أكياس كبيرة من الحبوب. فلم تطعم تلك الحيوانات بمثل ما أخذت تطعم به الآن. وقد كان أحد الهايتة يسوق عدداً من حمير الحمل الحردة، التي كانت على ما يبدو غير مرتاحة مطلقاً لتبدل الأصحاب. وكان آخر قد استحوذ على بغلين كبيرين، وكان عدد آخر غيرهما يسحبون خيولاً يركض وراءها أصحابها المساكين وهم يستعطفون سراقها بإعادتها إليهم ولكن من دون جدوى، غير أنهم كانوا محظوظين لأن الرد على توسلاتهم لم يكن مصحوباً بضربهم باليطقان.

ولم نلاحظ في هذا المعسكر شيئاً يدل على الضبط أو النظام العسكري إلا في النادر. فقد كان كل فرد منصرفاً إلى شؤونه الخاصة، وكان الضباط على ما يبدو لا يمارسون أدنى سلطة على جنودهم. فالحقيقة أن نصفهم كانوا لا يزالون خارج المعسكر يفتشون عن المزيد من النهب، أو يقومون ببيع ما كانوا قد حصلوا عليه من قبل. وقد كان بوسع أي جماعة قوية فعالة من الأعراب أن تفاجيء هذا المعسكر فتقضي عليه كله، إذ لم يكن هناك ولا حارس واحد لا هنا ولا في باب المدينة نفسها. وحتى في معسكر قوات «النظام» الذي كان يجري تشييده، كان هناك شيء مماثل من عدم وجود أي نوع من الحراسة والتيقظ.

وفي خيمة قائد الهايتة تناولنا القهوة ودخنت الشطوب. وقد كان على ما يروي هو نفسه بطل المعركة كلها، لكن الحقيقة أن كل من تحدثنا إليه كان هو البطل الضرغام أيضاً. والظاهر أن صديقنا هذا لم يستسغ الثناء الذي أثنينا به على قوات «النظام»، ولم يكن يعترف حتى بالبسالة التي أبداها أصدقاؤه هو في الهجوم على طول الجسر. فقد أكد لنا أن رجال «الدستة» التابعة له هم الذين اضطلعوا بالعمل جميعه، ولذلك أضاع منهم ستة عشر أو ثمانية عشر رجلاً خلال المعركة. على أنه اعترف، كما اعترف كل فرد آخر، بأن الأحوال كانت

ستسوء جدًّا لولا النجدة من الرجال والذخيرة التي عبّرها زورق المقيمية إلى الجانب الثاني ووصولها في الوقت المناسب. وقال لنا إن ما يقرب من مئتي شخص قد قتلوا وجرحوا من الطرفين، ولما كان هذا الرقم مع الروايات التي سمعناها من مختلف المصادر فإنه قد يكون قريباً من الحقيقة والواقع.

١١ كانون الأول

لقد تأيدت هذا اليوم الأخبار التي تناهت إلينا من قبل حول انقسام عنزة على نفسها وفي جناح الجزيرة. ويقال بصورة جازمة إنهم قد رحلوا من هنا، وبعد أيام قلائل يؤمل أن تفتح الطرق المحيطة بالعاصمة وتخلو من قطاع الطرق والسلابين. وقد رتب الپاشا أموره مع قبيلة عقيل بتنصيب سليمان غنام، الرجل المغامر الذي أشير إلى تنصيبه في المشيخة من قبل، لقيادة القوافل وحراستها. بينما منح شيخ عقيل الأصلي الرخصة اللازمة بالإقامة هنا بشرط أن يوافق على المعيشة كشخص اعتيادي لا غير. وهذا ترتيب يتفق تمام الاتفاق مع التدابير التي يتخذها الپاشا عادة. لأن سليمان غنام هذا لما كان سليلاً غير شرعي لرجل من عرب شمر[١] وأم عبدة زنجية فليس هناك عربي حقيقي يود من كل قلبه أن يرضخ لطاعته أو ينضم إليه. أضف إلى ذلك أنه، كما قلت من

---

(١) يقول المؤرخ سليمان فائق بك في (تاريخ بغداد إن عشيرة عقيل التي كانت تنزل في جانب الكرخ في هذه الفترة تنقسم إلى فريقين هما فريق القصيمات أو العقيل الأصليين، والشمامرة وأصلهم من شمر الجربا. وقد اعتاد الولادة في تلك الأيام أن يعينوا لكل فريق من هذين الفريقين شيخاً خاصًّا. فكان ذلك من جملة الأسباب التي أدت إلى دوام الخلاف بينهما. وكثيراً ما كان سليمان غنام (الملقب بالعقيلي) يعين لرئاسة الشمامرة الذين كانوا ميالين إلى القتال والنزاع بصورة خاصة. ولذلك لعب دوراً فعالاً في حصار بغداد واقتحامها من قبل علي رضا باشا، وإسقاط داود باشا على أثر ذلك. فقد كان وفريق الشمامرة مع علي باشا بينما انحاز القصيمات من العقيل إلى داود باشا وتطوعوا لإخراجه من بغداد وتهريبه إلى المنتفك في أثناء الحصار غير أنه أبى ذلك واستسلم للقدر.

قبل، كان قد أخفق في مناسبة سابقة حينما أُعطيت له نفس الصلاحية والمنصب. وقد كان هؤلاء العقيل أنفسهم هم الذين طردوه حينما كانت بعهدته قافلة كبيرة مهمة على مقربة من بغداد نفسها. لكن هذا كله قد لفه النسيان، وصرف النظر عن العواقب - فاللحظة الحالية وحدها هي التي تلاحظ وتؤخذ بنظر الاعتبار.

لقد قرر المستر فنلي، الذي كان نزيلنا المؤنس ورفيقي في جميع جولاتي وركوبي، أن ينفذ فكرة القيام برحلته عن طريق النهر بعد أن مل الانتظار إلى حين افتتاح الطريق. وبعد أن أجرى التحضيرات اللازمة استقل مركباً كان متوجهاً إلى البصرة. لكن المستهل الأول للرحلة كان شيئاً غير مشجع، لأن المركب لم يقطع خمسة أميال حتى أوقف بحجة وجود خيول فيه لم تدفع عنها الرسوم الحكومية المطلوبة. وقد حصل بهذه المناسبة منظر تختص به هذه الجهات، حيث تبين أن الرسوم المطلوبة كانت قد دفعت ولكن ليس إلى الشخص المختص نظراً لحصول بعض التغييرات والتبدلات الرسمية. وعلى هذا حضر اثنان من الهايتة يمثلان الموظف المختص، ومن دون سؤال أو رحمة انهالا على بحارة المركب والركاب بالضرب والإهانة وأمراهم بإخراج جميع الخيول الموجودة فوق ظهر المركب. فتدخل الدكتور روص، الذي كان قد رافق المستر فنلي لمسافة في المركب، في قضية جواد المستر فنلي نفسه وأرجع ذينك الرجلين إلى صوابهما. وعلى أثر إشعار أُرسل إلى المقيم أُوفد رسول في الحال إلى محل الحادث، وبكل برودة وهدوء صرف الرجلين الخبيثين من دون أي سؤال آخر. ولولا أن تهيىء الصدفة وجود رجل إنكليزي في المركب لنهب المركب على وجه التأكيد، وأضاع أصحاب الخيل ما يملكون، أو أُجبروا على دفع مبالغ غير يسيرة لاستعادتها. هذه هي شرطة بغداد، وهذا عدلها!!

١٧ كانون الأول

وصلت من إنكلترة هذا اليوم رزم ورسائل وأخبار إلى حد اليوم التاسع

عشر من تشرين[1] الأول - ولكن لم يكن فيها شيء لي بطبيعة الحال، فمن هو الذي يستطيع أن يمسك قطرة زئبق مثلي ويعرف عنوانه؟ فأنا اليوم هنا وغداً في مكان آخر، ومضطر إلى التأخر الآن لسوء الحظ. ومع ذلك لم أستطع أن أكبح التأثر الذي شعرت به، والحسد الذي ساورني، لأني وجدت الآخرين يقرأون رسائل من أصدقائهم بينما حرمت أنا منها. على أنني تصفحت بِشَرَه قوائم الوفيات فحمدت الله على عدم وجود شخص أعرفه فيها.

لقد عاد المستر فنلي أدراجه لأن المركب لم يستطع السير نظراً لهبوط مستوى الماء في النهر، الذي يتذبذب منسوبه على الدوام في مثل هذا الوقت من السنة تبعاً للأمطار التي تهطل في الجبال. وهو قد يرافقني أنا والدكتور روص في سفرتنا التي نعتزم أن نزور فيها سوق الشيوخ وواسط.

وفي هذا اليوم زرنا شيخ زبيد، الذي كنت آمل أن أحصل منه على دليل للقافلة يأخذنا في مستهل رحلتنا على الأقل إلى المناطق العربية. فقد تأكد تنحي عنزة وانسحابهم إلى بعدٍ كافٍ لا يجعل منهم مصدر خطر عاجل على الأقل ولما كانت هناك قافلة تستعد للتوجه إلى الحلة، فقد كنا نأمل أن نتحرك إلى الجزيرة بسلمٍ وأمان. وقد وجدنا الشيخ في بيت محمد أغا حاكم الحلة، فكان رجلاً وسيم الطلعة خفيف الروح، أشد سمنة من المظهر الذي كان يظهر به العرب، وأكثر انهماكاً بالمعيشة الطيبة مما يكونون عليه في العادة. والحقيقة أن السبب الوحيد الذي كان يحول دون التقائنا بهذا الشيخ من قبل هو عدم تمكنه من مواجهتنا نظراً لانهماكه بالفسق والمشروب. فهو في كل ليلة ضيف على أحد الناس في بغداد، وهناك يعب من الخمرة ما يشاء حتى يصل إلى أقصى درجات السكر، ولذلك كان يندر أن يرفع رأسه ويرى الناس قبل عصر اليوم التالي.

---

(١) أي أن البريد كان يستغرق في الطريق بين لندن وبغداد على ما يظهر حوالي شهرين من الوقت في ذلك الزمن. لكن الرحالة الفرنسي دوبريه، الذي كان في بغداد في بداية القرن التاسع عشر، يذكر أن الرسائل كانت تصل من إنكلترة عن طريق بيروت والشام وهيت في مدة تتراوح بين الخمسة والأربعين والخمسين يوماً.

ولم تصبح رذيلة السكر شيئاً اعتيادياً في بغداد فقط بل أصبحت شيئاً عامًّا تقريباً. فقد كانت على أيام داود باشا شيئاً مخفيًّا يتكتم به الناس على الأقل، غير أن الباشا الآن يقود طبقة السكارى بنفسه، ويرى عادة وهو لا يكاد يقدر على السير حينما يعود مساءً من حفلاته الداعرة في البساتين. ويبدو أن شيخ زبيد قد تعود على هذا النوع من العيش، ولم يكن حديثه معي على ما تدل عليه الترجمة بيننا رقيقاً حتى ولا محتشماً على وجه التأكيد. على أنه وعدنا بالمساعدة والأمان التام في داخل ديرته هو، وبالأدلاء والحراس إذا ما احتجنا إليهم في المناطق الأخرى.

وقد ركبنا في المساء إلى الكاظمية، وهي قرية تقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من شمالي بغداد، حيث يوجد ضريح الإمام موسى الكاظم إمام الشيعة الذي قطع هارون الرشيد رأسه على ما أعتقد. وكان قد حبس في جب لا يزال يرى إلى يومنا هذا، وهرب منه بمعجزة على ما يقال. ويزعم آخرون أن رأسه قد قطع بأمر من الخليفة ومع هذا يمكن أن يرى في بعض الأحيان حتى في هذه الأيام جالساً في مكانه القديم في الجب[1]. والظاهر أن هذا المزار واسع

---

(١) لا شك أن هذه الأقاويل لا أساس لها من الصحة مطلقاً. فالمعروف أن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قد توفي يوم الجمعة لخمس بقين من رجب ١٨٣هـ، وكان عمره يوم وفاته أربعاً وخمسين سنة أو خمساً وخمسين. وقد توفي مسموماً بإيعاز من الخليفة العباسي هارون الرشيد في حبس السندي بن شاهك، ولم يقطع رأسه الشريف. وقد جاء في (حياة الإمام موسى بن جعفر) لمؤلفه السيد باقر شريف القريشي «.. أن يحيى بن خالد دس إلى الإمام سمًّا في رطب وعنب فقتله، ومما يؤيد ذلك ما رواه عبد الله بن طاوس، قال: سألت الإمام الرضا عليه السلام قلت له: هل أن يحيى بن خالد سمم أباك موسى بن جعفر؟ فقال الإمام نعم سممه في ثلاثين رطبة مسمومة. وذكر أبو الفرج الأصفهاني في (مقاتل الطالبيين) أن الرشيد لما غضب على الفضل بن يحيى لترفيهه على الإمام حينما كان في سجنه وأمر بجلده خرج يحيى من عند الرشيد وقد ماج الناس واضطرب أمرهم فجاء إلى بغداد ودعا السندي بن شاهك وأمره بقتل الإمام. فاستدعى السندي الفراشين وكانوا من النصارى فأمرهم بلف الإمام في بساط فلف وهو حي، فجلس عليه الفراشون حتى توفي». لكن رواية السم أصح على ما يعتقد.

جدًّا، وله قبتان مطليتان بالذهب وأربع منارات رشيقة. وقد طليت القبتان بالذهب من قبل نادر[1] شاه، الذي يبدو انه قد التجأ إلى هذا الأسلوب في تزيين قبور الأئمة والأولياء تكفيراً عن شناعاته الأخرى. وهذا مزار عظيم يقصده الزوار الإيرانيون بكثرة - أي أن جميع الذين يزورون كربلاء لا بد أن يأتوا لزيارة هذا المكان أيضاً. وهو مثل سائر الأماكن الشبيهة به يزدهر بما ينفقه هؤلاء الزوار فيه، ويمتلىء بالمتشردين والمنبوذين الذين يلوذون بحمايته. ولم أحاول الدخول فيه لأني قد رأيت الكفاية من هذه الأشياء، وأريد أن أتحاشى اللغط الذي يثار حينما يحاول الغرباء زيارته أيضاً.

١٩ كانون الأول

علمنا في هذا اليوم أن محمود شاه قد زحف بالتأكيد من تبريز على طهران باثني عشر أل سرباز وعشرين ألف جندي غير نظامي - هذه مبالغة بالأرقام دون شك. وحينما علم أمير فارس بهذا الزحف هرب من أصفهان إلى بلاده، لكننا لم نسمع شيئاً حتى الآن عن الادوار التي لعبها الإنكليز[2] والروس في هذا النزاع - ومع هذا كم في كل هذا من طرافة بالنسبة لنا!

---

(١) الثابت هو أن الشاه اسماعيل الصفوي هو الذي أحاط القبة بالذهب وليس نادر شاه، إلا أن الأخير ربما كان قد أسهم في إجراء تزيينات أخرى في روضة الإمامين الكاظمين عليهما السلام.

(٢) ذكرنا في حاشية سابقة (تعليقاً على رسالة ٣٠ كانون الأول من هذه الرسائل)، نقلاً عن تاريخ إيران للسر بيرسي سايكس أن الزحف قد تم بتدخل من الإنكليز ومساعدتهم، وبمساعدة الروس أيضاً، حتى أن الجيش الزاحف على طهران كان يقوده قائد إنكليزي هو السر هنري لندزي بيثون.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١١)

قبائل العرب في ما بين النهرين - أخلاق الأعراب وأذواقهم - ضغائن الدم والأخذ بالثأر - قصتان من قصص الثأر عند العرب

٢٢ كانون الأول ١٨٣٤م

وأخيراً، فقد أكملنا استعداداتنا للرحلة التي نعتزم القيام بها إلى الجزيرة، أو ما بين النهرين السفلى. ونظراً لأنكِ سوف تصاحبينا الآن خلال تجوالنا في أرضٍ تقطنها عشائر عربية بالكلية، فقد يسركِ ان تكوني على مزيد من الاطلاع على طبيعة هؤلاء الناس وأخلاقهم قبل أن أقدمهم لك.

فأنت تعلمين على ما أعتقد أن بلاد ما بين النهرين، أي البلاد الكائنة ما بين دجلة والفرات، تشغلها الآن عشائر عربية على كونها لا تعتبر جزءاً من جزيرة العرب. ولا شك أن خصب هذه البلاد هو الذي أغرى هذه العشائر بأن لا تكتسح القسم الأعظم منها فقط بل بالاستيلاء أيضاً على معظم الأراضي المنخفضة التي تقع في الجانب الأيسر من دجلة وتمتد من سواحل الخليج حتى الموصل. وهكذا فإن القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، أو الجزيرة كما يسميها العرب، الممتد من نهر الخابور إلى ما يقرب من بغداد تقطنه الآن عشيرة الجربا التي أتينا على ذكرها مرات عدة من قبل. وتنتشر عشيرة الدليم في الأماكن التي تجاور المدينة مباشرة. أما البلاد التي تمتد من هذه المنطقة إلى شط الحي، الذي يخترق الجزيرة ويوصل ما بين النهرين العظيمين، فتملكها عدة قبائل تختلف فيما بينها من حيث القوة والاعتبار، وأبرزها وأكثرها انتشاراً قبيلة زبيد. وعلى الشاكلة نفسها، تشغل البلاد الممتدة من هذا الشط إلى القرنة، حيث

يلتقي النهران، عشائر عديدة أهمها ربيعة، من أقارب المنتفك. والحقيقة أن جميع القبائل الأخرى هي من متعلقات العشيرتين القويتين الأخيرتين.

وفي الجانب الأيمن من الفرات تقوم عشيرة عنزة، وهي العشيرة العظيمة التي أصبحت تعرفين الشيء الكثير عنها بلا شك، بحكم البلاد وحماية عدد من القبائل الصغيرة التي تنتشر على طول النهر من البير إلى عانة، أو تقوم باضطهادها تبعاً لما تقتضيه الأحوال والظروف. وفيما بين الحلة والسماوة تستولي على منطقة الأهوار المتكونة من فيضان الفرات، وفي ضمنها ما تسمى بأهوار لملوم، عشيرة الخزاعل الكبيرة التي تستمد قوتها من طبيعة البلاد التي تقطنها. وهؤلاء أناس يمتهنون الزراعة والرعي، ويعيشون لدرجة كبيرة على ما تنتجه قطعان الجاموس الذي تربى على أدغال الأهوار الكثة، فضلاً عن كونهم متوحشين خاصين وقطاع طرق غادرين. ومن السماوة إلى البحر تعود البلاد كلها من دون منازع إلى عشيرة المنتفك[1] العظيمة التي تمتد أحياناً إلى هيت وعانة في الشمال متاخمة إلى عنزة، وتحمي عدداً من القبائل الصغيرة التي تعتمد عليها. وجميع هذه العشائر، عدا عنزة، من رعايا باشوية بغداد بالاسم على الأقل.

وفي الجانب الأيسر من دجلة، إلى شمال بغداد، تستولي على البلاد عدة قبائل صغيرة عربية وكردية، كل أفرادها لصوص ينهبون المسافرين ويقترفون كل نوع من أنواع السلب والإغارة. وفي جنوب بغداد، توجد قبيلة بني لام القوية التي تصل في تجولها من أقسام سوسيانا الجنوبية إلى الكرخة[2]. وقد استولى عرب بني كعب[3] على جميع المنطقة الكائنة ما وراء

---

(١) ليست المنتفك عشيرة واحدة وإنما هي جمهرة عشائرية تنتمي لها عدة قبائل كبيرة أهمها الأجود وبنو مالك والغزي.

(٢) وهي منطقة عربستان (خوزستان) التابعة لإيران في الوقت الحاضر، والكرخة هو النهر المعروف هناك الذي يصب في نهر كارون.

(٣) يتبع القسم الأعظم من هذه العشيرة الآن إلى إيران، وقد كانت من رعايا إمارة عربستان العربية التي كان يرأسها الشيخ خزعل.

نهر الكرخة إلى البحر. ولا شك أن نظرةً تلقينها على الخارطة تجعلكِ قادرةً على فهم مواقع هذه القبائل المختلفة.

وجميع أفراد هذه القبائل الصغيرة، وهي تتحدر من نفس الأرومة التي يتحدر منها إخوانهم في الجزيرة العربية، أو أي مكان آخر يوجدون فيه، يشبهون هؤلاء في جميع النواحي **الأخلاقية الأساسية**. فهم جميعهم يدعون بفضيلة السخاء، وإكرام الضيف، والعدالة، وطهارة الذمة، والوفاء بالعهد، وبالصفات الحميدة المعروفة كالشجاعة والاستقلال وتعشق الحرية. وهم إذ يعترفون بكونهم قطّاع طرق ولصوصاً لا يجدون ضيراً في الاستيلاء على ممتلكات الغرباء الذين ربما يكونون غير متفقين معهم على ضمان سلامتهم وأموالهم. والحقيقة أنهم يقفون ضد أي فرد من الأفراد حتى تطلب مساعدتهم أو يشتري تسامحهم أو رفقهم. وهم يحبون التجوال والحياة الرعوية التي ينتقلون فيها من مكان إلى آخر ضمن حدود معينة انتجاعاً للكلأ الذي تحتاجه قطعانهم وحيواناتهم. على أنهم في الأيام الأخيرة أخذوا يجدون صعوبة في الحصول على الكفاية من الحبوب بطريقة المقايضة، ولذلك صار قسم من كل قبيلة ينصرف إلى الزراعة وحراثة قسم من أراضي العشيرة لمنفعة الباقين. على أن هؤلاء الفلاحين أو العرب المزارعين يعتبرون منحطّين في نظر إخوانهم البدو المتجولين الذين يستخفون بمثل هذه الأعمال الحقيرة، ويعتبرونها مهينة لعنصرهم الحرّ النبيل.

ومهما كان مقدار الفضائل التي كان من الممكن أن يتصف بها العرب الأقدمون فإن قليلاً منها فقط قد تحدّر إلى ذريتهم الموجودة هذه الأيام، في الجهات التي تمكن الأوروبيون أن يصلوا إليها على الأقل. فكما أن المعلومات المكتسبة بالإثم والجور قد فتحت عيون أسلافنا الأولين إلى عريهم وحرمانهم، كذلك أيقظ الشعور بالفقر النسبي في مخيلة الأعرابي الاشتهاء للثروة والغنى – وهو شعور يهدم تعاطي الضيافة أو الكرم تهديماً مباشراً، لأن أسهل طريقة تمكنه من الحصول عليها، أو الطريقة الوحيدة في الحقيقة بالنسبة لرجلٍ في مثل عاداته وأحواله هي طريقة القوة والاغتصاب، أي أخذ

الممتلكات التي تعود للغير. ولذلك يصبح وجود هذه الفضائل شيئاً نادراً نسبيًّا. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الصدق وطهارة الذمة. فإن الرجل الذي لا يهمه نوع الوسيلة التي يحصل بها على الغنى لا يعبأ إلا قليلاً بالوعود والمواثيق. وعلى هذا ليس هناك أكثر شيوعاً بين الأعراب من الخيانة ونكث العهود. وبذلك تصبح رابطة «الخبز والملح» المقدسة شكلاً أجوف يمكن تحاشيه بسهولة. فالعهد الذي يعطيه شيخ من الشيوخ يضرب به عرض الحائط حينما يتفق ذلك مع مصلحته هو، في شخص أخيه أو عمه الذي يعلن استقلاله عن الغير وحقه في السلب والنهب. حتى أننا كثيراً ما نسمع أن المضيف منهم يقوم بواجب الضيافة تجاه المسافرين باعتبارهم من ضيوفه، ويوصلهم سالمين إلى نقطة متفق عليها، ثم يتصدى لهم بنفسه فيسلبهم ويجردهم من كل ما يملكون[١].

---

(١) يلاحظ القارىء أن لجهة صاحب الرحلة هذه فيها تحامل غير قليل على العرب وخاصة في هذه الرسالة التي يعني بها أعراب البادية. فهو يتسرع في أحكامه ويصمهم بالخيانة ونكث العهود والجبن، وبالسلب والنهب والوحشية وغير ذلك. إن هذا ناتج عن الصعوبات والمشاق التي كان يلاقيها هو وأمثاله السياح في ذلك الوقت أثناء تنقلهم من دون روية أحياناً، وخاصة من اللصوص وقطاع الطرق الذين كان من الممكن أن يصادفهم المسافر في طريقه في أنحاء كثيرة من العالم، وحتى في أوربا يومذاك. والذي يؤاخذ عليه في هذا الشان أنه يصدر أحكاماً عامة مغلوطة من دون أن يستند فيها إلا على حوادث فردية وظروف خاصة لا يمكن أن يقاس بموجبها سلوك قوم أو أمة بأجمعها. يضاف إلى ذلك أنه يبني أحكامه هذه على قصص يسمعها من بعض الناس أو تروى له من أناس مغرضين لا يمكن الآخذ بكلامهم. فإنه مثلاً يحكم على جبن العرب حينما تفر شرذمة من العشائر غير مسلحة إلا بالأسلحة البدائية أمام السلاح الحديث الذي تقابلهم به قوة نظامية يستصحبها معه المقيم البريطاني في زورقه الذي كان يسافر فيه عن طريق دجلة. ويحكم عليهم بالبخل حينما يتصدى له قطاع الطرق في البادية لأخذ الخوّة التي كانت تعتبر شيئاً متعارفاً تعترف به حتى الحكومات في تلك الأيام. وبوسعنا أن نبرهن له على وفاء العرب وكرمهم وشجاعتهم وعزة نفسهم وإكرامهم للضيف =

والشجاعة، مثل كثير من الصفات الأخرى، هي بنت الظروف والأحوال الآنيّة ولا تنمو وتترعرع إلا تبعاً لما تقتضيه تلك الظروف بالذات. **فإن المقاومة العنيدة التي أبدتها قبيلة بني بو علي تجاه القوة البريطانية في رأس الخيمة،** والشجاعة الفائقة التي أظهرها العرب من الجنود المرتزقة في الهند في مناسبات كثيرة، ووقفات الوهابيين الجريئة يمكن أن تتخذ كلها، مع كثير مما يمكن أن يستشهد به من غير هذا، أدلة واضحة على شجاعة العرب وبسالتهم. ومع ذلك فإن الحال تنعكس في البلاد التي أتكلم عنها بحيث يصبح خلق الأعرابي الجبان، على عتوه، شيئاً معروفاً. وهناك عدة حوادث يمكن أن تروى من هذا القبيل. فقد حدث في مناسبة معينة، حينما كان الكولونيل تايلور مسافراً بالزورق من البصرة إلى بغداد، أن جماعة من العرب في إحدى القرى القائمة على ضفاف دجلة أزعجها تصرف أحد الرجال الذين كانوا يعملون في الزورق نفسه فاجتمعوا بأعداد كبيرة وأخذوا يقومون بحركات عدائية من دون أن يكون من الممكن تفريقهم بمختلف الوسائل، ولذلك ارتُئيَ من الضروري أن تطلق بعض الإطلاقات فوق رؤوسهم، وأن يصليهم الحرس السباهيون من فوق الزورق بصلية واحدة في الهواء. فكان لذلك تأثير آني فعال، إذ وقع قسم من الرجال على الأرض ولاذ الآخرون بالفرار. أما نساء القرية، أو المخيم، فقد قوضن الخيام في الحال وتراجعن إلى هور صغير بالقرب من الموقع. وحينما استمر وقوع الحركات العدوانية، وعاد الناس إلى التجمع بعد أن ازداد عددهم، أنزل إلى البر فريق من الحرس السباهي. فارتاع الأعراب لهذه التحضيرات المتخذة لمقاومتهم، برغم تفوقهم الكبير في العدد، وأخذوا يلوحون باستعدادهم للمفاوضة. وعلى هذا الأساس جرت بعض التفسيرات والتوضيحات فأعيد الصفاء إلى نصابه. وقد اعترفوا بعد ذلك بأنهم كانوا يتصورون بأن زورق المقيم هو من الزوارق الأهلية التي كانوا معتادين على

= بمثات القصص التي ربما كان قد تجاهلها حينما كتب بعض الجمل التي أوردها في هذه الرحلة. ولذلك ننبه القارىء اللبيب إلى ذلك ولا نخال أن شيئاً من هذا القبيل يمكن أن ينطلي عليه.

بلصها والتحرش بها. وقد حدث الشيء نفسه حينما هاجم بعض الأعراب في النهر صديقاً لنا كان مسافراً إلى الجنوب، وطلبوا منه أن يدفع لهم رسوماً اعتباطية، لكن إطلاق النار فوق رؤوسهم وإبداء الحزم والقوة تجاههم كانا كافيين لدفع الشر عنه.

ولا غرو، فإن إبداء شيء من الحزم لا بد أن يرجع أعراب ما بين النهرين إلى صوابهم في جميع الحالات تقريباً. لكن هذا الحزم يجب أن يصدر عن حكمة وتعقل، وإلا فإنه قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه. فإذا ما سفك أي مقدار من الدم، وكان الخصم متفوقاً في العدد، لا بد أن تكون العواقب وخيمة والنتيجة مهلكة. وإذا لم تحصل مقاومة في مثل هذه الحالات فيندر أن يعمد الأعراب إلى القتل. وقد دلل على ذلك ما وقع لثلاثة من الإنكليز قبل سنوات قليلة، حينما كانوا مسافرين في قافلة خرجت من بغداد إلى استانبول، ففي موقع بالقرب من ماردين أحيطت القافلة بفريق من الأعراب المسلحين الذين طالبوا القافلة بمبلغ من المال بصفة رسم كمركي. وقد كان من الممكن أن يسوى المشكل تسوية سريعة بدفع قسم من المبلغ المطلوب، غير أن إخواننا الثلاثة، الذين كانوا يبعدون عن القافلة بمسافة قصيرة حينما وقع الهجوم، استهجنوا فكرة الرضوخ للأعراب وسلبهم من قبلهم فتراجعوا إلى مرتفع من الأرض، وسرعان ما أحاطت بهم هناك ثلة من الأعراب المدججين بالسلاح الكامل. فأعقبت ذلك تهديدات وحركات انفعالية كثيرة، وفي خلال احتدام الغضب من الطرفين، وبقدر مؤسف انطلقت إطلاقة من مسدس أحدهم فأصابت ابن الشيخ أو قريبه. وكانت نتيجة ذلك أن شن هجوم عاجل عليهم فقطع المسافرون المنكودو الحظ إرباً إرباً في لحظة واحدة.

وقد سبق أن عرفت من روايات سابقة أن هذ المعارك لا يكاد يسفك فيها دم - فكثيراً ما يتم الظفر ويحصل النصر من دون خسران ولا رجل واحد. لكنه يجب أن يلاحظ أنه، بالإضافة إلى إحجام الشخص من التعرض إلى المخاطر، هناك تقدير عام لعواقب سفك الدم وأخذ الثأر الذي يعتبر كابحاً قويًّا ضد أي نزوع طائش إلى العنف. على أن المعركة التي جرت مع عقيل لم تطبق فيها

هذه القاعدة، ومع ذلك فقد رأيت ضآلة الخسارة التي حلت بأولئك الأعراب في هذه المناسبة، وقلة تعريض أنفسهم للخطر.

وحوادث الثأر للدم هذه، على ما تنطوي عليه من الفظاعات والشناعات، لا تختلف إلا قليلاً في طبيعتها عما هو موجود منها لدى الأمم الأخرى، بما فيهم حتى سكان بلادنا نحن في الأزمنة القديمة. ومن الممكن أن نكتب مجلدات في تفصيلات هذا الموضوع، لكنني أستطيع أن أقول إنك ستقتنعين بحادثة واحدة أو اثنتين، على سبيل تقديم النماذج، وهناك حادثة واحدة أراني مدفوعاً إلى سردها لأنها حدثت بمعرفة رجل من أهالي بلادنا شهد بأم رأسه دوراً من أدوارها.

فقد كان فرع من فروع بني لام على خصام مع قبيلة أخرى من العرب، لا أتذكر اسمها، وفي خلال هذه الخصومة سفك كثير من الدم بين الطرفين لإشباع الثأر الشخصي والانتقام لشرف الباقين من الأقارب. فصادف في يوم من الأيام أن رجلاً إنكليزيًا كان يسيح في عربستان (خوزستان) استضيف في خيمة شيخ القبيلة الأخيرة، فكانت مضيفته فيها ابنة الشيخ نفسه التي كانت تقوم مقام أبيها في هذا الشأن نظراً لعدم وجود أحد غيرها من الأسرة في ذلك الوقت. وحينما جن الليل لجأ كل فرد إلى فراشه، بما فيهم الضيف الغريب، لكنه انتبه قبيل الصبح على صوت صراخ عرف منه أنه صوت مضيفته الشابة وهي تستغيث وتقول إنها قتلت! فهمَّ الجميع إلى محل الحادث، حيث وجدوا البنت المسكينة تعاني سكرات الموت، لأنها كانت قد طعنت في صدرها بثلاث طعنات عميقة بالخنجر. وحينما كان الجميع ينظرون إلى الضحية المحتضرة ويقدمون الإسعافات الممكنة لها سمع صوت من مكان مرتفع، على مقربة من محل الحادث، ينادي قائلاً «أنا التي فعلت ذلك، الحمد لله، لقد قتلتها». فاستدارت الأنظار كلها إلى ذلك الاتجاه الذي شوهدت واقفة فيه امرأة عجوز تأتي بحركات انفعالية شديدة وحينما هجم الجميع نحوها ركضت إلى حيث كانت الخيام قد نصبت على حافة النهر، وهناك ضويقت فسقطت فيه واختفت عن الأنظار.

وقد تبين بعد الاستفسار والتحقيق أن الشيخ الذي فجع بابنته كان له ذات يوم ابن قتله في معركة سابقة «پهلوان» ينتمي إلى القبيلة الأخرى. فكانت هذه حادثة تستوجب كل ما تقتضيه الضغينة والثأر من خلاف. وبعد مدة قصيرة دخل رجل غريب إلى المخيم فقوبل بالترحيب الاعتيادي الذي تقتضيه واجبات الضيافة عند العرب. وكان من سوء الحظ أن يتعرف أحد رجال القبيلة عليه. ويكتشف أنه نفس «الپهلوان» الذي كان قد قتل ابن الشيخ. فما الذي كان يجب أن يصنع؟ فقد كان الرجل ضيفاً على القبيلة، وكانت جميع قواعد الضيافة تقتضي بالنسبة لعرف العرب أن لا يمس بسوء. وكان الشيخ نفسه غائباً في مكان آخر، وبينما كان حسن النية والرأفة يسودان المجتمعين دخلت البنت الشابة موضوعة البحث وراحت تعنف الرجال وتعيّرهم بالجبن والتباطؤ في ثأر شيخهم. ثم قالت «فهل تريدون أن يكون قاتل ابن شيخكم بين أيديكم فيفلت منها؟ إن هذا يجب أن لا يقال مطلقاً، اقتلوه في الحال أو تخلوا عن اسم الرجال!» على أن الإحجام مع كل ذلك بقي مستحوذاً على أيدي الرجال وأسلحتهم فمنعها عن التجاوز على قواعد الضيافة والمضيف بمثل هذه الصراحة، برغم الحنق الذي كان يغلي في صدورهم. وعند ذاك أمسكت البنت، وهي منفعلة لوجود قاتل أخيها بين ظهراني القبيلة وتصور إفلاته منها، بسيف في يدها وبادرت إلى ضربه. فكان منظر الدم شيئاً لم يستطع الرجال مقاومته، فسلت السيوف كلها في لحظة واحدة وأغمدت في جسم ضيفهم منكود الحظ الذي قطع إرباً إرباً.

وقد عاد الشيخ فتميز غيظاً وغضباً لما اقترفه الفاعلون من انتهاك فاضح لواجبات الضيافة. لكنه فوّض أمره للّه بعد أن لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً لتلافي ما وقع. فتصرمت الأيام وانقضى الزمن ونسيت القبيلة حادثة القتل هذه، كما تنسى غيرها من الحوادث. غير أن أم القتيل لم تنس ذلك مطلقاً. وإذ كانت عازمة على الانتقام لابنها ظلت تتعقب المخيم المعادي سنين عديدة وتتحين الفرص بصبر وأناة، فلم تؤاتها الفرصة إلا في تلك الليلة المشؤومة التي كان فيها الرجل الإنكليزي، الذي يقص القصة هذه، ضيفاً بطريق الصدفة في خيمة الشيخ، وشهد تنفيذ انتقامها الوحشي.

اما القصة التالية من قصص الثأر العربية، فهي على جانب أكبر من الهول والفظاعة، وهي مستقاة من بعض يوميات الكولونيل تايلور عن القبائل العربية وتختص بفترة أبعد في القدم. فإن عشيرة المنتفك، التي أشرت إلى قوتها وسطوتها من قبل، تستمد قوتها الرئيسة في الأساس من قبيلتين رئيستين هما قبيلتا بني مالك والأجود. وهاتان القبيلتان، وإن كانتا متحدتين في الوقت الحاضر، كان بينهما خصام عنيف من قبل. وقد كان سبب النزاع اختلافهما على حق المرعى في مناطق معينة، وكان بنو مالك هم المسيطرين بينما محقت الأجود. وباستثارة بنات القبيلة وتشجيعهن، أخذ كل رجل من رجال الأجود يسلح نفسه للمعركة ويقتحم الموت في الذب عن البقعة التي كان آباؤه يرعون فيها قطعانهم. غير أن هذا الظفر الدامي على ما كان فيه من شدة وبسالة لم يكن كافياً تجاه ما كان يساور سليمان، رئيس بني مالك، من تنبؤ مفعم بالحذر. فقد كان يتخوف مما قد يصيب قبيلته من اقتصاص مخيف في المستقبل، فيما لو بقي حتى ولو شخص واحد وخاصة من الرجال على قيد الحياة من القبيلة الخاضعة. ولذلك اتخذ ترتيبات فظيعة يعمد فيها إلى قتل نساء تلك القبيلة كلهن، وبذلك يضمن القضاء على نسلها بمثل هذه الوسيلة البشعة. فنفذ هذا العمل الشيطاني، ولم يسلم من النسوة إلا واحدة ألقت بنفسها على قدمي رئيس من رؤساء بني مالك فأنقذها بعطف منه بعد أن جازف بحياته من أجلها، لأنه جرح وكاد يتقطع جسمه بالسيوف دفاعاً عن محميته. ومن هذه الامرأة الشابة، التي كانت حاملاً في يوم المجزرة، ولد عبد الله الذي أصبح فيما بعد مؤسساً لقبيلة استمدت اسمها من منشأ رئيسها الخاص فسميت «قبيلة اليتامى[1]». وقد وقعت المجزرة في واد من الوديان الجميلة التي يمكن أن توجد بين الجبال حتى في تجربة الجزيرة العربية الحجرية العقيمة، حيث يمكن الحصول على الماء من قرب سطح التربة في كل مكان وتغطي الأرض في الربيع وأوائل الصيف بعشب غزير يكوّن مرعًى ممتازاً.

---

(١) لم نعثر على قبيلة بهذا الاسم، لكن المعروف أن نخوة الأجود «يتيم» بالتصغير.، وربما تكون لهذه الكلمة علاقة بالقصة.

وبقعة مثل هذه هي التي يود العربي الجوّال أن ينصب مخيمه فيها. فهي جميلة ممرعة إذا ما قورنت بالبادية المحيطة بها، وليس من العجب والحالة هذه أن يستثار العربي ويكافح من أجل الحفاظ على حقه في التمتع بمثل هذا الملجأ والملاذ. ويقع هذا الوادي على بعد خمسة عشر ميلاً جنوبي البصرة الحديثة، وهو يحتفظ حتى يومنا هذا بالاسم الذي أطلق عليه في تلك الواقعة المشؤومة، حيث إنه يسمى اليوم «وادي النسا».



فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة والبقاع

ت

ج

فهرس القبائل والشعوب والأديان

ت

ج

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

فهرس المحتويات